سلسلة كتب ورسائل
الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق
المجموعة السابعة

كلمات مختارة

بقلم

الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق

بيت المقدس

بسم الله الرحمن الرحيم

المجموعة السابعة

كلمات مختارة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

شركة بيت المقدس للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - ص.ب : ٤٣٧١ - الرمز البريدي : ٣٢٠٧٤
هاتف الإدارة : ٢٦١٠٢٧٠ - هاتف وناسوخ : ٢٦٣٧١٢٠
المعرض : ٢٦٣٦٤٨٣ - المندوب : ٦٦٠٠٦٢٧
البريد الكتروني : muqdes@hotmail.com

كلمات مختارة

كتاب

الجحيم

رؤية من الداخل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النِّساء: الآية ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١)

وبعد،،،

١- في أول الطريق: الفردوس هي الأمل:

عندما كنت في بداية الطريق، طريق الإسلام، وكان هذا بحمد الله في أول مراحل الشباب، كنت أرى أن الفردوس هو المكان الذي يجب أن تتعلق همتي به. وربما كان يخالجني الشعور لا الأمل فقط بأنني جدير به!! وكنت أظن أن مسألة النار، والتفكير بالنجاة منها خارج عن سعي مثلي ودعائه؛ فمثلي ليس من أهلها -إن شاء الله- ولا يدخلها!! وبالتالي، فهو غني عن

الخوف منها، والاستعاذة بالله منها، وإن دعا الله بالنجاة منها، فإنما ذلك تأسياً بالرسول ﷺ الذي يدعو بالنجاة من النار مع القطع أنه ليس من أهلها. وكان كثيراً ما يخالجني الشعور عند الاستغفار أنني لم أعمل ما يوجب الندم الطويل، ولا الأسف البالغ، فإن ما وقعت فيه من الذنب قد وفقني الله للإقلاع عنه، والاعتذار منه، وهذا كاف في باب التوبة!!

وقد استمر بي هذا الظن مرحلة من عمري في الدين. ثم لما بدأت في فقه القرآن، وعرفت حقيقة معنى الإيمان، وحقيقة معنى المعصية، ودرست أخلاق الرسل والصالحين وأهل الإيمان، بدأ هذا الشعور يتلاشى شيئاً فشيئاً. ثم أصبح الهاجس الأول والأخير هو التفكير في كيفية النجاة من النار، والفرار مما قبلها من أهوال وأما الجنة؛ كل الجنة؛ ولا سيماً الفردوس فلها حسابات أخرى!! وسعي آخر رأيت أن همتي وعزمي وعملي دونه بكثير. وأن المعاصي التي ارتكبتها والذنوب التي قارفتها لا يكفيها البكاء من يومي هذا إلى الممات، وأنني إن لم تتداركني رحمة الله بالمغفرة، أصبحت من الخاسرين. فكيف كان ذلك؟!

٢- إدراك مفهوم الذنب:

لقد اجتمعت مجموعة من الأمور جعلتني أراجع حساباتي السابقة، وأنظر إلى الأمر نظرة جديدة، وكان أول ما أيقظ شعوري بخطأ تصوراتي السابقة حول الجنة والنار -وأنا في بداية الطريق- هو إدراكي لمعنى الذنب، وأن معصية الله سبحانه وتعالى شيء كبير، وكان مما أشعل في نفسي هذا المعنى كلمةٌ لأحد الصالحين يقول فيها: «لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر من عصيت»!!

ووجدت مصداق ذلك فيما يتصف الله به من صفات كماله وأنعامه وتفضله على عباده. وأن حقه سبحانه وتعالى على عباده أن يتقوه حق تقاته، وأن يطيعوه ولا يعصوه، وأن يشكروه ولا يكفروه، وأن يذكروه ولا ينسوه.

ومن الذي يستطيع أن يقوم بذلك على وجهه الكامل؟ ووجدت أن الله سبحانه وتعالى يحذر عباده من عقوبته. وأنه يؤاخذ بالذنب صغيره وكبيره!! وتيقنت أن حق الله على عباده أعظم وأكبر من كل ما يأمرهم به. وأن الجميع تحت رحمته وطوع أمره، وأنه سبحانه ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

٣- لماذا كانت المعصية شيئاً عظيماً؟:

المعصية في ذاتها شيء عظيم لأنها مخالفة لأمر الرب الإله الذي لا إله إلا هو، خالق السموات والأرض، وخالق كل شيء، وهو رب كل شيء ومليكه الذي خضع له كل شيء، وذلّ له كل شيء، فهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير الذي لا يغيب عنه من شؤون عباده صغير ولا كبير.. فهو القائم على كل نفس بما كسبت، والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض... الذي تخافه الملائكة العظام الكرام، وتكاد السموات أن يتفطرن من فوقهن فرقاً وخوفاً منه .

والذي يمسك السموات والأرض أن تزولا... والذي لا يحيط أحد من خلقه علماً به، وهو يحيط علماً بكل مخلوقاته، ولا يغيب عنه سبحانه خطرات قلوبهم ولا نزغات نفوسهم، ولا وساوس صدورهم، الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، والذي لا يقبل من أحد من مخلوقاته إلا الإذعان له، والاستسلام لأمره.

والذي يكرم من شاء من خلقه وعباده فلا يكون لإكرامه منتهى ولا لعطائه حد. ويهين من شاء من خلقه، فلا تكون لإهانته مثيل، ويعذب من أراد من عبيده فلا يكون لعذابه نهاية، ولا لعذابه شبيه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

وهو الرب الإله الذي جعل الخلق كله له والأمر كله له، فلا يخلق إلا هو، ولا يستطيع غيره أن يخلق ذَرَّة، ولا بُرَّةً، ولا ذباباً. والذي يملك نفع

خلقه وضرهم فلا يملك غيره لأحد من خلقه لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء هو.. وهو الرب الإله خالق السماوات والأرض الذي لا يكرثه ولا يتعبه خلق السموات والأرض ولا حفظهما في أماكنها ومداراتها.

فمن ذا يستطيع أن يضع الشمس في مكانها غيره؟ وأن يضع القمر في مكانه غيره؟ والنجوم في مساراتها، والمجرات في مجاريها؟ ومن الذي أتقن كل ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: الآية ٤١]

فهو مالك الملك كله، ومدبر الكون كله لم يساعده أحد و لم يعاونه أحد في خلق الكون، ولا حفظه، بل هو الخالق لكل ما في الكون والحافظ له، والمقيم له، وهو الذي يفرط عقد هذا الكون وقتما يشاء، ويبدل السموات والأرض وقتما يريد. قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الإنفطار: الآيات ١-٥]

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ (التكوير: ١-١٤)

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ (الانشقاق: ١-٥)

هذا الرب الإله سبحانه وتعالى الذي وصف نفسه في القرآن فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)

وقال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

وقال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٤-٩)

وقال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٤)

وهكذا فإن معصية هذا الرب العظيم الكبير المتعالي أمر عظيم، ومخالفته فيما أوجب على عباده ذنب كبير جداً.

٤- حق الله على عباده أكبر من كل ما يأمرهم به:

ثم إن مما يجعل مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى أمر عظيم، وإثم كبير هو أن حق الله على عباده أكبر مما يأمرهم به، فإن الله هو خالق الخلق، ومدبر شؤونهم، والمتفضل عليهم بنعمة الوجود أولاً، ثم ما من نعمة إلا وهي منه سبحانه وتعالى، فهو وحده الرزاق لكل عباده وهو ربهم الذي يكلئهم ويرعاهم، ويربيهم برحمته، وليس لهم رب سواه، ولا إله لهم غيره.

ولو أمر عباده بما أمر، فإن هذا حقه على عباده فإنه خالقهم وربهم، ومنشئهم من العدم، ومع ذلك فلا يكلف سبحانه وتعالى نفساً إلا وسعها ولا يأمر عباده إلا بما ينفعهم، وإذا أمرهم فإنه يأمرهم وهو غني عنهم، غير فقير

لعبادتهم، وعبادة العباد له هي من جملة الفضل الذي يتفضل به عليهم، لأنها سبب لزكاتهم وطهارتهم، وسبب لنيل مرضاته ورحمته وجائزته. وهكذا تصبح معصية العاصي أمراً عظيماً وإثماً كبيراً لأنه يخالف الرب الإله الذي أحسن وأكرم، وخلق ورزق، وتحنن على عبده!!

٥- الدين الذي لا يقبل الله من عباده غيره هو الإسلام:

والدين الذي لا يقبل الله من عباده غيره، هو الإسلام ومعناه الاستسلام لله بتصديق خبره وتنفيذ أمره. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩] ، وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥] ..

والإسلام هو الدين الذي رضيه الله لعباده ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: الآية ٣] وهو دين ملائكته وكل طائع له طوعاً من خلقه. قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النّحل: الآية ٥٠] ، ودين السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصّلَت: الآية ١١] .

وأما من لم يطعه طوعاً من خلقه فكرهاً: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: الآية ٨٣].

٦- تكذيب الخبر كفر، ورد الأمر كفر:

ومن رد خبر الله سبحانه وتعالى، أو كذب بشيء من الغيب الذي قصه علينا فقد كفر، وكذلك من رد أمر الله سبحانه وتعالى وأبى أن يطيعه استكباراً وعناداً فقد كفر.

والمعصية الأولى التي عصى بها إبليس ربه كانت من النوع الثاني أعني أنها رد الأمر، فإن الله قد أمره بالسجود لآدم فقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: الآية ٦١]، ولم يكن إبليس -لعنه الله- مكذباً بشيء من أخبار الله.

وإنما انحصرت معصيته في رد الأمر الإلهي كبراً وعلواً عندما ظن أن هذا الأمر يخالف الحكمة إذ زعم أن الفاضل لا يسجد للمفضول، وقد رأى نفسه ـ وقد خلق من النار ـ أفضل من آدم المخلوق من الطين. وقياس إبليس قياس فاسد.

ولما أصر إبليس على معصيته كان جزاؤه أن لعنه الله أبداً وطرده من رحمته سرمداً.

فمعصية إبليس إذن كانت إباءاً ورداً للأمر الإلهي، ومن أجل ذلك كفر إبليس، ولعن وطرد من رحمة الله.

وأما المعصية الثانية التي عصى بها الله سبحانه وتعالى، فقد وقعت من آدم عليه السلام، ولما لم تكن عناداً، وإنما كانت ضعفاً ونسياناً كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: الآية ١١٥] ثم إن آدم لم يصر عليها، بل سارع إلى الفرار منها والاعتذار عنها قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

فلما اعترف آدم وزوجه بالخطيئة، وسارعا إلى التوبة والإنابة، فإن الله سبحانه قبل عذره، وأقال عثرته.

والناظر في معصية آدم يجد أن هذه المعصية قد كانت مخالفة للأمر الإلهي فقط، فإن الأكل من شجرة في الجنة ليس إثماً في ذاته، لولا أنه معصية لله الذي أمره ألا يأكل من هذه الشجرة.

٧- العبودية لله هي طاعة الأمر فيما عُقِلَ معناه، وما لم يُعقل معناه:

والعبودية لله إنما هي في طاعة أمره أيّا كان هذا الأمر في صغير أو كبير. فيما يوافق معقول المأمور، أو يخالف معقوله. فإن الرب الإله سبحانه وتعالى هو أعلم بما يأمر به وينهى عنه، والعبد لا يكون عبداً على الحقيقة إلا إذا أطاع معبوده دون تردد أو توقف أو نظر أو سؤال؛ لم أمر بكذا؟ ولم نهى عن

كذا؟ ولو كان العبد لا يطيع إلا فيما عقل وفهم لكانت طاعته لمعقوله ومفهومه وليس لخالقه وإلهه ومولاه..

فإن الإنسان يطيع عقله، وقلبه في أشق الأمور على نفسه وبدنه، بل قد يركب الصعب والذلول في تنفيذ ما يأمره به سلطان العقل، أو سلطان القلب والهوى ...

ولو كانت طاعة الله تابعة لسلطان العقل والقلب والهوى لكان المعبود حقاً هو العقل والقلب والهوى وليس الله سبحانه وتعالى...

بل العبودية أن يطيع العبد ربه فيما يخالف سلطان عقله وقلبه وهواه.

بل إن الدين قائم على مخالفة ما تهواه النفوس، وما يخالف رأي الإنسان ومعقوله أحياناً وهذا هو معنى التعبد لله... ولا يمنع أن يكون في الدِّين ما يوافق معقول الإنسان ونظره، ولكن الله سبحانه وتعالى شاء أن يتعبد عباده بما يحكم به هو سبحانه وتعالى، لا بما يرونه بأنفسهم أو يعقلوه بعقولهم، أو تهواه أنفسهم.

٨- إبراهيم عليه السلام هو الإمام والمثال والقدوة والأسوة في المسارعة إلى تنفيذ أمر الله سبحانه:

هذا نبي الله إبراهيم جعله الله إماماً للناس جميعاً، وجعل النبوة في ذريته دون سائر البشر، ولم يصل إبراهيم عليه السلام إلى ما وصل إليه من إمامة الدين إلا أنه أُمِرَ بأوامر إلهية تخالف معقول البشر فنفذها إبراهيم عليه السلام على النحو الذي أمره الله بها تماماً. قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤] ، وكان مما أمر به مما يخالف معقول البشر أن يلقي زوجته هاجر وابنها إسماعيل في أرض مقفرة موحشة لا إنس فيها ولا شيء وهي أرض مكة، وليس معهم أحد على الإطلاق وليس لهم من الزاد إلا جراب تمر، وقربة ماء... ثم كر عائداً وحده إلى بلاد الشام.

وهذا الأمر الإلهي لإبراهيم عليه السلام يخالف معقول البشر فإن أحداً لو فعل ذلك من عند نفسه لكان فعله جريمة وإثماً!!

وكذلك أمر الله سبحانه وتعالى له بأن يقتل ابنه بكره إسماعيل عليه السلام بعد أن شب وبلغ مبلغ الرجال، فسارع إلى تنفيذ الأمر دون تلكأ أو نظر، أو تسويف، ولو أن إنساناً عمد إلى أن يقتل ابنه دون أمر من الله لكان هذا جريمة وإثماً.

فقد روى الإمام البخاري رحمه الله بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: [أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قِبَلِ أم اسماعيل، اتخذت منطقاً لتُعَفِّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالكَ، ووضع عندها جراباً فيه تمر وسقاءاً فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم منطلقاً.

فتبعته أم اسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً. وجعل لا يلتفت إليها فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها فجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يَتَلَبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تَرَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: [فذلك سعي الناس بينهما].

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهْ!! تريد نفسها، ثم سمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث!! فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوِّضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف...

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: [يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من زمزم- لكانت زمزماً عيناً معيناً].

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيعَة، فإن هذا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله. فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كُدَاء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم اسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم. ولكن لا حق لكم في الماء!! قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: [فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنْسَ] فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم.

وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل.

فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم

فقالت: نحن بِشَرٍّ!! ونحن في ضيق وشدة!! فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يُغيِّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنّا في جهد وشدة، قال فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم! أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غَيِّرْ عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك!! الحقي بأهلك فطلقها!! وتزوج منهم امرأة أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها ما طعامكم؟ قالت: اللحم!! قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: [ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه]. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريهِ يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشيء. قالت: نعم! هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يناوله الحجارة يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٧].

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (رواه البخاري)

٩- الجانب التعبدي في الإسلام كبير جداً:

وإذا كانت الشريعة المنزلة على محمد ﷺ في عمومها مما يوافق معقول أهل العقل والحِجَا والحكمة إلا أن الجانب التعبدي فيها كبير جداً... فإن مواقيت الصلاة، وأعداد الركعات، وهيئات الصلاة، وكون الزكاة في بعض الأموال وليست في جميعها، وتقدير النصاب، وصفة الصوم، وأعمال الحج من طواف وسعي وتقبيل للحجر الأسود، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، كل ذلك من الأمور التعبدية التي يراد منها ابتلاء طاعة العباد لربهم وخالقهم سبحانه وتعالى.

كما أن الحدود والعقوبات الشرعية الشأن فيها التعبد لله سبحانه وتعالى بتنفيذ أمره والانتهاء عن نهيه جل وعلا..

وكذلك ما أباحه الله وما حرمه...فإن الله أباح البيع وحرم الربا، وقد يكسب البائع في بيعه ألفاً في المائة، وقد يكون الربا المحرم درهم في الألف، ويبقى الربا حراماً والبيع حلالاً.. وقد أمرت المرأة أن لا تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام، ولو كان الميت أعز الناس لديها كابنها وأخيها وأبيها، ولكنها يجب أن تحد على زوجها أربعة أشهر وعشراً.

ولا شك أن وراء كل أمر إلهي حكمة عليا قد يخبرنا الله بها، وقد يهدينا إلى معرفتها، وقد يخفيها عنا، وفي كل ذلك يجب على المكلف أن يسمع ويطيع. وأما إن علق طاعته لله على فهمه ومعقوله ومعرفته لحكمة الآمر، فإنه لا يكون عابداً لله على الحقيقة ولو رد الأمر الإلهي ظاناً أنه مخالف للحكمة والعقل لكان كافراً، وكان كفره ككفر إبليس الذي لم تكن جريمته إلا رد الأمر الإلهي كفراً وكبراً وعناداً.

١٠- المفهوم الشمولي لمعنى الذنب:

إذا عرف العبد ربه على الحقيقة، وأنه هو خالقه ورازقه، ومتولي شؤونه، ومن بيده نفعه وضره، ومن يعلم علانيته وسره، وحياته ومماته، وأن العبد لا يستغني عنه طرفة عين، علم أن حق الله على عباده أن يطيعوه فلا يعصوه، وأن يشكروه ولا يكفروه، وأن يذكروه ولا ينسوه، وأن يتقوه حق تقاته.

وكل تقصير في هذه الحقوق تقصير ومعصية... فالغفلة ولو للحظة واحدة عن ذكر الله إثم، وعدم القيام بشكر نعمة واحدة من نعم الله التي لا تحصى إثم، ومعصية أمر الله في الكبير والصغير إثم.

وقد أمر الله عباده أن يتقوه حق تقاته، أي كما ينبغي له إذ هو سبحانه وتعالى أهل لأن يتقى، فهو الرب الإله القائم على كل نفس بما كسبت. قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس:٦١)

وقد علم الله سبحانه وتعالى أن عباده لا يطيقون أن يقوموا بحقه وأن يتقوه كما ينبغي له سبحانه وتعالى، ففرض عليهم من ذلك ما يستطيعون، فقال جل وعلا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن: الآية ١٦] فمن غفل عن ذكر الله الواجب المستطاع فهو آثم، كما قال ﷺ: [ما من قوم جلسوا مجلساً ثم قاموا منه ولم يذكروا الله فيه إلا كان هذا المجلس عليهم ترة يوم القيامة] أي حسرة وندامة... ولا حسرة إلا في ترك واجب. (وقال ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها: «ما من ساعة تمر على العبد لا يذكر الله بها إلا كانت حسرة عليه يوم القيامة» رواه أبو نعيم بإسناد حسن).

ومن قصر في شكر نعمة عرفها فهو آثم ولو كانت في شربة ماء شربها، ولم يحمد الله عليها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: الآية ٨] وقد قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر لما خرجا من بيوتهم بسبب الجوع ثم أضافهم أنصاري فقدم لهم عذقاً من تمر ورطب فأكلوا وقدم لهم ماءاً بارداً

فشربوا... قال رسول الله ﷺ: [إن هذا من النعيم ولتسألن عنه يوم القيامة].

ومن عصى الله في صغير أو كبير فهو تحت الحساب والمؤاخذة إلا أن يغفر الله ذنبه.

إذا علم هذا علم معنى الذنب الذي ينسب إلى الأنبياء والرسل فإنه ليس كبيرة بحال، وليس تعمداً لمعصيته الله، وإنما قد يكون اختياراً لخلاف الأولى، أو انقطاعاً لحظة عن الذكر الدائم، أو قعود لحظة عن الشكر الدائم، قال رسول الله ﷺ: [إنه ليُغَانُ على قلبي وإني أتوب إلى الله في اليوم أكثر من مائة مرة]..

وكان رسول الله ﷺ يصلي من الليل حتى تتفطر قدماه، فإذا سئل في ذلك قال: [أفلا أكون عبداً شكوراً] فمن عرف حق الله على عباده، وعرف أن حقه يعظم كلما عظمت نعمته على العبد وعلم أن حق الله سبحانه على عبده أن يذكره فلا ينساه، ويشكره فلا يكفره، وأن يطيعه فلا يعصاه، وأن يخافه ويتقيه كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه..

علم العبد عند ذلك ماذا تعني المعصية والذنب؟ (كلام في مقابلة النعم والمعاصي).

١١- المؤاخذة بالمعصية:

كل من عصى الله سبحانه وتعالى فهو تحت المؤاخذة إلا أن يغفر الله ذنبه، والمؤمن قد يؤاخذ بمعصيته في الدنيا، ويحصل له من البلاء ما يطهر ذنبه، ويعلي درجته، وقد يؤاخذ الله بعض أنبيائه في الدنيا بسبب معصية صغيرة تقع منهم ومن ذلك:

أ- آدم عليه السلام ومعصيته للأمر الإلهي:

فآدم عليه السلام الذي لم تكن معصيته إلا أنه خالف الأمر الإلهي بأكله من شجرة نهاه أن يأكل منها، ومعصية آدم بالأكل من الشجرة فإنها -والله تعالى أعلم- لم تكن فاحشة في ذاتها ولا إثماً لولا المعصية. فقد أباح الله

لآدم الأكل من كل أشجار الجنة، فليس الأكل من هذه الشجرة مذهباً للعقل، ولا ضاراً في النفس أو البدن، ولا تعدياً على حق مخلوق، ونحو ذلك مما هو من تعليل الإثم. وإنما كانت معصية آدم فيما أخبرنا الله به -والله تعالى أعلم- في أنه أطاع الشيطان الذي حذره الله من طاعته، وأنه عصى الله فيما أمره به. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وقال تعالى ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ٢٢)

ومع ذلك كان من آثار هذه المعصية آلاماً طويلة في الدنيا منها: خروج آدم وزوجه من الجنة، وتعرضه هو وذريته لما يتعرضون له من البلاء في هذا الدار.. وإلى يوم القيامة.

ب- نوح عيه السلام ووعظ الله له:

وهذا نبي الله نوح عليه السلام سماه عبداً شكوراً، وكان من أولي العزم من الرسل، وقد قام في عبادة الله سبحانه وتعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً يتحمل في أثنائها الكرب الطويل والأذى البالغ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۞ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الصافات: ٧٥-٧٦)

ولما دعا نوح ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٥] أجابه الله سبحانه: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٦]

فقال العبد الصالح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٧]

فاعترف عليه السلام بذنبه، وأنه قد قال قولاً لا علم له به!!

ج- يونس عليه السلام والسجن في بطن الحوت:

وهذا يونس عليه السلام عاقبه الله لأنه ترك قومه الذين كذبوه وآذوه، دون

أن يأذن الله له، فسجن في بطن الحوت إلى أن تداركته رحمة الله بالخروج، ضعيفاً مريضاً. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الصافات: ١٤٣-١٤٤)

وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨)

د- الوعيد بالعذاب لقبول الفداء من الأسرى:

ونبينا ﷺ عاتبه الله سبحانه بعد قبوله فداء الأسرى ويقول: [لقد عرض عذابكم أدنى من هذه الشجرة].

فقد روى الإمام أحمد قال: حدثنا عبدالله بن أبي ثنا أبو نوح أنبأنا عكرمة بن عمار ثنا سماك أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: [لما كان يوم بدر قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: اللهم أين ما وعدتني؟ اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبداً].

قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأخذ (أبو بكر) رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. وأنزل الله عز وجل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩].

فلما كان يومئذ والتقوا، فهزم الله عز وجل المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على

الكفار وعسى الله أن يهديهم فيكونون لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: [ما ترى يا ابن الخطاب]؟ قال: قلت والله ما أرى رأي أبي بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان -قريباً لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان -أخيه- فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين. هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم!! فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلتُ، فأخذ منهم الفداء.

فلما أن كان من الغد قال عمر رضي الله عنه: غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر رضي الله عنه وإذا هما يبكيان!! فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما!! قال: فقال النبي ﷺ: [الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، لقد عُرِض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة] لشجرة قريبة، وأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨].

ثم أحل لهم الغنائم فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رَبَاعِيَّته وهُشِّمَت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥] الآية بأخذكم الفداء] (رواه أحمد)

١٢- الرسل عليهم السلام يخافون ذنوباً لو كانت لأحدنا لعدها من الطاعات:

الرسل عليهم السلام يخافون ذنوباً لو كانت هذه الذنوب نفسها لأحدنا لعددناها من الطاعات والقربات.. فمن منا لا يتمنى أن يكون صنع ما صنع إبراهيم عليه السلام من كذبه على قومه عباد الأصنام عندما قال لهم: ﴿إِنِّى

سَقِيمٌ﴾ [الصَّافات: الآية ٨٩] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٣] حتى يحطم أصنامهم، ويرجعهم إلى عقولهم ورشدهم؟! ومن منا لا يتمنى أن يقول عن زوجته هي أختي ينقذها ونفسه من جبار كافر أراد أن يقتله ويستحوذ على زوجته!! ومع ذلك يقول إبراهيم عليه السلام يوم القيامة معتذراً عن التصدر للشفاعة خائفاً من معصيته!! [وإني قد كذبت ثلاث كذبات!!] (رواه البخاري)

وهذا نبي الله موسى عليه السلام، وهو من أولي العزم والرسل، يقتل نفساً قتلاً شبه عمد وليس عمداً، ويقتله بغير قصد قتله، يقتله دفاعاً عن مظلوم، وهذا الفعل منه كان قبل الرسالة ومع ذلك يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص:١٦)، ومع ذلك يظل موسى خائفاً من فعلته هذه إلى يوم القيامة ويقول: [إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله وإني قد عصيت ربي فقتلت نفساً لم أومر بقتلها]. (رواه البخاري)

ومن منا لا يتمنى أن يكون صنع ما صنع موسى في دفاعه عن مظلوم من قومه!!

١٣- ازدياد الخوف من الله مع زيادة الإيمان، ونقص الخوف مع نقص الإيمان:

كلما تبلد الشعور، وزاد البعد عن مصدر النور، زال الإحساس بالذنب، فالكفار يكفرون ويجرمون ويفسقون وهم يضحكون. والفاجر والمنافق يرى ذنبه كأنه ذباب يحط على أنفه لو أشار إليه بيده رده، والمؤمن يرى ذنبه كالجبل يوشك أن يسقط عليه، وكان أنس بن مالك يقول وكان قد عمر زماناً بعد النبي ﷺ: [أنكم تعملون أعمالاً كنا نعدها من الكبائر على عهد رسول الله ﷺ وهي في أعينكم أصغر من الشعر]

١٤- ألوان وأنواع العقوبات لعصاة المؤمنين:

كل ذنب داخل في الحساب إلا ما يغفره الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧-٨)

وبعض العصاة من الموحدين قد يعذبون في النار، أو في القبر، أو في الحشر في صغائر من الذنوب، وفي كبائر يظنها بعض الناس صغائر، فامرأة يراها النبي في النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً. وقتيل مع الرسول ظنه الصحابة شهيداً فقال النبي ﷺ: [كلا. إني رأيته في النار في بردة غلها] (رواه مسلم)، ولم تكن هذه البردة تساوي أربعة دراهم!!

والرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى، لا يلقي لها بالاً فتهوي به في النار سبعين خريفاً.

ونساءٌ كثيراتٌ من أهل التوحيد يدخلن النار لأنهن يكثرن اللعن، ويكفرن العشير!!

ورجال يحبسون في النار في ردغة الخبال، ووسط عصارة وصديد أهل النار لأنهم تكلموا في إخوانهم المسلمين بغير حق. قال رسول الله ﷺ: [من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال] (رواه أبو داود)

والوعيد الشديد لعصاة أهل التوحيد يشمل المعاصي كلها صغيرها وكبيرها، فقاتل النفس عمداً يقول الله فيه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)

وآكل الربا يقول الله فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ

ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)

والكنّازون مانعي الزكاة يقول الله في وعيدهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤)

وفي هذا يقول النبي ﷺ: [ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها إلا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه، وجبينه، وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار]. (رواه مسلم)

والذي يقتطع حق امرئ مسلم بيمينه -ولو كان هذا المقتطع شيئاً يسيراً ولو عوداً من أراك - فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٧]

وفي هذا يقول النبي ﷺ: [من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة] فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: [وإن قضيباً من أراك]. (رواه مسلم)

ورأي النبي ﷺ رجلاً من أصحابه لبس خاتماً من ذهب، فاقتلعه النبي من أصبعه، ورمى به قائلاً: [يعمد أحدكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده]!! (رواه مسلم)

وامرأة كانت من أهل النار لأنها تؤذي جيرانها بلسانها!! وفقير من فقراء المهاجرين، عذب في قبره لأنه مات وكان عليه ديناران لم يسددهما!! وظل يعذب حتى تصدق عليه أبو قتادة وسدد عنه دينه!!

ورجل يعذب في قبره لأنه كان لا يستنزه من بوله، وآخر يعذب لأنه يمشي النميمة بين الناس، وقال رسول الله ﷺ: [لا يدخل الجنة قتات] (نمام)، و[لا يدخل الجنة قاطع]!! و[لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر]!! و[ان الكبر بطر الحق وغمط الناس].. وكم يقع مثل هذا!!

اللهم أني استغفرك لذنبي، وأعوذ بك من شر نفسي وسيئات عملي.

ومما قصه النبي ﷺ من عذاب عصاة المؤمنين قوله: [إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فَيَثْلَغُ رأسه، فيتهدده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه، حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به كما فعل به المرة الأولى.

قال: قلت لهما سبحان الله!! ما هذان. قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل مُسْتَلقٍ لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكُلُّوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شِقَّي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما يفعل في المرة الأولى.

قال: قلت: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة!! وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا . قال: قلت: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق!!

قال: فانطلقت فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فَيَفْغَرُ له فاه، فيلقمه حجراً، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه، كلما

رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجراً، قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق!!

فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المرآة أو كأكره ما رأيت من راءٍ رجلاً مرآة، وإذا هو عنده نار يَحُشُّها ويسعى حولها، قال: قلت لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها، ولا أحسن. قال: قالا لي: ارْقَ فيها فارتقيت فيها، قال: فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا، فدخلناها فتلقانا رجال شطر من خَلْقِهم من أحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راء. قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: إذا هو نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة قال: قالا لي: هذه جنة عدن، وهَذَاكَ منزلك، فسما بصري صعداً، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء، قالا لي: هذاك منزلك؟

قلت لهما: بارك الله فيكما فذراني فأدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله.

قلت لهما: فإني رأيت منذ الليلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟! قالا لي: أما إنا سنخبرك أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يُشَرْشَرُ شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويُلْقَمُ الحجارة فإنه آكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم.

وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة.

وفي رواية البرقاني: [ولد على الفطرة]، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله ﷺ: وأولاد المشركين!! وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم]. (رواه البخاري)

١٥- حال المؤمن بين الخوف والرجاء:

كنت أسمع كثيراً وأنا في مراحل العلم الأولى أن المؤمن يجب أن يكون خائفاً راجياً، خائفاً من العذاب وراجياً رحمة الله وفضله في الجنة والمغفرة... وكان يقرع آذاني كسائر المتعلمين للعلم الشرعي- الآيات والأحاديث في ذلك: آيات الوعد والوعيد، وأحاديث البشارة والنذارة... ولكني كنت ككثير من الناس أغلب الرجاء على الخوف، والطمع على الرهبة!! ثم اكتشفت أخيراً أن هذا من التغرير!! وعلمت يقيناً بعد ذلك أن الخوف يأتي أولاً، ويستمر أبداً، ومن لا يخاف الله على الحقيقة فهو خارج عنمسمى الإيمان..

وقد وصلت إلى ذلك بعد أن علمت يقيناً أن أهل الإيمان جميعاً يخافون، فالملائكة وهم خير عباد الله يخافون معصية الله، والرسل وهم صفوة الله قد كانوا في خوف دائم من عذاب الله، وأن خيار أهل الإيمان كانوا في خوف وإشفاق دائم من العذاب!! وأنه لا أمن للمؤمن إلا بعد دخول الجنة، وقول الله سبحانه وتعالى لأهلهما [إني أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً] وأما قبل ذلك فلا.

١٦- ملائكة الله يخافون العذاب:

الملائكة قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بالطاعة التامة، قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ (الأعراف: ٢٠٦)، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٨]

وقال سبحانه عن أشد الملائكة خلقاً، وأعنفهم خلقاً وهم ملائكة العذاب الموصوفون بأنهم [غلاظ شداد]، قال تعالى عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التّحْريم: الآية ٦]

ومع ذلك فإنهم في خوف دائم من الله سبحانه وتعالى، وحذر دائم من معصيته، وفرق ورعب منذ خلق الله النار. قال تعالى عنهم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ (النحل: ٤٩-٥٠)

وقد جاء في القرآن وعيدهم وتهديدهم بجهنم على المعصية. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٩)

وهذا إبليس قد كان في يوم ما عابداً الله مع الملأ الأعلى من الملائكة.. فلما عصى ربه، ولم يسجد لآدم كما أمره كان من شأنه ما قص الله علينا في القرآن... قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۞ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ

﴿أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١١-١٨)

فلما أصر إبليس على كبره وعناده ولم يرجع عن معصيته، وأخذ على نفسه أن يغوي آدم وذريته... قال له الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٤-٨٥)

وقال تعالى لإبليس أيضاً: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤١-٤٤)

فإذا كان إبليس قد أفسد ماضيه في العبادة، ومنزلته في الملائكة بمعصية واحدة أصر عليها، ولج في خصومته لربه، وعاند فيها.. فكان جزاؤه اللعنة أبداً، والنار سرمداً، والخذلان في الآخرة والأولى.

ثم أصبحت نهاية إبليس ما نص الله علينا في سورة إبراهيم من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢]

فهل بعد هذا يأمن عبد من عباد الله أن تغشه نفسه، ويخونُه تدبيره، ويعميه غروره، وتغريره، فيكون من الهالكين بمعصية واحدة يصر عليها، ويستكبر بها عن طاعة ربه. وكم من عابد، وعالم غوته نفسه وأطاع الشيطان فتحول ليكون تابعاً ذليلاً للشيطان!!

فكم أضل الشيطان من أهل العلم والبصيرة، بل من أهل الطاعة والإنابة. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٥-١٧٦)

وقال تعالى عن قوم سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سَبَإ: الآية ٢٠] ..

وقال تعالى عن عاد: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٣٨]

فانظر كيف أغواهم الشيطان علماً أنهم كانوا ذوي بصيرة ونظر!!

وقال ﷺ: [ليُذادَنَّ أقوام من أمتي حوضي أعرفهم ويعرفوني ويؤخذ بهم جهة النار، فأقول: أصحابي أصحابي. فيقال: ليسوا أصحابك إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً].

والملائكة الذين أقامهم الله في الطاعة وألزمهم العبادة وألهمهم التقوى والمخافة هم في طاعة ربهم حيث يشاء ربهم لا حيث يريدون هم.

وكان نبينا ﷺ يحب جبريل، وكيف لا يحبه وهو معلمه. قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ (النجم: ٥-٧)

وكيف لا يحبه وهو ناصره ووليه. قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التّحْريم: الآية ٤]

وكيف لا يحبه وقد كان في حروبه أمامه، وعلى ميمنته وكان نبينا ﷺ يقول لجبريل: [ألا تزورنا أكثر مما تزورنا!!] فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٦٤] . (رواه البخاري)

فإذا كان جبريل أمين الله على وحيه، ورسوله إلى رسله، لا يهبط إلى الأرض إلا بإذن ربه، ولا يزور محمداً ﷺ إلا برسم وأمر، فانظر كيف تكون طاعة الملائكة لربهم جل وعلا... وهذا إسرافيل قد التقم القرن وحنى جبهته وأصاغ السمع، وانتظر متى يأمر الله بأن ينفخ في الصور!! ومنذ متى وهو على هذه الحال!! قائم في الطاعة!! ملتزم بالأمر... وجميعهم خائف من الله

سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النّحل: الآية ٥٠]

وقد جاء أنهم في خوف دائم منذ خلق الله النار.

١٧- رسل الله وأنبياؤه يخافون العذاب:

وأما الرسل والأنبياء فهم أعظم البشر خوفاً من الله سبحانه وتعالى، وفرقاً من عذابه، وفراراً إليه!! مع ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة، والعبادة!!

فهذا آدم منذ عصى الله بأن أكل من الشجرة التي نهاه الله أن يأكل منها وهو خائف من العذاب مع استغفاره ورجوعه إلى الله من ذنبه مع ما حدث له بعد ذلك من الابتلاء بالخروج من الجنة ومقاساة العيش على ظهر الأرض...

وعندما يلتقي أبناءه يوم القيامة يستشفع به أبناؤه إلى الله في القضاء بين العباد ودخول الجنة قائلين له: يا أدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء ألا تشفع لنا عند الله!! [فيقول لهم أبوهم آدم: وهل أخرجكم من الجنة إلا معصية أبيكم، اذهبوا إلى غيري].

وفي حديث الشفاعة الطويل يظل كل رسول خائفاً من الله... فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في دعوة، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فَنَهَسَ منها نَهْسَةً، وقال: [أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون.

فيقول الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، ويأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله

مثله، ولا يغضب بعده مثله، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى. فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ..

فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟

فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه علي أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد

ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب.

فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس، فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: [والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى]. (متفق عليه)

فإذا كان هذا هو حال الرسل يوم القيامة، فما حال غيرهم من أهل الذنوب والمعاصي.

وكان ﷺ أتقى العباد لله وأخوفهم منه، وأعلمهم به، وكان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء..

١٨- المؤمنون حقاً في خوف دائم من عذاب الله إلى أن يدخلوا الجنة:

عندما قرأت القرآن وجدت الله سبحانه وتعالى وصف عباده المؤمنين أنهم كانوا في خوف دائم من عذابه، وفي تَرَقُّب وتوجس أن يقع بهم العذاب في أي لحظة، وإشفاق دائم مما هم مقدمون عليه..

وجدت أن الله يقول في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (المعارج: ٢٧-٢٨)

والإشفاق غاية الخوف، ونهاية الرعب، ووجدت الله يقول في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٨-٦١)

وهؤلاء المؤمنون خائفون مع أنهم يصلون ويصومون ويتصدقون. ففي مسند الإمام أحمد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله

الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ويخاف الله عز وجل؟ قال: [لا يا ابنة الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل]

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٧] .. "أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون وجلون من مكره بهم".

قال الحسن البصري: "إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً".

نعم لقد وجدت أنه لا يشعر بالأمن والأمان إلا الكفار والمنافقون الذين غرتهم أنفسهم وَرَأَوْا سيء أعمالهم حسناً، وأن الله ما دام قد أعطاهم في الدنيا الأموال والأولاد فهو مكرمهم في الآخرة أيضاً.

ورأيت أن الله أخبرنا بحديث أهل الجنة وذكرياتهم في الدنيا فكان مما قالوه: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الطور:٢٦-٢٨)

١٩- نماذج رائعة من المؤمنين الخائفين من عذاب الله:

أ- عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمنى كل مؤمن أن يكون له بعض عمله يقول: وهو في مرض موته عن سابقته في الإسلام وعمله الصالح كله "وددت أن هذا كفافاً لا لي ولا عَلَيَّ"

فقد روى الإمام البخاري بإسناده إلى المسور بن مخرمة قال: لما طعن عمر جعل يألم، فقال له ابن عباس، وكأنه يُجَزِّعُه: يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله ﷺ وأحسنت صحبته، ثم فارقت وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقت وهو عنك راض، ثم صحبت

صَحَبْتُهم فأحسنت صُحْبَتَهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون. قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه، إن ذلك مَنٌّ منٌّ الله تعالى علي، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذلك مَنٌّ من الله جل ذكره عَلَيَّ وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك ومن أجل أصحابك، والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه"

وفي رواية أخرى قال: [وددت أن ذلك كفافاً لا عليّ ولا لي] (رواه البخاري)

وفي رواية: [لو أن بغلة عثرت بالعراق لسئل عنها عمر بين يدي الله عز وجل]

فهل يغتر مؤمن بعمله بعد أن يرى هذا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم مبكراً، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وصحبة ساعة مع رسول الله لا يعدلها عمل ممن يأتي بعده، وكان وزير النبي ﷺ ومستشاره، ولم يمت النبي ﷺ حتى بشره بالجنة مراراً وتكراراً، ثم كان خير صاحب لأبي بكر الصديق، صاحب رسول الله ﷺ، وكان خير وزير ومستشار ومعين له، ثم تولى أمر المسلمين "فاستحالت في يده غرباً"... "حتى ضرب الناس بعطن".

ففتحت في عهده الفتوح، ودخلت الأمم في دين الله أفواجاً: الفرس والروم، وشعوب بلاد الشام، ومصر، وغطى الإسلام الأرض كلها أو كاد... ونقل إلى المدينة النبوية كنوز كسرى وقيصر، ومع ذلك مات عمر يوم مات شهيداً حميداً مديناً بستة وثمانين ألف دينار!! قام ابنه عبدالله رضي الله عنه بتسديدها عنه بعد أن جمعها من مال آل الخطاب.

ومع كل هذه الفضائل والمناقب قال عند موته: "أرجو أن يكون هذا كفافاً لا لي ولا علي... والله لو أن بغلة عثرت بالعراق لسئل عنها عمر بين يدي الله عز وجل، والله لو كان طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله

قبل أن أراه". أي لو كنت أملك مثل جبال الأرض ذهباً لافتديت به الآن مما أحاذر من عذاب الله، فإذا كان عمر رضي الله عنه يخشى من عذاب الله على هذا النحو، وهو من هو رضي الله عنه، فما الظن بأمثالنا ممن لا تحصى ذنوبهم ولا قدم لهم في الإسلام.

ب- عمرو بن العاص رضي الله عنه يبكي -خوفاً من الله- وهو على فراش الموت:

ورأيت أن عمرو بن العاص يبكي وهو على فراش الموت خائفاً من لقاء الله فقد روى الإمام مسلم بإسناده إلى أن ابن شماسة المهري قال: "حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

إني قد كنت على أطباق ثلاث:

لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكَنْتُ منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه. قال: فقبضت يدي. قال: [مالك يا عمرو] قال: قلت: أردت أن اشترط. قال: [تشترط بماذا؟] قلت: أن يغفر لي، قال: [أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله]. وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم حدثت أمور لا أدري ما حالي فيها.. فإذا دفنتموني فَشُنُّوا علي التراب

شنّاً، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزورٌ، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي.

ج- أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تجعل نفسها من قسم الظالم لنفسه:

وتقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: الآية ٣٢] أي بني هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن بقى على عهد رسول الله، وشهد له الرسول بالجنة، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم!!. (رواه الطيالسي)

د- الجميع يبكي ذنبه ويذكر خطيئته:

ولقد رأيت الجميع يبكي ذنبه، ويذكر خطيئته، ولا يرى لنفسه فضلاً، ولا لعمله الصالح ذكراً ويقول أحدهم: "لو أعلم أن لي عملاً واحداً متقبلاً لتمنيت الموت!!"

ولما رأيت ذلك، ورأيت الطريق الطويل إلى الجنة، ووجدت النبي ﷺ يقول: [ما من حكم يحكم بين الناس إلا حبس يوم القيامة وملك آخذ بقفاه حتى يقفه على جهنم، ثم يرفع رأسه إلى الله عز وجل، فإن قال الخطأ ألقاه في جهنم يهوي أربعين خريفاً]. (رواه أحمد)

وفي كل يوم لنا أحكام وأحكام؟!

٢٠- جولة في النار تبدد الغرور:

ولقد كان أعظم ما جعل غروري السابق بالفردوس يتلاشى ويزول، والتفكير كله ينصب على النجاة من النار أولا وأخيراً هو جولة في النار من الداخل ونظرة إلى الهوة السحيقة!! واستبصار لمن يدخلونها ويتساقطون فيها...

ولما وقفت مرة ومرة عند وصف الله ورسوله لهذه النار العظيمة الموجودة الآن. وعاينت بالقلب أحوال أهلها، علمت يقيناً -إن شاء الله- أن العزم كل العزم يجب أن يكون في الفرار منها، وأن الفرار من النار مقدم على التفكير في دخول الجنة، ومن المعلوم أن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح. فكيف إذا كانت المصلحة لا يتوصل إليها إلا بدفع المفسدة أولاً... فالجنة لا تنال إلا بعد النجاة من النار!! وقد علمت أن مثلي ممن حمل هذه السلسلة الطويلة من الذنوب والمعاصي، والتي يستحق بها العذاب -لولا رحمة الله- يصبح من إساءة الأدب، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل الله الجنة، وهو بعد لم يتخلص من موجبات العذاب.

والحق أنني لم أر النار، نار الآخرة لا يقظة ولا مناماً.. ولكني وقفت قليلاً على توقيف الله عباده على هذه النار، ووصفه سبحانه المفصل لها، وتصريف الله الوعيد لعباده بشأنها، وعلى النقل الحي للرسول ﷺ الذي رآها رأي العين، ثم وصفها وصفاً واضحاً كاملاً، فأصبح من لم يرها بعينه كأنه رآها بعينه بوصف النبي ﷺ لها.

وقد كان الصحابي يجلس إلى النبي ﷺ يحدث عن الجنة والنار، فكأنه وإياها رأي العين، قال حنظلة: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا وإياها رأي العين!! فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً!! (رواه مسلم)

وكان رسول الله إذا خطب يصف النار علا صوته، واشتد غضبه، واحمر وجهه كأنه نذير جيش يقول: [صبحكم ومساكم] قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: [كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: [من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له. إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار] ثم يقول: [بعثت أنا والساعة كهاتين وكان إذا ذكر الساعة احمرتْ وَجْنتاه وعلا صوته، واشتد

غضبه؛ كأنه نذير جيش يقول: [صبحكم ومساكم]!! ثم قال: [من ترك مالاً فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلي أو علي وأنا أولى بالمؤمنين] (رواه النسائي)

ولو قدر لنا أن تصلنا سلسلة خطب النبي ﷺ وهو يفسر سورة (ق) من فوق منبره لكنا سمعنا عجباً، فإن بعض الصحابيات حفظن سورة (ق) من فم الرسول ﷺ من كثرة ما يخطب بها ﷺ في الجمعة.

وسورة (ق) من سور الوعيد، وقد حملت مشاهد عظيمة من صور الحشر، والنار، وكلام أهل النار وخصومتهم بعضهم بعضاً: من كان السبب منهم في إدخال الآخر إلى النار ورد الله على الجميع: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (ق: ٢٨)

ثم كلام الله للنار التي قد فتحت أبوابها تبتلع كل الأفواج ممن يدخلها من أهلها. وهم عدد لا يحصى كثرة، فإنه يدخل من أولاد آدم من كل ألف تسعة وتسعون وتسعمائة!! ويبقى واحد من كل ألف يدخل الجنة!!

ولما كانت النار دركات بعضها فوق بعض، لا يشاهد المشاهد منها على ظهر أرض المحشر إلا أبوابها، وقرونها وأسوارها، ولهيبها المنبعث منها، وأما هي فبئر واسع سحيق يمتد سفلاً حتى إن الحجر ليلقى من على شفير جهنم (الشفير حافة البئر) فيمكث سبعين عاماً لا يصل إلى قعرها!!

لما كانت النار كذلك، وقد يظن أنه من كثرة ما يلقى فيها من الجن والإنس يصبحون طبقات بعضهم فوق بعض، وألا متسع في داخلها لمزيد من الأفواج أخبر سبحانه وتعالى عباده أن هذا التنور العظيم، والبئر الواسعة العميقة لن يعجز عن استيعاب كل الداخلين إليها قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: الآية ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۞ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (الشعراء: ٩٤-٩٥)

٢١- النبي ﷺ يحدث عن النار التي رآها رأى العين:

على باب النار وقف رسول الله ﷺ وإلى داخل النار نظر!! فقال ﷺ: [اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء] (رواه البخاري)

وقال أيضاً ﷺ: [قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار، فإذا عامة من دخلها النساء] (رواه البخاري)

وفي مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ في يوم شديد الحر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه فأطال القيام حتى جعلوا يخرون، ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع رأسه فأطال، ثم ركع فأطال الركوع ثم سجد سجدتين، ثم قام فصنع مثل ذلك ثم جعل يتقدم ثم جعل يتأخر، فكانت أربع ركعات، وأربع سجدات، ثم قال: [إنه عرض علي كل شيء توعدونه، فعرضت علي الجنة حتى لو تناولت منها قطفاً أخذته] أو قال: [تناولت منها قطفاً فقصرت يدي عنه] شك هشام [وعرضت علي النار فجعلت أتأخر رهبة أن تغشاكم فرأيت امرأة حِمَيْرِيَّةً سوداء طويلة تعذب في هرة لها ربطتها فلم تطعمها، ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قُصْبَهُ في النار وإنهما آيتان من آيات الله عز وجل يريكموها فإذا خسفت فصلوا حتى تنجلي] (رواه أحمد)

وفي رواية مسلم: [عُرِضَت عَلَيَّ الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً] (رواه مسلم)

٢٢- عبدالله بن عمر بن الخطاب يرى النار مناماً:

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يتمنى أن يرى رؤيا ليقصها على

النبي ﷺ كما كان يفعل كثيرٌ من أصحاب النبي ففي الصحيحين قال: رأيت في المنام أنه جاءني ملكان في يد كل واحد منهما مِقْمَعَةٌ من حديد، قالوا: لن ترع!! نِعْمَ الرجل أنت، لو كنت تكثر الصلاة من الليل!! فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مطوية كطي البئر، لها قرون كقرون البئر، بين كل قرنين مَلَكٌ بيده مقمعة من حديد، وإذا فيها رجال معلقون بالسلاسل رؤوسهم أسفلهم!! وعرفت رجالاً من قريش!! فانصرفوا بي عن ذات اليمين، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال ﷺ وسلم: [إن عبدالله رجل صالح]!!

وفي رواية: [نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل]

٢٣- هذا وصف النار في القرآن والسنة:

وأما أنا كاتب هذه السطور فلم أر النار... نار الآخرة لا يقظة ولا مناماً، ولكنني قرأت وسمعت أوصافها في القرآن الكريم، وحديث النبي ﷺ.

وكنت وما زلت أحاول أن أكون كذلك الصحابي الذي كان يجلس مجالس النبي ﷺ فيسمع وصف النبي ﷺ وتصويره للنار وأهوالها، وأحوال أهلها فكأنه وإياها رأي العين.

وقد شرعت أجمع وصف النار من آيات كتاب الله الكريم، ومَشَاهِد يصورها الله لنا بالقرآن البليغ المعجز، ومشاهد آخر ينقلها النبي ﷺ لنا ويصورها بجوامع الكلم، فإذا الصورة الكلية رهيبة رهيبة، وإذا المشاهد: كل مشهد يقطع القلب لو كان يعي ويسمع..

٢٤- النار واحدة من آيات الله الكبرى:

وأنا متنقل بك أخي المسلم، بل أخي الإنسان، وكيفما كان معتقدك لتنظر وترى، ثم اختر لنفسك بعد ذلك ما شئت قال تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن

يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر: ٣٢-٣٧)

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩)

وأقول للمصدق بالنار... اجلس بنا نؤمن ساعة!! فإن تذكر النار من الإيمان.

وأقول لغير المصدق بالجحيم: والله إنها لحق، وهي موجودة الآن، وقد رآها الصادقون رأي العين، وحدثوا بما شاهدوا فيها، وأعظم من رآها وحدث بما فيها هو رسولنا الصادق الأمين محمد بن عبدالله الرسول النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه. فقد قال: [وقفت على باب النار!!] وقال: [ورأيت النار فلم أر شيئاً أفظع!!]

ورأيت هنا رؤية بصر، وليس رؤية علم فقط.

٢٥- الجحيم: موجودة باقية أبداً سرمداً:

الجحيم موجودة مخلوقة كائنة الآن، وقد رآها النبي ﷺ بعيني رأسه، وقد أخبر ﷺ أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الجنة نادى جبريل فقال له: [اذهب فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها!! فأمر بالجنة فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، فلما رجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد!! قال: ثم أرسله إلى النار قال: اذهب فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها!! فأمر بها فحفت بالشهوات. ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر فيها فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها]!! (رواه أحمد أبو داود والترمذي والنسائي)

وأخبر ﷺ أن النار اشتكت إلى الله سبحانه وتعالى فقالت: [يا رب! أكل بعضي بعضاً، فجعل لها نفسين، نفساً في الشتاء، ونفساً في الصيف، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون من الحر من سمومها] (رواه ابن ماجه)

وأخبر ﷺ أنه [إذا جاء رمضان فُتِحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النيران، وصفدت الشياطين] (متفق عليه)

وجميع أخبار الله عنها في القرآن أنها مخلوقة موجودة.

وهذه النار لا تفنى ولا تبيد، بل هي باقية وخالدة خلوداً لا نهاية له، ولا انقطاع له، وأهلها الذين هم أهلها باقون فيها معذبون عذاباً لا ينقطع أبداً، ولا يفتر عنهم مطلقاً -عياذاً بالله منها ومن أحوال أهلها-

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود: ١٠٦-١٠٧)

وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: الآية ٧٤]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (البقرة: ١٦٠-١٦١)

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٣٧]

وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (الأعلى: ٩-١٣) أي لا يموت موتاً يستريح فيه من العذاب، ولا يحيى حياة نافعة صالحة، بل عذاب دائم يصبح الموت معه أكبر الأماني ولكنه لا يكون. قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٧٧]

وقال تعالى لأهلها: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٢]

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ (فاطر:٣٦)

وقال ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة خلود فلا موت!! يا أهل النار خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم] (رواه البخاري)

٢٦- هل يمكن تصور سعة النار؟!:

وهذه النار المخلوقة الموجودة الآن لا يبلغ العقل معرفة اتساعها، فإن الشمس والقمر والنجوم أحجار صغيرة في وسطها.. إنها مِحْرَقَةٌ هائلة تلقى فيها النجوم والشموس كما تلقى الأحجار الصغيرة في البئر العظيمة، وتتضخم أجساد أهلها وأصحابها ممن كتب الله عليهم الخلود فيها حتى إنه ليكون ضرس أحدهم كجبل أحد!! وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام!! وسمك جلده مسيرة ثلاثة أيام!! فيكون جثمان الواحد من أهل النار كأعظم جبل من جبال الدنيا، قال ﷺ: [ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغِلَظ جلده مسيرة ثلاث أيام] (رواه مسلم)

وفي البخاري قال ﷺ: [ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع]

وفي الترمذي قال ﷺ: [إن مجلس الكافر من جهنم كما بين مكة والمدينة]!!

ومع أنه يدخل النار من أولاد آدم من كل ألف تسع وتسعون وتسعمائة، ولا يدخل الجنة من الألف إلا واحد فقط!! وثَمَّ من شياطين الجن مثل أعداد كفار بني آدم أو يزيدون، وكلهم يدخلون النار على الحال التي وصف الله سبحانه وتعالى، وكل هؤلاء لا يملئون النار،ولا تضيق بهم!!

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: الآية ٣٠]

وهذه النار التي هي بهذا الاتساع، قد خلقت على شكل البئر المطوية قد لا يبدو للناظر إليها وهو خارج عنها من فوقها إلا سورها وسرادقها المحيط بها، وأبوابها السبعة المقامة في سورها، أو المنصوبة على دركاتها، وأما هي فتذهب عمقاً إلى قعر لا قرار له، وإذا ألقى الحجر العظيم من شفيرها يظل يهوي سبعين عاماً لا يبلغ قعرها... وفي هذه المحرقة الهائلة جبال.

وفي هذه الجبال من الكهوف والمغارات والوديان، والشعاب، تهاويل وتهاويل لا يبلغ العقل عدها ولا حصرها، وتجري في جبالها وسهولها وقيعانها، أنهار القيح والصديد، وما يسيل من أجساد أهل النار وما ينفجر من بطونهم وأمعائهم ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥)

ومن هذه الجبال والوديان تتفجر أنهار من ماء كَدَرْدَرِيٍّ الزيت مُنْتِنٍ بلغ غايته وحَدَّه في الحرارة، إذا قربه المعذب من وجهه شوى وجهه، وتساقط جلد وجهه فيه -عياذاً بالله من سخطه وعقابه- ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: الآية ٢٩]

والمهل: هو الرصاص المذاب، أو كُلُّ معدن مذاب.

٢٧- في النار: كل أسباب الموت ولا موت!!

هذه النار العظيمة المخلوقة الآن من دخلها من أهلها الذين هم أهلها -عياذاً بالله- فإنه يبشر عند الدخول بالخلود الذي لا انقطاع له، قبل أن يلقى فيها ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٧٢)، ويجتمع له فيها كل أسباب الموت، ولكنه لا يموت بسبب من أسبابها، ولا باجتماع كل أسبابها ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] فإن حر نارها يقتل ويميت وفي لحظة واحدة، ولكن الله كتب على أهلها أن يذوقوه ولا يموتوا، وكذلك ماؤها الذي يقطع الأمعاء يقتل لو لم يكتب الله البقاء السرمدي لأهلها، وكذلك لدغ حياتها وأكل زقومها، وقرع ملائكتها، وضربهم أهلها بمقامع من حديد لو ضرب بها أعظم جبال

الأرض ضربة واحدة لذلك لساعته وأصبح كثيباً مهيلاً!! ثم الغم الشديد الذي يفجر القلب، واليأس الشديد الذي يقطع الأمل وكل هذه أحوال قاتلة مميتة، ولكن المعذب بها من أهل النار عياذاً بالله لا يموت بواحد منها ولا باجتماعها جميعاً، وهي مجتمعة على كل واحد من أهل النار .﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧]

٢٨- عذاب النار في ازدياد أبداً:

ويستمر هذا التسعير والتصعيد في العذاب أبداً ولا أمل في يوم من الراحة، ولا ساعة من الهدوء، ولا فتور للعذاب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۞ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ (غافر: ٤٩-٥٠)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۞ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (الزخرف: ٧٤-٧٥) أي متحيرون يائسون منقطعو الرجاء والأمل في أي صورة من صور الرحمة بهم.

إن تصور هذه الحال، وتخيل أن يكون الواحد منا في هذه المآل -عياذاً بالله- أعظم واعظ وأكبر زاجر.

٢٩- طعام أهل النار عذاب، وشربهم عذاب:

أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها -عياذاً بالله- يأكلون فيها ويشربون، ولكنهم يعذبون بالطعام والشراب عذاباً كعذاب النار أو أشد، ومع أنهم يعذبون بالطعام الذي يأكلونه وبالشراب الذي يشربونه إلا أن ضرورة الجوع والعطش تلجئهم إلى هذا الأكل والشرب الذي هو نوع من العذاب بل هو العذاب.

فالمعذب في النار يجوع جوعاً شديداً، ويلجئه ضرورته وألمه إلى الأكل من شجر الزقوم... وهذه الشجرة تخرج في أصل النار في عمق البئر، وقعر

الجحيم، وتخرج أغصانها وثمارها في صورة مرعبة كريهة بشعة.

وما ظنك بثمار شجر ينبت في النار، وتغذيه النار ويجري في عروقه الحميم.

ووصف الله سبحانه وتعالى شجرة الزقوم فقال جل وعلا: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٦٤-٦٨)

وقال جل وعلاً أيضاً: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ (الواقعة: ٥١-٥٥)

والمعنى أن ضرورة الجوع تلجىء المعذب من أهل النار إلى الأكل من هذه الشجرة الخبيثة الملعونة التي تخرج في أصل النار، وتثمر ثماراً من نار، فإذا احترق جوف المعذب من هذا الطعام الخبيث، وأراد أن يطفئ الحرارة المشتعلة في بطنه ويطفئ العطش الهائل الذي يحس به، ألجأته هذه الضرورة إلى ماء خبيث قد بلغ غايته في الحرارة فيشربه ليطفئ ناراً فلا يزيده هذا الماء المغلي إلا اشتعالاً ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقِعَة: الآية ٥٤]

ومع أن الماء كدردري الزيت خبيث منتن الرائحة قد بلغ غايته في الغليان إلا أن المعذب يشرب منه شرباً ذريعاً شرب الناقة الهيماء التي يصيبها داء في جوفها، فتشعر بلهيب في بطنها فتعب من الماء ولا ترتوي... كما قال الشاعر يصف حاله في الحب:

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد ظماها ولا يقضي عليها هيامها

قال تعالى عن أصحاب النار عياذاً بالله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ (الواقعة: ٥١-٥٥)

والهيم: جمع هيماء وهي الناقة المريضة بداء الجوف التي تشرب ولا تروى.

وإذا شرب هؤلاء المعذبون من الماء الذي لا ينفعهم بل يضرهم حتى تقطع أمعاءهم، فروا منه إلى النار فكان بئس الفرار، ثم تلجئهم ضرورة العطش مرة ثانية إلى ذلك الماء الخبيث، وهكذا فراراً من شر إلى ما هو شر منه، ثم عود إلى الأول.

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ (الرحمن: ٤٣-٤٤) والمعنى: يفرون منها إلى الحميم ويفرون من الحميم إليها، ومعنى آن: أي بلغ حينه أي غاية حدة في الحرارة والغليان.

٣٠- ألوان أخرى من الأشربة الخبيثة:

وليس هذا وحده ما يعذب به أهل النار من الطعام والشراب، بل إن لهم من ألوان الأشربة الخبيثة النتنة المهلكة أشكالاً وألواناً. قال تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۞ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ (ص: ٥٥-٥٨)

فالحميم هو الماء الحار والغساق شراب خبيث لو ألقيت قطرة واحدة منه على بحار الأرض لأفسدت على أهل الأرض كلهم معايشهم.

قال ﷺ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢] لو أن قطرة من الزقوم قطرت لأفسدت على أهل الأرض عيشهم فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم] (رواه أحمد)

والأزواج الأخرى أشكال من جنس هذا عياذاً بالله من سخطه وعقابه.. وكل ذلك حق اليقين..

٣١- العذاب النفسي أشد من العذاب الجسماني:

وليس عذاب أهل النار عذاباً جسمانياً فقط، يعذبون فيه بالنار التي تنضج جلودهم، ثم ينبت في الحال غيرها، وتحرق صدورهم حتى يبلغ قلوبهم. قال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۞ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ (الهمزة: ٦-٧) أي التي يدخل

لهيبها إلى الفؤاد، والتي توضع أحجارها المحماة على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج الحجر من ظهره، ويوضع فوق ظهره حتى يخرج من صدره!!

قال ﷺ: [بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من ناغض كتفيه، ويوضع على ناغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه، يتزلزل]!! (رواه مسلم)

ومن العذاب الجسماني في شربهم الحميم، وأكلهم الزقوم، ولدغ حيات كالبغال تنطلق من كهوف في النار ويسري سمها في أجسامهم يعمل عمل النار أو أشد... ليس هذا هو عذاب أهل النار فقط، بل إن عذابهم النفسي مثل ذلك وأشر. فمن ذلك:

(١) التقريع الدائم من خزنة النار كقولهم لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الزمر: ٧١)

(٢) وكذلك إهمال ملائكة النار لاستغاثاتهم وصراخهم أو أن يرقوا لحالهم.. بل مضاعفة العذاب لهم كلما استغاثوا. قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ [الكهف: الآية ٢٩] . قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ (غافر: ٤٩-٥٠)

وعندما يبلغ بأهل النار كَرْبَهُم وَغَمَّهُم غايته يسألون مالك خازن النار، وهو أشد ملائكة العذاب شدة وغلظة ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرُف: الآية ٧٧] فيرد عليهم بعد ألف سنة -وهو يوم واحد من أيام الآخرة- ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ (الزخرف: ٧٧-٧٨)

وإذا بلغ منهم الغم مداه عادوا بالمقت على أنفسهم فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: الآية ١٠] وهذا اعتراف منهم بالذنب أنهم لم يكونوا ذوي آذان تسمع النداء -نداء الحق- في الدنيا، ولا ذوي

عقول تعي دعوة الحق التي جاءتهم على السنة الرسل!!

وإذا علموا السبب الحق في ضلالهم وعادوا بالملامة على أنفسهم، وندموا حيث لا تنفع الندامة، وتحسروا حيث لا تزيدهم الحسرة إلا مثلها، ومقتوا أنفسهم نودوا بما يصيبهم بغم وكرب أعظم من الذي نالوه كله، وهو أن سخط الرب ومقته لهم أعظم من مقتهم أنفسهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: الآية ١٠]

وسبب مقتهم أنفسهم أن الإيمان قد كان في متناول يدهم لو تناولوه، وأما الآن فالإيمان بعيد ولا يقبل منهم ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سَبَإ: الآية ٥٢]

فقد كان المطلوب منهم إيماناً بالقلب بوحدانية الله وشهادة باللسان، وعملاً صالحاً سهلاً ميسوراً يستعذبه المؤمن في الدنيا، ويمتع به في الدنيا قبل الآخرة فالصائم يفرح في الدنيا بصومه، والمصلي يشعر بالرضا بصلاته، والمتصدق يسكب الله في قلبه من معاني الخير والفضل ما هو خير من إمساكه ما تصدق به، والحاج يستعذب المشقة في سبيل الله وذاكر الله يقول: "إننا والله في نعمة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف"!! والراضي بالحلال في المأكل والمشرب والمنكح يشعر بسعادة ورضى لا يشعر بها من يعيش فيما حرم الله عليه من المآكل والمناكح والمشارب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طـه: الآية ١٢٤]

(٣) ومن العذاب النفسي لأهل النار قمعهم المطارق، وتأنيبهم مع هذا العذاب المذل بالتبكيت، وصنوف الإذلال كقول الملائكة لهم بعد صب العذاب فوقهم ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدّخَان: الآية ٤٩] !!

وقولهم ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدّخَان: الآية ٥٠] !!، وقولهم ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطُور: الآية ١٥] !!

(٤) ومن ذلك أن يكون العذاب في نفسه مهيناً كالسحب على الوجوه في النار ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القَمَر: الآية ٤٨]، والأخذ بالنواصي والأقدام، ثم الإلقاء في النار ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٤١]

أو الدفع والدز الشديد إلى العذاب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (الطور:١٣-١٤)

والدع: هو الدفع العنيف، والدز بشدة وقوة وعنف.

وقد سمى الله عذاب الآخرة بالعذاب المهين، وذلك أن من يصلاه يهان أعظم إهانة وأكبرها. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمَان: الآية ٦]

(٥) وأعظم أنواع الإهانات التي يتلقاها أهل النار عياذاً بالله هي حلول غضب الله وسخطه عليهم، والتخلي عنهم، ونسيانه سبحانه وتعالى لهم ومقتهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:٧٧)

(٦) ومن ذلك الفضيحة بالذنب على رؤوس الأشهاد والتشهير بهم على الملأ، بل على رءوس الناس جميعاً منذ خلق الله إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (الطارق:٩-١٠)

ومعنى تبلى تهتك، ويظهر ما كان في الخفاء مما أَسَرَّه أصحاب الذنوب والمعاصي.

وقال تعالى بعد أن صور مصارع الهالكين من قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب لوط، وقوم شعيب: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هُود: الآية ١٠٣]

أي يشهده الناس جميعاً ويحضرونه... فمن عذبه الله في هذا اليوم،

وأظهر فضائحه على الملأ، وشهر به أمام جميع الخلائق، فقد أهانه أبلغ الإهانة، وأذله غاية الإذلال قال تعالى عن دعاء المؤمنين ربهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (آل عمران: ١٩٢)

وقال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٧-٨٩)

وقال ﷺ: [لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة] (رواه مسلم)

٣٢- أعظم عذاب النار هو الخلود!!:

أهل النار قسمان: مخلدون خلوداً لا انقطاع له، ولا موت معه، وهم درجات فيها أعلاهم من يوضع في جب في أسفل النار، لو فتح هذا الجب فإن جهنم نفسها تستغيث بالله من حره!! وأدناهم منزلة وأقلهم عذاباً من يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه!! وهذا وإن كان أهون أهل النار عذاباً إلا أنه يظن، ويرى نفسه أنه أشد الناس عذاباً.

وتصور الخلود في العذاب أمر يفوق التصور!! ويقطِّع القلب!! فإن تصور أن يكون الإنسان في سجن ما ولو كان كسجون الدنيا يعيش فيه إلا ما لا نهاية، ولا يخرج منه أبداً بالموت ولا بغيره، بل يبقى فيه بقاءً سرمدياً... هذا التصور كاف في موت الإنسان غماً وكمداً وحزناً... فكيف لو كان هذا السجن: جدرانه، وأبوابه، وطعامه، وشرابه من النار!!؟

فكيف إذا كان هذا السجن بئراً إذا ألقي فيه هذا المعذب، هوى على أم رأسه سبعين سنة لا يصل إلى قرار؟!

فكيف إذا كانت النار التي نعهدها في هذه الدنيا جزءاً من سبعين جزء من نار الآخرة؟ كل جزء من التسعة والستين فيه مثل حر نار الدنيا؟!

إن تصور الخلود في هذا العذاب شيء يفوق الوصف... والعجب أن المصدق به لا يفر منه، وقد قال ﷺ: [عجبت للنار كيف نام هاربها]؟!

وإلا فمن عرف هذه النار وآمن بها وأنها موجودة حاضرة الآن وإذا مات في آية لحظة فقد يدخلها كيف له أن ينام وهي في الانتظار!!! ولكن إنها الغفلة والتسويف والانشغال بما حفت به النار من الشهوات.

٣٣- من هم عصاة المؤمنين:

المؤمن الذي يموت على الإيمان إذا كان قد ارتكب في حياته معصية دون الكفر والشرك المخرج من الملة فإن له حالتان: إما أن يكون قد تاب من معصيته في حياته، وإما أن يكون مات غير تائب منها... فإن كان قد تاب منها في حياته توبة نصوحاً قبلها الله منه فإنه يعود كمن لا ذنب له، فلا يطالب بمعصيته هذه في الآخرة.

وأما إذا كان قد مات غير تائب من معصيته فإن لهذا أحوالاً:

(١) فمنها أن يتجاوز الله عنه إحساناً من الله وفضلاً ومناً. كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في النجوى [أن الله سبحانه وتعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطي كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا ربهم ألا لعنة الله على الظالمين] (رواه البخاري)

هذا في موقف القيامة.

(٢) ومنها أن تكون له حسنات كثيرة تربو على هذه السيئات، فيتجاوز الله عنه، ويسامحه في سيئاته لزيادة الخير الذي عنده. قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٨)

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة:٦-٧)

(٣) وإما أن يشاء الله سبحانه وتعالى عقوبته. وهذه العقوبة إما أن يعذب

بها في القبر، أو في الموقف (يوم القيامة) أو في نار جهنم، ثم تتداركه بعد رحمة الله فينصرف إلى الجنة ما دام أنه قد مات على التوحيد والإيمان ولم يكن من أهل الكفر الناقل عن ملة الإسلام.

وهؤلاء المؤمنون العصاة هم الذين يموتون يوم يموتون وقد فعلوا معاصي لم يتوبوا منها، أو لم تقبل توبتهم فيها، أو ماتوا يوم ماتوا عليها -عياذاً بالله من سخطه- كمن مات وهو يزني أو وهو يسرق، أو وهو فار من الزحف أو هو يأكل الربا، أو ماتوا وهم يعملون ما دون ذلك من المعاصي والسيئات.

ثم شاء الله جل وعلا أن يعذبهم بمعاصيهم في القبر أو عرصات يوم القيامة في يوم مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا، أو في النار بعد ذلك.

٣٤- الذنب والوعيد متحققان، والتوبة والمغفرة مظنونتان:

لقد وجدت أن وقوع الذنب من العبد متحقق سواء علم به العبد أو لم يعلم به، أو عَدَّه ذنباً، أو لم يعده ذنباً، وسواء تذكره أو نسيه، فكل ذنب وقع في الأرض فهو مكتوب مسطور ما لم يمحه الله بالتوبة.

ووجدت أن العقوبة التي رتبها الله على الذنب فهي كذلك متحققة، ما لم يغفر الله لفاعل الذنب.

ولما كانت الذنوب التي فعلتها أمراً مقطوعاً به، فقد كتب وسجل لا محالة في ذلك، والوعيد على الذنب مقطوع به فإن الله سبحانه وتعالى لا يقول إلا حقاً، ولا يتوعد إلا صدقاً إلا أن يتوب العبد توبة نصوحاً، فيغفر الله له، ولكن قبول التوبة يظل مظنوناً.

فما يدريني -ويدري غيري- أن الله قد قبل عذري، وأقال عثرتي، وغفر ذنبي!!

إنني أحسن الظن بالله -إن شاء الله- ولكني أسيء الظن في نفسي، فهل استكملت أركان التوبة؟ فأقلعت عن الذنب إقلاع من لا ينوي مراجعته قط!! وهل ندمت على فعل كل ذنب أذنبته، ندم من يقطع بالعقوبة عليه إن لم يغفر

الله؟ وهل عزمت على عدم العودة ما حييت!! وهل رددت حقوق الآدميين لهم؟ وتحللت منهم مما لا أستطيع رده؟ كيف وعندي ما لا يعلمه إلا الله من الذنوب التي هي حق خالص لله، وجبال أخرى من الذنوب التي تتعلق بحقوق الآدميين !!؟

وأقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك وأنا على عهدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

٣٥- طريق أهل الإيمان إلى الجنة طريق طويل فليستعدوا له:

نظرت في طريق المؤمن إلى الجنة فرأيت أن العصاة من أمثالي أمامهم درب طويل، وطريق محفوف بالمخاطر، ومفاوز عظيمة، وعقبات وعقبات، وأن هناك من عصاة المؤمنين من يُقْتَطَعُ دون الجنة، فيمكث في النار ما شاء الله أن يمكث، وأنه لا يدخل الجنة بعد ذلك إلا محترقاً، ثم ينبت له لحم جديد!!

وأما طريق الكفار إلى النار، فهو قصير جداً... القبر أول منازله. قال تعالى عن قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ (نوح:٢٥) بفاء التعقيب.

وقال تعالى في قوم فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦) ثم البعث فالحشر فالنار..

وأما أهل الإيمان فإن طريقهم إلى الجنة طويل، ولا يدخلونها إلا بعد أن يدخل أهل النار النار، ولنبدأ رحلة الإيمان من أولها:

٣٦- الموت آت لا محالة:

من هذه اللحظة إلى الموت قدر من العمر قد يكون لحظة، وقد يستمر سنوات!! وأعمار أمة محمد عامتهم بين الستين والسبعين، ولا يجاوز هذا العمر إلا القليل النادر..

إنني اليوم -كاتب هذه السطور- قد جاوزت الستين (القمرية) وإذن فقد بلغت تمام العمر، وأنا اليوم في الوقت الإضافي...

ومنذ اللحظة إلى لحظة الوداع لا يدري أحد ما تكون الخاتمة. قال ﷺ: [إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها].

وقال أيضاً ﷺ: [إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة] (متفق عليه)

اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلي أن تثبتني على الإيمان حتى ألقاك ، وأن تجعل خير أيامي آخرها، وأحسن عملي خواتيمه. اللهم اختم لي ولإخواني المؤمنين بخاتمة أهل السعادة، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا رب العالمين.

وسيظل المؤمن خائفاً من تقلب قلبه. وهل سمي القلب قلباً إلا لتقلبه؟ ولقد كان رسول الله ﷺ الجبل الراسخ في الإيمان، خير عباد الله على الإطلاق. يقول: [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان أكثر ما كان النبي يحلف: [لا ومقلب القلوب] (رواه البخاري)

فما يدريني أنا أو غيري كيف تكون لحظة النهاية!! هذا ونحن نعيش العصر الذي قال فيه الرسول ﷺ: [بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يمسي المرء مؤمناً، ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل] (رواه أحمد ومسلم والترمذي) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨] .

٣٧- هل يعاني المؤمن سكرات الموت:

الموت لحظة رهيبة، والكل يخافه ويكرهه، المؤمن والكافر... ولابد لكل أحد منه ، ولا فرار عنه، ونزع الروح نزع، وآلام، وكل إنسان يذوقه مؤمناً أو كافراً... قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٥] . وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٠] ...

والمؤمن لا يناله من ألم الموت إلا القليل، وأما الكافر فإن نزع الروح هو أول العذاب له.

يروي البخاري في صحيحه: [أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل علي عبدالرحمن (أخوها) وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، عرفت أنه يحب السواك فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه، وقلت ألينه لك، فأشار برأسه أن نعم، فلينته، وبين يديه ركوة أو علبة -يشك عمر- فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات!! ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده ﷺ] (رواه البخاري)

٣٨- لحظة الموت لحظة الإخبار بالنتيجة النهائية:

ولحظة الموت لكل عبد من عباد الله هي مرحلة الإخبار بالنتيجة النهائية... فالمؤمن يبشر بالجنة والكافر يبشر بالنار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢)

وأما الكافر فإنه يتلقى الصفعات عند الموت. قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا

﴿تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمَّد: الآية ٢٧]

ويبشر بالنار وَيُقَرَّع عند الموت. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النحل: ٢٨-٢٩)

٣٩- اللحظات الأخيرة في حياة المؤمن والكافر:

وقد بين النبي ﷺ هذه اللحظات الأخيرة في حياة المؤمن والكافر فقال ﷺ: [إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. فتخرج، فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان -بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا- حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي إلى السماء السابعة.

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى.

فتعاد روحه فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي!! فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد البصر. ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة!! رب أقم الساعة!! حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المَسُوح. فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض.

فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان -بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا- فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٠] فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى!! فتطرح روحه طرحاً، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم

الساعة]. (أخرجه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم وصححه شيخنا الألباني)

٤٠- من عصاة المؤمنين من يعذب في قبره على صغير من الإثم وكبير:

وعصاة المؤمنين قد يعذب بعضهم في قبره في صغير من الذنوب وكبير: فمنهم من يعذب بالنميمة، ومنهم من يعذب لأنه لم يكن يستنزه من بوله، ومنهم من يعذب في دين كان عليه لم يؤده، ففي مسند أحمد رحمه الله عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: توفى رجل فغسلناه وحنطناه، وكفناه ثم أتينا به رسول الله ﷺ يصلي عليه، فقلنا تصلي عليه فخطا خطى ثم قال: [أعليه دين]؟ قلنا: ديناران. فانصرف!! فتحملهما أبو قتادة فأتيناه. فقال أبو قتادة: الديناران عليَّ. فقال رسول الله ﷺ: [أَحَقَّ الغريم وبرئ منهما الميت]؟! قال: نعم. فصلى عليه ثم قال بعد ذلك بيوم: [ما فعل الديناران]؟! فقال أبو قتادة: إنما مات أمس!! فعاد إليه من الغد فقال: قد قضيتهما فقال رسول الله: [الآن بردت عليه جلده]!!.

وقوله ﷺ: [الآن بردت عليه جلده] يدل على أنه كان يعذب في القبر إلى أن أدى ما عليه من الدين.

ومنهم من مات شهيداً مع النبي ﷺ ولما كان قد غَلَّ بردة لا تساوي أربعة دراهم فقد دخل العذاب بعد الموت مباشرة..

ففي صحيح الإمام البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر فلم نغنم ذهباً ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدى رجل من بني الضبيب، يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ غلاماً يقال له مدعم، فوجه رسول الله ﷺ إلى وادي القرى حتى إذا كان بوادي القرى بينما مدعم يحط رحلاً لرسول الله ﷺ إذا سهمٌ عائرٌ فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: [كلا والذي نفسي بيده، إن

الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً]!! فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ فقال ﷺ: [شراك من نار أو شراكان من نار]!!

وقد روى هذا الحديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا وَرِقاً، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي، ومع رسول الله ﷺ عبد له، وهبه له رجل من جذام، يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله فرمى بسهم، فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله!! فقال رسول الله ﷺ: [كلا والذي نفس محمد بيده! إن الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم] قال: ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: يا رسول الله أصبت يوم خيبر. فقال رسول الله ﷺ: [شراك من نار أو شراكان من نار]!!

فانظر -أخي المسلم- فإن أخذ شراك من الغنائم لا شك أنه من صغار الذنوب لأن الشراك لا يساوي شيئاً، ولا يشاح فيه، ومن فقده لا يسأل عنه، ومع ذلك لما كان غلولاً لم يتسامح فيه!! وهذا من أبين الأدلة على أن المؤمن قد يعذب في قبره في صغائر من الذنوب.

٤١- القبر: بغير عذابٍ عذابٌ:

والقبر وإن كان بغير عذاب فهو عذاب فهو منزل رهيب. إنه الوحدة والوحشة والظلمة والضيق، قال رسول الله ﷺ: [إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله يُنَوِّرها لهم بصلاتي عليهم]!! (رواه أحمد ومسلم)

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد... اللهم أعذني وأخواني المؤمنين من عذاب القبر، اللهم نور علينا قبورنا، ولا تردنا على أعقابنا بعد إذ هديتنا للإسلام.

وليس من مؤمن إلا وهو يستقبل من القبر بضمة وضغطة، قال ﷺ في سعد

بن معاذ: [هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضُمَّ ضمةَ ثم فرج عنه] (رواه النسائي وصححه الألباني)

فإذا كان هذا حال سعد بن معاذ سيد الأوس، السابق بالإيمان، والذي لا تحصى مناقبه، والذي اهتز لموته عرش الرحمن... فما بالك بسواه؟! والمؤمن والكافر والمنافق كل رهين عمله في القبر، وحياة البرزخ حياة بكل الأحاسيس والمشاعر التي كانت في الحياة الدنيا ففي القبر الفرح والسرور والبشري، وفيه الحزن والغم والهموم والآلام...

٤٢- الموقف والحشر: اليوم الثقيل الطويل العبوس القمطرير!!

وما بعد القبر أعظم منه إنه البعث والنشور إنه اليوم الثقيل الطويل العبوس القمطرير!! إنه يوم واحد ولكنه خمسون ألف سنة من أيام الدنيا طولاً... يومٌ لا تغرب شمسه إلا بعد مضي خمسين ألف سنة، يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين في رشحهم وعرقهم إلى أنصاف آذانهم. فمنهم من يأخذه عرقهُ إلى كعبيه، ومنهم من يأخذ عرقه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه عرقُه إلى ثدييه ومنهم من يلجمه عرقه، ومنهم من يغط في عرقه غطيطاً.

وقد حذر الله جميع عباده منه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١-٢)

وأمر رسوله ﷺ أن يقوم بالليل استعداداً وحذراً لهذا اليوم. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان: ٢٦-٢٧)

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ (المزمل: ١٧-١٨)

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى

ٱلْمَعَارِجِ ۞ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۞ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج: ١-٥)

وقال تعالى بعد ذكره لمصارع الغابرين: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هُود: الآية ١٠٣]

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر: ٩)

وقد وصف النبي ﷺ من أحوال هذا اليوم وطوله، وتهاويله وآلامه، ومشاهده ما يخلع القلب، ويدمع العين، ويحمل على التفكير فيه وحده، والانصراف عن كل شيء دونه!!

فمن ذلك قوله ﷺ: [تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوَيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً] قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. (رواه مسلم)

ففي هذا اليوم العصيب يرى كل حميم حميمه فيفر منه، ويشتغل بنفسه عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعَارج: الآية ١٠] ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧)

في هذا اليوم يكون الكافر في عذاب هائل من الخوف والقلق، واليأس من رحمة الله، وانتظار العذاب المحقق في النار، ويصبح وجهه كالليل سواداً وظلمه مما هو فيه من الكرب العظيم. قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ﴾ [يُونس: الآية ٢٧]

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۞ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۞ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (طه: ١٠٢-١٠٤)

وأما أهل الإيمان فهم في أرض المحشر درجات في حصول الشدة والكرب، والهم والغم وكل واحد منهم فيما هو فيه حسب إيمانه، وعمله الصالح، وحسب ما ارتكب كل من السيئات.

٤٣- مانع الزكاة يعذب خمسين ألف سنة:

ومن أهل الإيمان ممن له معاصي لم يشأ الله أن يغفرها له يعذب في أرض المحشر على هذه المعاصي (خمسين ألف سنة) حتى يقضي بين الخلائق -عياذاً بالله من سخطه وعقابه- فمن ذلك:

مانع الزكاة: ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: [ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه، إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله عز وجل بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون]. (رواه الإمام أحمد)

وفي صحيح الإمام مسلم قال ﷺ: [ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها إلا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه، وجبينه، وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله وإما إلى الجنة وإما إلى النار]

قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: [ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عقصاء، ولا جلجاء، ولا عضباء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله وإما إلى الجنة وإما إلى النار]...

وقيل: يا رسول الله فالخيل؟ قال: [الخيل ثلاثة: هي لرجل وزر، وهي لرجل ستر، وهي لرجل أجر. فأما التي هي له وزر: فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء على أهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في

سبيل الله ثم لم ينس حق الله في ظهورها، ولا رقابها، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج أو روضة، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طولها فاسْتَنَّت شرفاً أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها، وأرواثها حسنات، ولا مر بها صاحبها على نهر، فشربت منه، ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات].

قيل: يا رسول الله فالحمر؟ قال: [ما أنزل علي في الحمر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾] (رواه مسلم)

وتصديق هذا الحديث في كتاب الله تعالى قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤-٣٥)

٤٤- مؤمنون في ظل الله يوم القيامة:

ومن أهل الإيمان من يكونون في ظل الله قد خصهم الله بهذه الكرام لاختصاصهم بأعمال عظيمة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۞ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۞ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الإنسان: ٥-١١)

وقال ﷺ: [سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل،

وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه. ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه] (متفق عليه)

٤٥- المرور على الصراط هو الكرب الأعظم لأهل الإيمان!! السابقون يجوزون، والعصاة يسقطون:

والمرحلة قبل الأخيرة من هذا اليوم (يوم القيامة) هي أعسر مراحله، وأصعب أوقاته، إنه العبور فوق جهنم من أرض المحشر إلى قنطرة أخرى قبل الجنة... إنه عبور فوق النار كلها. وما أعرض هذه النار؟! وما أعظم اتساعها ولو قربنا المعنى لقلنا: إنه عبور فوق الشمس!! بل الشمس كوكب صغير في النار!!

فهل فكرت يا عبدالله في أنه يتوجب عليك أن تعبر فوق ما يشبه الشمس حراً وناراً، واتساعاً، بل الشمس الذي ينفجر بركانها، وتصل حرارة سطحها إلى مليوني درجة جزء صغير من نار الآخرة.

فإذا تصورنا النار كما صورها الله لنا في القرآن، وكما أخبر عنها رسوله ﷺ في أحاديثه الكثيرة، وعلمنا أنها بئر عميقة قد بعد قرارها بعداً لا تستوعبه عقولنا إلا أن نقيس ذلك بالبعد بين الكواكب في هذا الكون الفسيح، وأنها في التهاب الشمس بل أعظم، وإنها واسعة بحيث تكون الشمس هذه ذاتها، والقمر هذا ذاته الذي نراه حجرين صغيرين في صحراء واسعة. قال ﷺ: [الشمس والقمر مكوران في النار يوم القيامة]. (رواه البخاري)

وإذا كان أهل الإيمان يكربون في الموقف العظيم والمشهد الهائل والقيام لرب العالمين، وكرب كل واحد منهم على قدر ذنوبه ومعاصيه، ومن أهل الإيمان من يفتن في قبره، ويعذب حتى ينفخ الصور. ومنهم من يعذب بالنار في محشره في هذا اليوم الطويل العصيب حتى يقضي الله بين الخلائق... فإن

ثمة ما هو أعظم لهم جميعاً وأكبر فتنة وهولاً، وهو المرور على الصراط والجواز منه إلى الجنة... فإما عبور وسلامة، وإما معاناة طويلة طويلة!! وإما هوى في نار جهنم إلى غاية لا يعلمها إلا الله وحده حتى تدركهم الشفاعة ورحمة الله في نهاية المطاف...

قال ﷺ: [ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم!!

وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟] قالوا: نعم يا رسول الله. قال: [فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم المؤمن بقي بعمله، ومنهم المجازي حتى يُنَجَّى]. (رواه مسلم)

وقال ﷺ: [ثم يضرب بالجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم] قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: [دَحْضٌ مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناجٍ مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم.

حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله، في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار. يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون!! فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم!! فَتُحَرم صورهم على النار. فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقولون: ربنا ! لم نذر فيها خيراً].

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فأقرأوا إن

شئتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

[فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل. ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟] فقالوا: يا رسول الله ! كأنك كنت ترعى بالبادية!!

قال: [فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة. هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه.

ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم بعده أبداً]. (رواه مسلم)

ويبقى من حبسه القرآن. فمن هم؟

٤٦- من الذين حبسهم القرآن:

الذين حبسهم القرآن كثيرون؟ وهم الذين أخبر الله عنهم أنهم مخلدون في النار أولهم: الكفار المشركون قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨]

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٤٨]، وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٧٧]، والآيات في خلود الكفار في النار خلوداً لا انقطاع فيه كثيرة جداً.

وقال ﷺ: [اعلموا أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة]. (رواه مسلم)

ومن الذين حبسهم القرآن وقضى بخلودهم: قاتل النفس ظلماً الذي لم يتب من ذلك قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)

وآكل الربا الذي مات غير تائب منه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)

وهؤلاء لا يحكم فيهم إلا رب العالمين، ولا يخرجون من النار إلا بإذن أحكم الحاكمين.

وكم يستمر خلودهم في النار حتى تتداركهم الرحمة هذا علمه إلى الله سبحانه وتعالى وحده، ولا شك أن خلود هؤلاء العصاة ليس كخلود الكفار، ولكنه بقاء طويل لأن هذا هو معنى الخلود.

٤٧- هل قدر المؤمنون السقوط عن الصراط:

فانظر يا عبدالله يا من تقرأ أو تسمع هذا الكلام، واقدر هذا اليوم حق قدره، فإنه مكتوب على كل عبد من عباد الله أن لا يدخل الجنة إلا أن يجاوز النار عبوراً فوق الصراط. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم: ٧١-٧٢)

والصراط ما قد علمت جسر طويل طويل طويل فوق جهنم ويوم يضرب الجسر على جهنم ستقوم الأمانة في جانب وتقوم الرحم في الجانب الآخر إيذاناً وإعلاناً أن من أدى الأمانة ووصل الرحم نجا، ووصل الجنة، وأما من خان الأمانة أو قطع الرحم خانته رجلاه فسقط، وانقطع أن يصل الجنة!!

وهذا الذي سقط في النار، كم سيبقى في النار حتى تدركه الرحمة؟! إن بقي يوماً واحداً فقد بقى ألف سنه!! وإن بقي نصف يوم فخمسمائة عام!!

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ

كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٧]

٤٨- لحظة واحدة في النار تنسي المعذب كل نعيم رآه قبل ذلك:

وإن لحظة واحدة في النار بل غمسة واحدة تنسيك كل نعيم تنعمت به في الأرض.

قال ﷺ: [يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في جهنم صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط!!]

٤٩- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون!!

وقل للذين يمنون أنفسهم وينظرون إلى معاصيهم كأنها ذباب وقع على أنف أحدهم وأنه لو أشار إليه لذبه وطرده.. هل سمعت بقول النبي ﷺ: [وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء]!! (رواه مسلم)

وقوله ﷺ: [يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار]. فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: [تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب الرجل الحازم من إحداكن]. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: [أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟] قلن: بلى. قال: [فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟] قلن: بلى. قال: [فذلك من نقصان دينها] (رواه البخاري)

فانظر أليس إكثار اللعن من صغار الذنوب، وأليس كفران نعمة الزوج أن تقول: ما رأيت منك خيراً قط!! وأليس كون المرأة تستطيع أن تميل الرجل الحازم وتفتنه أن يقوم بواجب أو أن يفعل محرماً كذلك!! فإذا كانت النساء

يدخلن النار في مثل هذه المعاصي، ولا تدرك رحمة الله من تلبست بمثل هذه المعاصي إلا بعد دخول النار، فهل يأمن أحد بعد ذلك أن يؤاخذه الله بالذنب. فإن المرأة في أساس الخلق أقل من الرجل عقلاً وحكمة تعذب في النار بمثل هذه الذنوب!! فكيف بمن يرتكب الكبائر ولا يتوب، ومن يفعل ما يظنه من الصغائر ولا يرعوي!! ومن يظن أنه ناج من أول وهله بتصديق القلب فقط دون إسلام الجوارح!! وإيمان القلب.

٥٠- المرحلة الأخيرة (التصفية النهائية):

وبعد تلك المرحلة الشاقة العسيرة: عبور الجسر (الصراط) وخلوص من خلص من النار من عصاة المؤمنين.

تبقى المقاصّة بين المؤمنين، وتصفية ما بقي من حساب بعضهم على بعض. روى الإمام البخاري رحمه الله عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي: أن أبا سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أذن لهم في دخول الجنة!! فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا].

وهذا الحبس على هذه القنطرة بين النار والجنة قد يطول ببعض العصاة... فكم لكثير من أهل الإيمان حق على إخوانه المؤمنين قد هضموه، وعرض قد هتكوه، ومالٍ قد سلبوه، وكم يقع من الظلم بين المسلمين!!!

٥١- أخيراً: الجنة تفتح أبوابها: الفقراء يدخلون!! والأغنياء يؤخرون!!

وبعد هذه المراحل الطويلة والعقبات الكبيرة: يقف المؤمنون على أبواب الجنة التي لم تفتح بعد!! ولا تفتح حتى يأتي من أعلى الله منزلته في الدنيا

والآخرة، ومن جعله سيداً للناس أجمعين. وهل يدخل المؤمنون الجنة إلا أن يدخل سيدهم وإمامهم!! يأتي رسول الله محمد بن عبدالله أكرم العباد على الله فيكون أول من يطرق باب الجنة والناس ينظرون، والمؤمنون ينتظرون، وينادي من داخلها من رضوان خازنها: [بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك] (رواه مسلم)

قال ﷺ: [أنا أول شفيع في الجنة]. (رواه مسلم)، وقال: [أنا أول من يأخذ بحلق باب الجنة فأقعقعها]. (رواه أحمد والترمذي وصححه شيخنا الألباني)

وتفتح الجنة أبوابها الثمانية ما بين مصراعي الباب الواحد ما بين مكة وهجر (البحرين)، ولكل باب اسم مخصوص، باسم عبادة من العبادات: باب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الريان (باب الصوم)، باب الجهاد، وباب الوالدين.

ويصنف أهل الإيمان بحسب درجاتهم في العبادة، وينادي الملائكة الذين اصطفوا على باب الجنة كل أهل عباده ليدخلوا من بابهم...

وهناك من يكرم من أهل الإيمان فيناديه ملائكة كل باب لأنه كان من أهل هذه العبادات جميعاً، فقد كان من السابقين في كل أبواب الخير، باراً بوالديه. قال ﷺ: [الوالد أوسط أبواب الجنة] (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم)، سابقاً في الصلاة، وسابقاً في الصوم، وسابقاً في الزكاة..

ويدخل الفقراء أولاً!! ويحبس أغنياء المؤمنين!! (يحبسون نصف يوم.. خمسمائة عام). إنه تعويض عن فترة حرمان في الدنيا...

قال ﷺ: [قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجد محبسون، إلا أصحاب النار فقد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار، فإذا عامة من دخلها النساء]. (رواه أحمد والبخاري)

وقال ﷺ: [أبشروا يا فقراء المهاجرين. تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم] (رواه البخاري)

وإذا دخل أهل الجنة، ذهب كل إلى منزله دون مرشد أو قائد يقوده، أو معرف يعرفه منزله..

قال ﷺ: [فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا] (رواه البخاري)

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد: ٤-٦)

٥٢- قد كان الأمن السابق تغريراً:

وبعد لقد نظرت حالي في هذه المرحلة فوجدت أنني قد عشت دهراً من عمري مغروراً، ووجدت أن الأمن الذي كنت أشعر به كان تغريراً!! وكان الذي كشف لي هذه الحقيقة مجموعة من الأمور تجمع بعضها مع بعض، فكشفت عن العين ما كان مستوراً، وإن لم في يكن حقيقته مستوراً!! فإن القرآن قد نطق به كثيراً، والرسول قد خطب به على منبره دهراً طويلاً، ولما رأى النبي ﷺ النار رأي العين قال ﷺ: [لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً]!! (رواه البخاري)

وكان ﷺ إذا خطب عن الجنة والنار احمر وجهه كثيراً، واشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول: [صبحكم ومساكم]. (رواه مسلم)

وكان ﷺ إذا سمع كلمه يقولها صحابي من كلمات الطمأنينة والثقة والجزم بالجنة لمن عرف صلاحه... يقول: [والله ما أدري -وأنا رسول الله- ما يفعل بي]!! (رواه البخاري)

ففي البخاري أن أم العلاء امرأة من نساء الأنصار بايعت النبي ﷺ أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين. قالت: أم العلاء، فاشتكى عثمان عندنا، فمَرَّضْتُه حتى توفى، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب!! شهادتي عليك: لقد أكرمك الله!! فقال النبي ﷺ: [وما يدريك أن

الله أكرمه؟] قال: قلت لا أدري. بأبي وأمي يا رسول الله. فمن؟ قال: [أما هو فقد جاءه والله اليقين!! والله إني لأرجو له الخير، وما أدري والله، وأنا رسول الله ما يفعل بي؟!] قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده!! قالت: فأحزنني ذلك فنمت، فرأيت لعثمان عيناً تجري، فجئت رسول الله ﷺ وأخبرته. فقال: [ذلك عمله].

وأقول: فهل بعد ذلك يطمئن مؤمن إلى عمله؟ وينام قرير العين ولما يعلم منزله في الجنة أو في النار؟

٥٣- دعوة ومناشدة واسترحام لأخواني المسلمين:

إخواني وأحبائي المسلمين:

قد قال ﷺ: [من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال، فليتحلله اليوم، قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح، أخذ بقدر مظلمته وإن لم يكن له عمل أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه] (رواه البخاري)

وقد نظرت في صحائفي نظرة سريعة إلى الوراء فوجدت من الحقوق والديون لإخواني من المسلمين ما لا أستطيع الوفاء به، إنها سلسلة طويلة من المظالم!! وأنا راجع عنها في الدنيا قبل الآخرة، وداع كل من له مظلمة عندي أن يسامحني في هذه الدنيا، وجزاه الله خيراً أو يطالبني الآن، وجزاه الله خيراً إذا عجل مطالبته هنا في هذه الدنيا، وهو بذلك نعم الأخ والصديق!! وأرجو من كل أخ مشفق صديق، وأناشده الله ألا يؤخر مطالبته يوم القيامة.

اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، ورحمتك التي وسعت كل شيء، أسألك بأنك أنت الله رب العالمين، البر الرحيم الغفور الودود، ذو العرش الكريم، أن تتجاوز عن خطيئاتي، وأن تغفر لي ذنبي، وأن تجزي كل مؤمن صنع إحساناً بإحسان من عندك، وأن تغفر لكل من أساء إلي أو ظلمني أي مظلمة كانت.

اللهم تقبل عملي إنك أنت السميع العليم.. رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح في ذريتي إني تبت إليك وإنني من المسلمين.

* * *

كتاب

فضائل أبي بكر الصديق

رضي الله عنه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل عبده ورسوله محمداً ﷺ بالهدى والنور المبين، وجعله إماماً وقائداً للغر المحجلين، واختار له خير الأصحاب والأحباب والأنصار من المجاهدين المؤمنين، والأبرار الصالحين، فكانوا خير أمة أخرجت للناس أجمعين والصلاة والسلام علي نبي الهدى والرحمة، والمربي الكامل، والرسول الأمين الذي ربى وزكى أطهر أمة، وخير رجال عرفهم التاريخ فكانوا مثلاً للناس أجمعين وقدوة لكل من أراد الله والدار الآخرة ممن يأتي بعدهم من المسلمين والمؤمنين،

وبعد،،،

فإنه لما كانت محبة أصحاب رسول الله ﷺ فرضاً واجباً على كل مسلم وكان شكرهم والثناء عليهم وموالاتهم من ألزم الفروض وأوجب الواجبات، ولما كانت المحبة لا تتم إلا بالمعرفة، والوقوف على فضائلهم ومناقبهم، وإحسانهم وشهادة الله ورسوله لهم، فإنني أحببت أن أيسر ذلك لإخواني المسلمين بجمع فضائل أصحاب النبي المشهورين، وبيان ثناء الله عليهم وشهادة النبي ﷺ لهم تذكيراً بحقهم على كل مسلم ومؤمن، وقياماً بجزء من الواجب علينا نحوهم وتبصيراً لإخواني المسلمين بحال من يطعن فيهم أو ينقصهم وقد التزمت بحمد الله ألا أذكر إلا آية من كتاب الله، أو حديثاً صحيحاً ثابتاً عن الرسول ﷺ، وقدمت أحاديث الصحيحين على غيرها،

وجعلت الحديث هو رأس الباب لأن القصد الأول هو إبراز شهادة الله وشهادة رسوله ﷺ لهؤلاء الأصحاب والأخيار، وحسبك لشهادة الله شهادة، وشهادة رسوله ﷺ شهادة .

ولا شك أنه قد ألف في هذا الموضوع عشرات بل مئات الكتاب وقد امتازت هذه السلسلة عن غيرها بحسن التنظيم والتبويب، وسهولة العرض وتخصيص الموضوع والتزكية على الفضائل مع ترجمة موجزة لكل صحابي يذكر، وجمع شهادة الله وشهادة رسوله، وتجزئ الموضوع ليكون في متناول الجميع، وشرح العبارة الغامضة والكلمات الصعبة في الأحاديث، وبيان موجز لما يستفاد من الأحاديث.

ولقد وضعت نصب عيني أن تكون هذه السلسلة بعد تمامها إن شاء الله تعالى كتاباً مطولاً موضوعياً بأيدي المسلمين، يقرؤه الإمام بعد الصلوات على المصلين، والوالد على أولاده، ويجد من يريد الترجمة لصحابي أهم فضائله ومناقبه مجموعة ميسرة، والله أسأل أن يجعل هذا العمل لوجهه خالصاً، وأن ينفع به عباده المهتدين، إنه هو السميع العليم.

كتبه عبدالرحمن بن عبدالخالق

الكويت في ٢٢ شعبان سنة ١٤٠٨ هـ

أبو بكر الصديق

نسبه:

هو عبدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤي القرشي التيمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة خليفة رسول الله ﷺ، وأمه: أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابنة عم أبيه.

حياته:

ولد الصديق بعد الفيل بسنتين وستة أشهر، وصحب النبي قبل البعثة، وسبق إلى الإيمان به، واستمر معه طيلة حياته بمكة، ورافقه في الهجرة، وفي الغار، وفي المشاهد كلها، وكانت الراية معه يوم تبوك، وحج بالناس إماماً مكانه عندما اشتد وجع النبي في مرض موته، وأجمع المسلمون على خلافته وسموه خليفة رسول الله، واستمرت خلافته بعد الرسول ﷺ سنتين وثلاثة أشهر تقريباً، ومات لثلاث وستين سنة رضي الله عنه وأرضاه.

بعض مآثره:

كان رضي الله عنه أعلم قريش بالأنساب، وكان رجلاً سهلاً محبوباً مؤلفاً لقومه، تاجراً ذا خلق ومعروف، وأخلص في صحبته للرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها، وأسلم بمجرد أن عرض الرسول الإسلام عليه، فكان أول رجل يدخل الإسلام، وأسلم بدعوته رجال كثيرون منهم عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف.

وأسلم الصديق وهو من أغنى قريش، ومات ولم يترك ديناراً ولا درهماً، وإنما أنفق ماله كله في سبيل الله، اعتق سبعة أعبد كلهم يعذب في الله منهم بلال، وعامر بن فهيرة، ونذيرة، والنهدية، وجارية عمر بن المؤمل.

وكانت خلافته من أعظم بركات الله على الأمة، فقد اجتمعت الأمة عليه، وقضى على فتنة الردة، وادعاء النبوة، ووجه قوى المسلمين جميعاً نحو فارس والروم، فكان الفتح والنصر المبين، فرضي الله عنه ولعن شانئيه ومبغضيه.

فضائل الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه

أفضل أصحاب النبي ﷺ، وأعلاهم منزلة، وأكبرهم كرامة، وأعظمهم منة على المسلمين هو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ونبدأ بشهادة الله سبحانه وتعالى له، ثم بشهادة النبي المعصوم ﷺ، ثم بشهادة الأمة المعصومة التي لا تجتمع على ضلالة.

أ- شهادة الله لأبي بكر الصديق:

شهد الله سبحانه وتعالى للصديق أنه كان الصاحب الوحيد والناصر الوحيد لرسول الله بعد الله سبحانه وتعالى، فقد مدح الله نفسه في القرآن أنه نصر نبيه محمداً ﷺ وأخرجه من بين ظهراني الكفار عندما أرادوا قتله، أو حبسه، أو طرده ونفيه واختاروا قتله أخيراً فأنجاه الله وأخرجه من بين ظهورهم آمناً معافى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] فكان من مكره سبحانه وتعالى بالكفار أن أخرج النبي محمداً مهاجراً من مكة إلى المدينة والكفار يحيطون به من كل جانب ولا ناصر له من الأصحاب والمسلمين إلا رجل واحد فقط، لم يترك النبي ﷺ في هذا الموقف العصيب قال تعالى حاضاً المؤمنين على نصر رسوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠]. فأثبت الله هنا كرامة الصديق وأنه كان

الناصر الوحيد لرسوله يوم عز الناصر، وقل النصير، وأنه أعني الصديق، كان حزيناً أن يبصر الكفار موقع الرسول ﷺ فيضيع الدين فيبشره النبي بأن الله معهما يرعاهما ويكلأهما. ومعية الله هنا ثابتة للرسول ﷺ، والصديق ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] وهذه شهادة من الرسول ﷺ للصديق أقرها الله وأثبتها في كتابه الكريم، ناهيك أن أسرة الصديق كلها كانت في هذا اليوم العصيب في خدمة الرسول ﷺ فأسماء بنت أبي بكر هي التي توصل الطعام لهما في الغار، وعبدالرحمن ابن الصديق هو الذي يغدو بسرحه عليهما ويتسمع لهما الأخبار ومال الصديق ورحائله هي التي حملت الرسول ﷺ إلى المدينة، والصديق هو المؤنس الوحيد بعد الله سبحانه وتعالى، وهذه منقبة ليست بعدها منقبة وكرامة كل كرامة هي دونها ولا شك، ويكفي هذه الكرامة أن الله أثبتها في كفاية وجعلها قرآناً يتلى إلى آخر الدنيا.

وأما شهادة الله الثابتة للصديق فهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: اليات ١٧-٢١].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات: "وقوله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل: الآية ١٧] أي سيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى ثم فسره بقوله ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: الآية ١٨] أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ [الليل: الآية ١٩] أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً فهو يعطي في مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: الآية ٢٠] أي طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات قال الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: الآية ٢١] أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم،

وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ [الليْل: الآيات ١٧-١٩] ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك وكان الصديق قد اغلظ له في المقال فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليْل: الآيات ١٩-٢١]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: [من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبدالله هذا خير]، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على من يدعي منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: [نعم وأرجو أن تكون منهم]" (ابن كثير ج٤ ص٥٢١).

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله في هذه الآيات: "وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله. بلال وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وزنيرة، وأم عيسى، وأمة بني المؤمل، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليْل: الآية ١٧] إلى آخر السورة، وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبدالله بن الزبير ما قدمناه عنه، وزاد فيه، فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليْل: الآية ٥] إلا قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليْل: الآيات ١٩-٢١] وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر، وأخرج ابن مردويه ابن عباس في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليْل: الآية ١٧] قال: هو أبو بكر الصديق" أ.هـ (تفسير فتح القدير ج٥ ص٤٥٥).

وحسبك بهذه شهادة من العلي الأعلى سبحانه وتعالى لهذا العبد الكريم الذي بذل ماله في سبيل الله لا يبتغي بذلك إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

ومعنى (من ضرورة) التي جاءت في الحديث: أي لا ضرر على من دخل الجنة وإن لم يدع إلا من باب واحد ما دام قد دخلها، ولكن هل لأحد من كرامة عند الله حتى يدعى من جميع الأبواب ثم يدخل من أي باب يشاء فأخبره النبي ﷺ أن نعم يا أبا بكر وأرجو أن تكون منهم، ورجاء النبي حق حتم لا شك فيه.

أبو بكر أسبق الصحابة إسلاماً:

قال البخاري: حدثنا أحمد بن أبي الطيب حدثنا إسماعيل بن مخالد، حدثنا بيان ابن بشر عن وبرة بن عبدالرحمن بن همام، قال سمعت عماراً يقول، رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر.

هذه شهادة من عمار بن ياسر رضي الله عنه - أن الصديق كان الرجل الحر الوحيد مع الرسول ﷺ. وأسلم في أول الإسلام. ولا شك أن علي بن أبي طالب كان مؤمناً وقتئذ ولكنه كان غلاماً صغيراً في ذلك الوقت.

أبو بكر يدافع عن الرسول ﷺ:

عن عروة بن الزبير قال: سألت عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: [أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم]. (رواه الإمام البخاري).

وفي هذا الحديث من الفوائد ما يلي:

١) شجاعة الصديق وإنه كان يتصدى لمجرمي قريش وعتاتها ممن يؤذون

رسول وهذا أحدهم عقبة بن أبي معيط الذي خنق الرسول ﷺ بردائه، فما رده إلا الصديق رضي الله عنه.

٢) تمثل الصديق بالقرآن في دفاعه عن الرسول ﷺ: [أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله] والمعنى يا أيها المشركون هل تقتلون الرسول الذي ليس له ذنب معكم إلا أن يعلن أن الله ربه سبحانه وتعالى. وقد جاءكم بالبيان على ذلك من ربكم الذي خلقكم.

أبو بكر يعتني بالنبي ﷺ في الغار وفي طريق الهجرة:

قال الإمام البخاري: حدثنا عبدالله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال: اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمل إليّ رحلي، فقال عازب: لا حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم؟ قال ارتحلنا من مكة، فأحيينا أو سرينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوى إليه فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له اضجع يا نبي الله، فاضجع النبي ﷺ ثم انطلقت انظر ما حولي هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من قريش سماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت فهل أنت حالب لبناً؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال هكذا ضرب إحدى كفيه بالأخرى فحلب لي كثبة من لبن وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت ثم قلت قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال [بلى]، فارتحلنا والقوم يطلبونا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد

لحقنا يا رسول الله، فقال: [لا تحزن إن الله معنا]. (رواه البخاري).

وفي هذا الحديث فوائد عظيمة منها:

١) اختيار النبي ﷺ لأبي بكر وحده دون سائر الصحابة ليصحبه في رحلة الهجرة وهي أخطر رحلة، وأعظم بلاء يتعرض له الرسول ﷺ. فقد عزمت قريش على قتله، بعد مشورة وتآمر طويل وشرعت فعلاً في التنفيذ وكانت الهجرة ليلة التنفيذ لمؤامرتها المجرمة. واختيار الرسول لأبي بكر في هذا الموقف واعتماده بعد الله عليه دلالة عظيمة على أنه كان أعظم الصحابة إيماناً ورجولة وقدراً وتحملاً للمصاعب ووقوفاً في وجه الشدائد، وكتماناً لسر الرسول ومحافظة على النبي.

٢) ظهر من الحديث إشفاق أبي بكر على الرسول وحدبه عليه وسعيه من أجل الحفاظ عليه بكل سبيل بل سعيه وحده من أجل راحته.

٣) هلاك من هلك في الصديق من الرافضة المجوسية الذين زعموا أن أبا بكر لم يصحب الرسول إلا ليطلع على عوراته، ويفشي أسراره للكفار!! وهذا يدل على كفرهم ومروقهم من الدين، وطعنهم في سيد المرسلين الذي اتهموه أنه لم يكن يعلم حقيقة أخلص أصحابه وأصدقائه. وأنهم كانوا يضمرون له الشر والرسول لا يدري، فلعنة الله عليهم لكفرهم بالله ورسالته، وطعنهم في أشرف خلقه وعباده، وأخلص أصحاب الرسول وأعظمهم منزلة.

أبو بكر أحب الناس لرسول الله ﷺ:

حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: [عائشة]، فقلت: من الرجال؟ قال: [أبوها]، قلت: ثم من؟ قال: [ثم عمر بن الخطاب] فعد رجالاً. (أخرجه البخاري في: ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ: ٥ - باب قول النبي ﷺ: [لو كنت متخذا خليلاً]).

وهذه شهادة من الرسول ﷺ أن أحب الرجال إليه من هذه الأمة هو الصديق. وقلب الرسول ﷺ قلب طاهر معصوم والمحبة من الإيمان، بل الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله، ومحبة الرسول ﷺ لأبي بكر من الإيمان، وإيمان الرسول ﷺ معصوم. وهذه شهادة عظيمة توجب على كل مسلم أن يحب ما يحب رسول الله ﷺ وأبو بكر على رأس هؤلاء ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. وأم المؤمنين عائشة هي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ لأنها زوجه، وأعظم الناس إيثاراً ومحبة له. رضي الله عنها.

الله مع النبي محمد ﷺ ومع الصديق أبو بكر رضي الله عنه:

حديث أبي بكر، قال: قلت للنبي ﷺ، وأنا في الغار، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: [ما ظنك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثهما؟]. (أخرجه البخاري في: ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ٢ - باب مناقي المهاجرين وفضلهم).

وهذه شهادة ثانية من الرسول ﷺ للصديق أن الله مع النبي ﷺ ومعه في أحلك الظروف وأصعب المواقف في الغار محصوراً بعيداً عنه كل ناصر من البشر إلا نصرة الله ثم نصرة الصديق الذي لم يكن إلا هو في هذا الموقف العصيب والرسول ﷺ مطلوب حياً أو ميتاً، وقريش والكفار يسعون في قتله والوصول إليه بكل سبيل.

أبو بكر أفقه الصحابة وأعظمهم على الرسول منة في المال والصحبة:

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، جلس على المنبر، فقال: [إن عبداً خير الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده] فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له وقال الناس انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين

أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به. وقال رسول الله ﷺ: [إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام. لا يبقين في المسجد خوخة أبي بكر] . (أخرجه البخاري في: ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار: ٤٥ - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة).

وهذا الحديث يبين أن أبا بكر كان أفقه الصحابة وأعلمهم بمرامي كلام الرسول ﷺ وفحواه فقد كان وحده الذي فهم ما يرمي إليه الرسول ﷺ بقوله [إن عبداً خيره الله من أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده].

إن العبد المخير هو الرسول ﷺ قد اختار ما عند الله وهذا يعني الموت. ولذلك بكى الصديق حدباً على الإسلام وإشفاقاً لفراق رسول الله ﷺ. ولذلك حفظ الرسول ﷺ له هذه المواقف والمناقب فأعلنه على الملأ في آخر حياته أن أعظم الأصحاب على الرسول ﷺ منة في المال والصحبة هو الصديق الذي واسى الرسول ﷺ بماله، وصحبة أكمل ما تكون الصحبة. وهنا يعلن الرسول ﷺ أن الصديق في مكان الخلة من الرسول ﷺ لولا اشتغال قلب الرسول ﷺ بخلة الله سبحانه وتعالى وأية إن لم يكن خليل النبي ﷺ فإنه أخوه وصاحبه. وحفظاً من النبي ﷺ لهذه الكرامة أمر جميع من له خوخة (باب نافذ) إلى منزله من المسجد أن يغلقه إلا الصديق فأمر النبي ﷺ ببقاء خوخته حفاظاً لمودته، وإكراماً لعهده، وبياناً لفضيلته. فماذا بعد هذا أعظم؟

أبو بكر أعظم الناس إيماناً:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلى رسول الله ﷺ، صلاة الصبح ثم أقبل على الناس، فقال: [بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها. فقالت: إنا لم نخلق لهذا؛ إنما خلقنا للحرث] فقال الناس: سبحان الله! بقرة تكلم؟ فقال: [فإني أؤمن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر] وما هما ثم. [وبينما رجل

في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: هذا، استنقذتها مني، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري؟] فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟ قال: [فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر] وما هما ثم. (أخرجه البخاري: ٦٠ - كتاب الأنبياء: ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان).

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة منها:

١) أن للحيوانات إدراكاً ما، وأن الله ينطق منها ما يشاء سبحانه وتعالى.

٢) أن لكل حيوان فوائد معينة فمنها خلق للركوب، ومنها ما خلق للحم، ومنها ما خلق للحم والجر، والبقر لم يهيئه الله ليكون حيواناً مركوباً. قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: الآية ٥] - أي بعضها - وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٨] فبين سبحانه أن هذه خلقت للركوب والزينة. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ - أي بعضها..

ولا شك أن استخدام الحيوان في غير ما خلق الله إهدار لنعم الله ووضع لها في غير ما خلقت له.

أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما من خير أصحاب الرسول ﷺ بل خير أصحاب الرسول ﷺ لأن الذين كانوا حول النبي ﷺ وحدثهم بهذه الأحاديث العجيبة من كلام البقرة وكلام الذئب سبحوا الله تعجباً واستبعاداً أن يقع مثل ذلك، أو على الأقل استغراباً. فبين لهم الرسول ﷺ أنه يتكلم بما يتكلم ويقول ما يقول مؤمناً به واثقاً من خبر الله سبحانه وتعالى، وأن أبا بكر وعمر يؤمنان مع الرسول ﷺ بذلك والعجب أنهما لم يكونا حاضرين. وهذه شهادة كبرى من الرسول ﷺ لهما بعظيم الإيمان والتصديق، وأنهما لا يترددان قط في قبول خبر النبي ﷺ الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه والذي لا

يقول إلا حقاً، ولا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النّجم: الآية ٤]. فأي شهادة أعظم من هذه الشهادة وأي منزلة أعظم أن يشهد لهما الرسول وليسا حاضرين أنهما يؤمنان بما قال، ويصدقان ما يقول، لا شك أن هذه شهادة عظيمة من الرسول ﷺ لصاحبيه المؤمنين المخلصين رضي الله عنهما وأرضاهما.

شهادة الرسول ﷺ للصديق بالجنة والمنزلة العليا:

حديث أبي هريرة: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من أنفق زوجين من شيءٍ من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب - يعني الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام (و) باب الريان]. فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: [نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر] (رواه الإمام البخاري).

وفي هذا الحديث من الفوائد:

١) رجاء الرسول ﷺ أن يكون الصديق من الذي تنادي به ملائكة أبواب الجنة جميعاً كل منهم يرجو أن يدخل من الباب القائم عليه وهذا تشريف عظيم للصديق وأن أبواب الجنة الثمانية كلها مشرعة لدخوله وأن الملائكة تتنافس وتتسابق في تشريف الصديق وتكريمه بدعوة كل منهم إياه أن يدخل من بابه.

٢) أن أبا بكر كان مبرزاً في كل أبواب الخير في الجهاد والصدقة والصيام والصلاة بما لم يبرز غيره.

ومن هذا الباب ما رواه البخاري بإسناده أيضاً.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: [من جر

ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة]، فقال أبو بكر إن أحد شقي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال رسول الله ﷺ: [إنك لست تصنع ذلك خيلاء]. قال موسى: فقلت لسالم أذكر عبدالله من جر إزاره؟ قال لم أسمعه ذكر إلا ثوبه.

وهذه شهادة من الرسول ﷺ أن الصديق لم يكن يعرف الخيلاء والكبر وليس فيه من خصائل أهل النفاق والكبر شيء، وأنه الصديق يحرص دائماً على اتباع السنة فهو يتعاهد إزاره ألا يسقط دون الكعبين، ولكنه يسهو أحياناً ويجد أن جانباً من إزاره سقط دون الكعبين فيفزع لذلك ويخاف. ولقد بشره الرسول ﷺ أن ذلك منه الذي ليس بعمد لا حرج عليه فيه وكان يمكن أن يبين له الرسول ﷺ هذا فقط أي أن الغافل والناسي لا شيء عليه ولكن الرسول أراد مدحه أمام القوم كلهم فأخبر أنه ليس من أهل الكبر مطلقاً.

شهادة ثانية من الرسول ﷺ للصديق والفاروق وعثمان رضي الله عنهم جميعاً بالجنة:

روى الإمام البخاري بإسناده عن سعيد بن المسيب، قال أخبرني أبو موسى الأشعري أنه توضأ في بيته، ثم خرج فقلت لألزمن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا: قال فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا خرج ووجه هاهنا، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته فتوضأ، فقمت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها، وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر، فسلمت عليه، ثم انصرفت فجلست عند الباب، فقلت لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت من هذا؟ فقال أبو بكر، فقلت على رسلك، ثم ذهبت فقلت يا رسول الله ﷺ هذا أبو بكر يستأذن؟ فقال [ائذن له وبشره بالجنة]، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر أدخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ

معه في القف ودلى رجله في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني، فقلت إن يرد الله بفلان خيراً يريد أخاه يأت به، فإذا إنسان يحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال عمر بن الخطاب فقلت على رسلك، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقلت هذا عمر بن الخطاب يستأذن، فقال [ائذن له وبشره بالجنة] فجئت فقلت أدخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ودلى رجليه في البئر، ثم رجعت فجلست، فقلت إن يرد الله بفلان خيراً يأت به، فجاء إنسان يحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال عثمان بن عفان، فقلت على رسلك، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال [ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه] فجئته فقلت له ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك، فدخل فوجد القف قد ملئ فجلس وجاهه من الشق الآخر، قال شريك قال سعيد بن المسيب فأولتها قبورهم.

وفي هذا الحديث من الفوائد والعلم ما يلي:

١) أن أصحاب النبي ﷺ كانوا دائمي السؤال عنه، كلفين بمحبته وصحبته، محتفين به.

٢) أن الرسول بشر أبا بكر وعمر وعثمان بالجنة.

٣) أن ورود هؤلاء الصحابة الثلاثة في هذه الواقعة على النبي ﷺ كان بترتيب خلافتهم تماماً وهذا من غرائب الوقائع، ومما جعله الله إشارة إلى ترتيب خلافتهم.

٤) أن نبؤة النبي ﷺ في عثمان قد تحققت تماماً وهذا دلائل نبوة الرسول ﷺ، وعلامات صدقه ﷺ. فقد أصيب ببلوى عظيمة عندما خرج أولئك السفهاء عليه وقتلوه وهو إمام المسلمين.

٥) أن الصحابة رضوان الله عليهم أشد الناس حرصاً على متابعة الرسول ﷺ.

فانظر إليهم كيف فعلوا تماماً كما فعل، وجلسوا على الهيئة التي جلس

عليها وهذا من شدة متابعتهم ومحبتهم. ومما يدل كذلك على شهادة الرسول ﷺ لأبي بكر بالجنة والإيمان هذا الحديث: عن قتادة أن أنس بن مالك رضي الله عنه حدثهم أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فقال [أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان]. (رواه الإمام البخاري).

فالصديق أبو بكر، والشهيدان عمر وعثمان رضي الله عنهما وهذا من علامات نبوة الرسول ﷺ. فقد عاش أبو بكر ومات صديقاً، واستشهد عمر واستشهد عثمان رضي الله عنهم جميعاً.

شهادة علي بن أبي طالب أن الصديق هو خير الناس بعد رسول الله:

قال البخاري: حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، حدثنا أبو يعلى عن محمد بن الحنفية، قال قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر، ثم قلت ثم من؟ قال: ثم عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت ثم أنت؟ ما أنا إلا رجل من المسلمين.

وهذه شهادة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا بكر هو خير الناس بعد رسول الله ﷺ وأن عمر هو خير الناس بعد الرسول ﷺ والصديق فتباً وسحقاً لمن اعتقد أن علياً كان يبغض الصديق والفاروق أو كان يسبهما أو يلعنهما. ألا لعنة الله على الظالمين الكاذبين. وأبلغ من هذه الشهادة ما رواه الإمام البخاري أيضاً.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إني لواقف في قومٍ، فدعوا الله لعمر ابن الخطاب، وقد وضع على سريره إذا رجل من خلفي قدً وضع مرفقه على منكبي، يقول رحمك الله: إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبيك لأني كثيراً مما كنت أسمع رسول الله ﷺ يقول: كنت وأبو بكر وعمر، وفعلت وأبو بكر وعمر، وانطلقت وأبو بكر وعمر فإن كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما، فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب.

وفي هذا الأثر من الفوائد ما يلي:

١) شهود ابن عباس رضي وعلي بن أبي طالب جنازة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

٢) أن علياً رضي الله عنه كان يرجو أن يدفن عمر بجوار النبي ﷺ وأبي بكر لأنه كان كثيراً ما يسمع النبي ﷺ يذكر نفسه ثم أبا بكر وعمر فيقول خرجت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر. فاستنبط علي من ذلك أنهما لا بد وأن يكونا أصحاباً لرسوله في الآخرة، وفي البرزخ كما جعلهم الله أصحابا للرسول في الدنيا، وهذا من فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الرسول ﷺ يستخلف الصديق على الصلاة:

"عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: [مروا أبا بكر يصلي بالناس]. قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل، فقال: [مروا أبا بكر فليصل بالناس]، فقالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي (له): إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: [إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس]، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً".

وفي رواية قال: "أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس في مرضه، فكان يصلي بهم، قال عروة: فوجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فخرج، فإذا أبو بكر يؤم الناس، فلما رآه أبو بكر استأخر، فأشار إليه رسول الله ﷺ: أن كما أنت، فجلس رسول الله ﷺ حذاء أبي بكر إلى جنبه، فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر".

وفي رواية: "قال الأسود بن يزيد: كنا عند عائشة، فذكرنا المواظبة على الصلاة والتعظيم لها، فقالت: لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه،

فحضرت الصلاة فأذن فقال: [مروا أبا بكر فليصل بالناس]، فقيل: أن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس وأعاد، فأعادوا، وأعاد الثالثة، فقال: [إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل للناس]، فخرج أبو بكر يصلي، فوجد النبي ﷺ من نفسه خفة، فخرج يهادي بين رجلين، كأني أنظر رجليه تخطان من الوجع فأراد أبو بكر أن يتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ: أن مكانك، ثم أتي به حتى جلس إلى جنبه، فقيل للأعمش: فكان النبي ﷺ يصلي، وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر؟ فقال برأسه: [نعم]، قال البخاري: وزاد معاوية "جلس عن يسار أبي بكر، وكان أبو بكر قائماً".

وفي رواية للبخاري، وفيه "جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: [مروا أبا بكر يصلي بالناس]، قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر؟ فقال: [مروا أبا بكر يصلي بالناس..] ثم ذكر قولها لحفصة، وقول النبي ﷺ: [إنكن لأنتن صواحب يوسف]، وأنه عليه السلام وجد خفة فخرج.. ثم ذكر إلى قوله: حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائما، وكان رسول الله ﷺ يصلي قاعداً، يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر".

وفي أخرى نحوه، وفيه "إن أبا بكر رجل أسيف، إن يقم مقامك يبك، ولا يقدر على القراءة، ولم يذكر قولها لحفصة. وفي آخرة فتأخر أبو بكر، وقعد النبي ﷺ إلى جنبه، وأبو بكر يسمع الناس التكبير".

وفي أخرى لهما: أن عائشة قالت: "لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً وإني كنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر".

وفي أخرى لهما قالت: "لما دخل رسول الله ﷺ بيتي، قال [مروا أبا بكر فليصل بالناس]، قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا

قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر؟ قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ، قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً، فقال: [ليصل بالناس أبو بكر، فإنكن صواحب يوسف]. (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال: [مروا أبا بكر فليصل بالناس]، قالت عائشة: يا رسول الله، إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، فقال: [مري أبا بكر فليصل بالناس]، فعادت، فقال: [مري أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحب يوسف]، فأتاه الرسول، فصلى بالناس في حياة رسول الله ﷺ". (أخرجه البخاري ومسلم).

وفي هذا الحديث من الفوائد ما يلي:

١) اختيار الرسول ﷺ أبا بكر ليصلي بالناس دليل على إمامته، لأن الصلاة أشرف عمل للمسلمين، وإمامتها مهمة الإمام والقائد، ولذلك كان لا يؤم الجيش إلا القائد، فتقديم الرسول لأبي بكر ليصلي بالناس من أعظم الأدلة أنه قد ارتضاه بل عينه إماماً للناس في كل الشئون لأن الصلاة هي العنوان وهي أعظم شئون المسلمين.

٢) خوف السيدة عائشة رضي الله عنها على أبيها أن يتشاءم الناس من مقامه مقام الرسول مما يدل على نزاهتها وبراءتها رضي الله عنها وأنها لم تكن لا هي ولا أبوها طامعين في إمارة أو خلافة. وإصرار الرسول ﷺ على تولية أبي بكر يدل على أن الرسول ﷺ لم يكن ليدع أهم الأمور وهي إمامة المسلمين دون أن يرشد إليها ويبينها وفي تولية الصديق الإمامة أتم البيان.

وعن عبدالله بن زمعة رضي الله عنه قال: "لما استعز بالنبي ﷺ -وأنا عنده في نفر من الناس- دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: [مروا أبا بكر يصلي بالناس]، قال فخرجنا، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر

غائباً، فقلت: يا عمر، قم فصل للناس، فتقدم فكبر، فلما سمع النبي ﷺ صوته -وكان عمر رجلاً مجهراً- قال: [فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون]، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس".

زاد في رواية قال: "لما أن سمع النبي ﷺ صوت عمر (قال ابن زمعة)، خرج النبي ﷺ حتى أطلع رأسه من حجرته، ثم قال: [لا، لا، لا، ليصل بالناس ابن أبي قحافة].. يقول ذلك مغضباً" أخرجه أبو داود وهو حديث حسن.

ومن مجموع هذه الروايات نستفيد الفوائد الآتية:

١) أن اختيار الرسول ﷺ لأبي بكر ليصلي بالناس أعظم دليل على تقديمه وتزكيته لتولي أمور المسلمين والقيام بالأمر من بعده. كما استدل بذلك الصحابة وقالوا "رضيه رسول الله لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا". وذلك أن الصلاة هي أعظم أعمال الإسلام بعد الشهادتين والإيمان، وهي أعظم أعمال الخلفاء والولاة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فبدأ بالصلاة أولاً حتى يشعرنا أنها أعظم أعمال الدين وأعظم أفعال ولاة الأمور، واختيار الرسول ﷺ لأبي بكر ليؤم الناس في مرض موته أصرح الدلالات على أن الرسول ﷺ اختار الصديق لإمامة المسلمين وخلافة النبوة. فلعنة الله على الزنادقة الرافضة الذين زعموا أن الرسول ﷺ قد نص على خلافة علي أبي طالب فكيف ينص على ذلك ويولي الصديق إمامة الناس ويقول: [يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر].

٢) أن الرسول ﷺ أصر على إمامة الصديق مع مراجعة عائشة وحفصة له. وقد ذكرت عائشة أن سبب مراجعتها خشيتها أن يكره المسلمون أبا بكر لقيامه مقام رسول الله ﷺ الذي أحبوه أكثر من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم.

ولكن الله سبحانه وتعالى جعل قيام الصديق مقام رسول الله ﷺ من أعظم البركات والخيرات على الأمة الإسلامية، إذ قام خير قيام بخلافة رسول الله وقيادة الأمة إلى الرشد والسداد، وإبقاء سنة الرسول ﷺ حية قائمة.

شهادة الرسول ﷺ بخلافة الصديق:

روى البخاري بإسناده عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت أرأيت إن جئت ولم أجدك، كأنها تقول الموت، قال عليه الصلاة والسلام: [إن لم تجديني فأتي أبا بكر].

وهذه شهادة من الرسول ﷺ وخبر صادق منه، ودلالة من دلائل نبوته وصدقه ﷺ أن الذي سيرجع إليه بعد وفاته ﷺ إنما هو الصديق رضي الله عنه، فأي شهادة أبلغ من هذه وأصرح للدلالة على أن المرجع بعد الرسول ﷺ إنما هو أبو بكر رضي الله عنه.

ومما يدل على هذا أيضا هذه الرؤيا للرسول ﷺ:

روى الإمام البخاري بإسناده عن الزهري، قال أخبرني ابن المسيب سمع أبا هريرة رضي الله عنه، قال سمعت النبي ﷺ يقول: [بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن].

إن الخلافة بعد الرسول إنما تكون لأبي بكر ثم عمر وإن خلافة الصديق تكون قصيرة ثم تأتي خلافة الفاروق حيث يفيض المال وتعظم الفتوح وتستحيل دولة الإسلام إلى دولة عظمى، حتى يضرب الناس بعطن.. (والعطن) هو مرقد الإبل وهذه كناية وإشارة إلى استقرار الأمة وكثرة عددها وقيام سوقها.

الرسول ﷺ يأمر الصحابة بحفظ مكانة الصديق وألا يؤذى أبداً:

روى الإمام البخاري بإسناده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "كنت جالساً عند النبي ﷺ إذا أقبل أبو بكر أخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته. فقال النبي ﷺ: [أما صاحبكم فقد غامر فسلم]. وقال إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى علي فأقبلت إليك، فقال يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر. فسأل أثَمَ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه، فقال يا رسول الله: [والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: إن الله بعثني إليكم، فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي مرتين فما أوذي بعد بعدها].

خاتمة

هذه أخي المسلم عجالة سريعة أرجو أن تكون قد تعرفت من خلالها على فضل الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه الذي كان صاحب رسول الله ﷺ، ورفيق دربه، ومؤنسه وساعده الأيمن، والذي كان رجل المهمات الصعبة، والذي شد الله به أزر رسوله ﷺ، وأقامه عوناً له في أحرج المواقف، وواسى الرسول ﷺ بصحبته وماله. ومن أجل ذلك شهد الله له بأنه الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى، وبأنه الصاحب الذي لم يكن صاحب غيره مع الرسول ﷺ في الهجرة والغار، وشهد له النبي ﷺ بالجنة، والسبق والفضل والمنة، والذي كان أحب الرجال قاطبة إلى قلب النبي ﷺ.

ولا شك أن كل مؤمن مدين للصديق، وفي رقبته جميل له. فالإسلام إنما قام بالجهاد والدعوة وبذل المال والنفس وكان للصديق اليد الطولى في هذا، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس.

فواجبنا الأول الاعتراف والإقرار بما قرره الله في كتابه وذكره النبي ﷺ في حديثه، ومحبة من ثبتت محبته لله ورسوله ﷺ، وموالاة من والى الله ورسوله، وأبو بكر هو أعظم أولياء الله قاطبة بعد الرسل بإجماع الأمة كلها. وهو الذي اختاره الرسول ﷺ لإقامة الأمة وقيادتها، ونصبه إماماً في الصلاة وهو حي، إيذاناً وإعلاناً أنه قائدها ومرشدها، والقائم بالأمر من بعده.

ولذلك فواجب المسلمين اليوم محبة من أحب رسول الله ﷺ وموالاة ولي الله الأول في الأمة، ومعاداة من تنقص منه، وسبه، والعلم اليقيني أن الذين يسبون أبا بكر إنما هم زنادقة يريدون هدم الدين، وسب رسول الله ﷺ نفسه. بل إتهام الله العلي القدير بأنه اختار لرسول الله ﷺ شرار الخلق، وأن

الرسول ﷺ سكت عنهم وتزوج منهم، وأحبهم وهم ليسوا أهلاً لذلك. وخلفهم على دينه وأمته ليعبثوا بها، ويبدلوا ويغيروا كما يشاءون. هذه هي عقيدتهم وأقوالهم وهم ملعونون من أجل ذلك. خارجون من الدين بإتهامهم رسول الله ﷺ الذي باع نفسه لله، وكانت حياته كلها من أجله أن يماري أو يداري، أو يداهن، أو يخاف أن يظهر حقاً، فاعلم أخي المسلم ذلك جيداً، وتيقن أن الذين يسبون الصديق إنما يريدون هدم الإسلام ولا هم لهم غير ذلك.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ٣٢]

والحمد لله رب العالمين

* * *

كتاب

لمحات من حياة

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله القائل شهد الله أن لا إله لا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد القائل: العلماء ورثة الأنبياء، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه ودعا بدعوته من أئمة الدين وعلماء الإسلام وعلى كل قائم لله بدعوة صحيحة داخل في قوله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] .

وبعد

الدوافع إلى تأليف هذا الكتاب:

فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه من النفر القليل الذين كانت حياتهم لله، والذين دعوا إلى الله على بصيرة، شاهداً سبحانه وتعالى أنه لا إله إلا هو، قائما بالقسط، فقد كتب وألف عشرات المجلدات بل مئات المجلدات في هذين المعنيين: إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى وتحذير الأمة من الشرك الذي تفشى فيها بعد صدر الإسلام، ثم إثبات عدل الله في تشريعاته وقضائه وقدره، ولقد تعرض شيخ الإسلام في سبيل ذلك إلى تفنيد مزاعم قوى الشر كلها التي إنتشرت وسادت المسلمين في عصره في القرن

السابع الهجري وأوائل الثامن. فتصدى بالرد على الفلاسفة وأذنابهم والرافضة وأكاذيبهم، والباطنية وخبثهم ونفاقهم، والصوفية وعقائدهم الفاسدة وترهاتهم، وللمتكلمين وخلفائهم وتأويلاتهم الباطلة، وللمقلدين وعبادتهم لشيوخهم وتعصبهم لآرائهم المخالفة للكتاب والسنة، والنصارى وضلالهم، واليهود وخبثهم وإفسادهم، وألّف في كل ذلك وكتب ودرس وسافر وارتحل وناقش ولم يكتف بهذا أيضاً بل جرد سيفه لقتال التتار فجمع الجموع لملاقاتهم، ووحد صفوف المسلمين لحربهم، وخاض المعارك ونصره الله عليهم...

وهو في كل هذا عازف عن الدنيا، لم يتزوج ولم يكتنز مالاً أو يبني داراً ويتخذ عقاراً إلا ما أراده من دار الآخرة.

وعالم هذا شأنه لا شك أن يكثر أعداءه وحساده.. فقد عادى الدنيا كلها في الله وخاصم كل منحرف في ذات الله، ولم يداهن أميراً ولا وزيراً في الحق، لا صدع به حيث كان، ولا ينتهي من سجن حتى يزج به في سجن آخر، ولا ينصر في محاكمة حتى تعقد له محاكمة جديدة.. وكل ذلك وهو صابر محتسب، بل فرح مستبشر أن أكرمه الله بكل هذه الكرامات وهيأ له كل هذه لينشر علمه وتعظم محبة أهل الخير له، فكان قدوة للعالمين من أهل الخير في زمانه، ونموذجاً للعلماء العاملين في وقته، بل كان من تلاميذه جهابذة الأمة في كل فرع من فروع المعرفة الدينية فمن تلاميذه ابن كثير إمام المؤرخين والمفسرين، والذهبي علم المحققين والحافظ المزي، إمام من أئمة النقل والرجال والحديث وابن عبد الهادي علم التحقيق، وابن القيم إمام الأمة وفارسها، وروحاني الإسلام... وخلق كثيرون.. ثم أصبحت كتبه من بعده هي الهادي والمرشد لعقيدة أهل السنة والجماعة، بعد أن لبس الملبسون من أهل الكلام والزندقة على الناس، ونشروا عقائدهم الباطلة في الأمة فقام هذا المجدد الفرداني والعالم الرباني فكشف بنور القرآن والسنة أضاليل أهل الكلام والبدعة والزندقة والردة.

* أعود فأقول عالم هذا شأنه كثر حساده وأعداؤه في حياته وبعد مماته ينقبون كتبه ويفتشون لعلهم يظفرون له بخطيئة أو بزلة وليس هو بمعصوم فيضخمون ما ظنوه خطأ. فيجعلون خطأه كفراً، وردة، ثم يفترون عليه ويكذبون، كل ذلك يسعون جاهدين أن ينفروا الأمة عن طريقه ويصرفوا العالم عن مطالعة كتبه، ولكن هذا منهم كان ينقلب في كل مرة عليهم حيث يقف الناس على كذب شانئيه ومبغضيه فينقلب السحر عليهم، وتبتلع آية الله ما أفكه الظالمون، وما افتراه المفترون.

وكان من جملة ما افتراه بعض هؤلاء من زعم أمام مجموعة من الطالبات أن ابن تيمية وابن القيم قد خالفا إجماع المسلمين لقولهما بفناء النار.. وزعم أن هذا إجماع قطعي.

وقال عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه سجن من أجل ذلك ولو لم يمت في السجن لنفذ فيه حد الردة.. وبادرته طالبة من الطالبات قائلة: أنعتبر ابن تيمية كافراً بذلك: فقال: يمكن يكون رجع عن كلامه.. ولا نعلم له رجوعاً، ولكنه زعم في مقام آخر أيضاً أنه لو قام من قبره لنفذ فيه حكم الردة..

الأهداف البعيدة: -

أعود فأقول إن السبب في إرادة هدم شيخ الاسلام ابن تيمية من هذا الرجل وأمثاله معروف. لأن كتب شيخ الإسلام أنوار هاديات لكل زيف وبهتان، وتضليل وهذيان، ولذلك يحاربها كل من أراد أن يبني له مجداً في الظلام، ويطمس بعض البصائر ويتخذ مجموعة من الخفافيش تعيش معه في الجحور... ولذلك يحاذر كل المحاذرة أن يسمع أحد منهم كلمة حق، أو يقرأ كتابا يفضح باطله وزوره وتخليطه..

وقد بادر مجموعة من الإخوة فكتبوا بعض المقالات في الصحف رداً على فرية هذا الأستاذ على شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتبت مقالاً سريعاً في الجريدة رداً على هذه الفرية وكان هذا نصه: -

متى يكون مخالف الاجماع كافراً؟

* يعرف علماء الأصول الإجماع بأنه إتفاق علماء الإسلام في عصر من العصور بعد وفاة الرسول ﷺ على مسألة من مسائل الدين. ويضربون أمثلة لذلك باتفاق المسلمين على بيعة الصديق، وحروب الردة، وولاية الفاروق، وإعطاء الجدة السدس من الميراث. ونحو ذلك من أمور اشتهرت وعمل بها المسلمون وافق بها جميع الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ.

ويجعلون مخالف هذا الإجماع الظاهر كافراً وخاصة إذا كان الإجماع مستنداً إلى نص شرعي صريح كتحريم الخمر، والصلوات الخمس وإيجاب التيمم عند فقد الماء ونحو ذلك ما لم يكن مخالف هذا الإجماع متأولاً أو جاهلاً.

وفي دراسة عن الإجماع عمد أحد أساتذة كلية الشريعة بجامعة الكويت أمام طالبات من الكلية إلى ضرب أمثلة لمن خالف إجماع المسلمين فلم يجد مثلا لذلك إلا الإمامين الجليلين: شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم فاعلن الأستاذ للطالبات أنهما خالفا إجماع المسلمين لأنهما قالا بفناء نار الآخرة بعد أحقاب طويلة من عذاب الكفار فيها.

أقول لم يجد الأستاذ إلا هذين الإمامين ليدلل على مخالفة الإجماع، ولم يكتف بذلك بل زعم أن الشيخ ابن تيمية سجن من أجل فتواه تلك وأنه مات في السجن من أجل ذلك، ولو لم يمت في السجن لنفذ فيه حكم الردة!!

وكلام الأستاذ هذا فيه كثير من الأغاليط بل الأكاذيب عدا عما فيه من عدوان، وإفساد لعقول الشباب الناشئة وتنفير من علماء الإسلام ونحن نبين كل ذلك بحمد الله سبحانه:

أولاً: الإمام ابن تيمية لم يدخل السجن قط في هذه المسألة بالرغم من أنه دخل السجن مراراً وتكراراً، ودخوله السجن من فضل الله عليه، وكذلك فان هذه المسألة لم تكن قط مثارة في عهده ممن أنكر عليه شيئاً من أقواله

وإنما كان آخر مرة سجن فيها شيخ الإسلام - رضي الله عنه - في مسألة شد الرحال لزيارة القبور التي أنكرها هو عملاً بالحديث الصحيح "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد الأقصى" ولما أجمعت عليه الأمة، أن السفر لزيارة القبور سفر معصية، ولكن عباد القبور في زمانه ألبوا عليه بعض من لا فقه لهم من الأمراء فسجن لذلك ووافته المنية في سجن قلعة دمشق من أجل ذلك وليس من أجل قوله بفناء النار كما زعم استاذ كلية الشرعية.

ثانياً: قضية القول بفناء النار ليست ابتداعاً لشيخ الإسلام ابن تيمية (الحق أن ابن تيمية ذكر في هذه المسألة قولين للسلف ولم يرجح واحداً منهما وإنما الذي رجح القول بالفناء هو ابن القيم رحمه الله). وابن القيم وإنما قال بها جمهور كبير من الصحابة والتابعين كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة وعبد الله بن مسعود، وعلي ابن أبي طالب، والحسن البصري، وكثير من أئمة التابعين وعلماء التفسير فكيف تكون هذه القضية من قضايا الإجماع وهؤلاء جميعاً مخالفون لذلك، بل قال الإمام ابن القيم أنه لو طال ممن يقول بالإجماع في هذه المسألة: أن ينقل عن عشرة فقط من الصحابة فما دونهم إلى الواحد لم يجد الى ذلك سبيلاً.. فكيف يدعي الإجماع في مثل ذلك؟

ثالثاً: الكلام الذي رمى به الأستاذ شيخ الإسلام ابن تيمية كلام عظيم وبهتان كبير فتكفير المسلم شيء عظيم فكيف بتكفير إمام من أئمة المسلمين وعلم من أعلامهم لا يوجد لليوم عالم قد نال من ثناء العلماء عليه مثل ما نال هذا الرجل.

وحسبك من ذلك قول تلميذه الحافظ الذهبي: "لو حُلّفت بين الركن والمقام لَحَلفت أنني ما رأيت بعيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه في العلم" وقول تلميذه الحافظ المزي: "ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه" وقول الإمام ابن

دقيق العيد: "لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجع كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد".

ومثل هذا القول أيضاً عن أبي حيان شيخ النحاة.. ولم تؤلف تراجم في الإسلام لرجال مثله. وهو الذي اتبع جنازته أهل دمشق كلها، وقد حضر من النساء فقط خمسة عشر ألف امرأة. ومائتي ألف رجل. ولا يعرف جنازة مثلها في الإسلام إلا للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فالإقدام على تكفير رجل مثل هذا في حلقة من حلقات العلم وفي كلية الشريعة شيء عظيم جداً.

* وقد يقول قائل إن كلام الأستاذ لا يتضمن التكفير وأقول هذا قول خاطئ.. أولاً: لأن الأستاذ كان في معرض بيان من خالفوا الإجماع ومعلوم أن مخالف الإجماع كافر، وثانياً: أنه زعم أن علماء عصره حكموا بكفره.. وكان هذا إقرار منه بذلك، وثالثاً: أنه قال لو لم يمت لنفذ فيه حكم القتل وحكم القتل لا ينفذ في مثل هذه الحالة المزعومة إلا للردة.. ورابعاً: أنه زعم أنه لم يعرف له رجوع عن قوله هذا. وخامساً: إن هذا الأستاذ يلقى الكفر على كل من يتوهم أنه يخالفه وهذا دأبه أبدا.

رابعاً: كان بودنا ألا يستغل الأستاذ منصبه ومقامه وسط طالبات قد يظن أنهن لن يتمكن من البحث والمعرفة فيبتلعن السموم التي ينفثها لهن.. أقول كان بودنا ألا يستغل الأستاذ ذلك وأن يعمد إلى مخالفي الإجماع الحقيقيين كمن زعموا أن القرآن فقط كاف لنا دون السنة النبوية، ومن زعموا أن الدين أخلاق وعبادات فقط وليس حكماً وتشريعاً، ومن غيروا وبدلوا بعد الرسول وجعلوا ظاهر القرآن والسنة في زعمهم كفر، ونفوا عن الله أسماءه وصفاته العلية، ومن قالوا بوحدة الوجود وأن المخلوق هو عين الخالق، ومن أجازوا التوسل بالأموات والطواف بالقبور وشد الرحيل إلى المزارات، والسجود على العتبات ونحو هذا كثير من الذين أرادوا هدم دين الإسلام بالفعل. أما أن يعمد إلى إمام عاش طيلة دهره مجاهداً بسيفه وقلمه محارباً في كل اتجاه فلا يجد الأستاذ كافراً في الأمة مخالفاً لاجماعها غيره..

سبحان الله أين الفكر والنظر بل أين الدين والخلق؟!

خامساً: نحن نقول للأستاذ: إن زمنا كان يمكن فيه التدليس على الناس وطمس الحقائق قد ولى، وان الطالبات اللاتي ظننت أنهن لسن أهلاً للبحث والتحري ومعرفة الحق لسن كذلك وسيصلن حتماً بعون الله ومشيئته إلى معرفة الحق إن كان معك أو عليك وان من يطاول ابن تيمية ويرميه بسهم حتماً سيعود سهمه إلى نحره.. وان أناساً يدافعون عنك الآن، ولا يدافعون عن حرمة الأموات يغشونك ويغشون أنفسهم، وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: "ومن عادى لي وليا فقد اذنته بالحرب"، والرسول يقول أنتم شهداء في الأرض.. ومن شهد له وجبت له الجنة، وقد شهد أهل دمشق كلها في عصر ابن تيمية جنازته وشهدوا له وبكوه احر ما يكون البكاء، ولم يكن ذلك اصطناعاً ولا دعاية وإنما كان شهادة وهداية من الله. فانظر أين وضعت نفسك. وانتظر غداً يوم يعرف الناس الحقائق، وتنجلي الأمور أن العلم ليس باعتجار العمامة، ولا تبديل البشوت، والاختيال في الأردية. وتكفير علماء الإسلام واحتقارهم وتحذير الشباب منهم.

سادساً: وفي الختام نسأل الأستاذ هذه الأسئلة نرجو جوابها.. من أين علمت أن شيخ الإسلام ابن تيمية سجن آخر مرة في قوله بفناء النار؟ وأن إجماع المسلمين الذي زعمته في هذه القضية؟ وهل يكون إجماعاً ما خالفه جمهور من الصحابة والتابعين؟ وماذا تقول في هؤلاء الصحابة الذين خالفوا إجماعك المزعوم؟ هل كفروا هم أيضاً مع ابن تيمية وابن القيم؟ ومن الذي حكم في الشيخ بحكم الردة؟ وما هو حكم من كفر إماماً من أئمة المسلمين أجمعت الأمة على إمامته وعدله وعلمه وتقواه؟.. نرجو أن نتلقى رداً منكم على أسئلتنا هذه.

وقد رأيت من واجبي قياماً بحق إمام من أجل أئمة الأمة الإسلامية لا يوجد اليوم مسلم يعرف التوحيد حقاً إلا وهو مدين له بالعلم والفضل فهو الذي أنار للأمة بعده طريق الله بعد تمالأ الباطنية والقرامطة والغلاة والرافضة،

والصوفية، والحلولية، والمتفلسفة على إفساد دين المسلمين وطمس طريق رب العالمين، فقام في هذه الأيام يصاول كل هذا الباطل بقلمه السيال، ونور كلماته الوقاد، وسيفه القاطع فما أبقى لهم شبهة إلا ورفعها، ولا تلبيساً إلا وكشفه، ولا ظلاماً إلا وبدده. أقول رأيت من واجبي أن أقتبس جذوة من نور هذا الشيخ الجليل، وأعرض على ناشئتنا الإسلامية لمحة من أضوائه اللامعة وليست في هذا إلا قابساً من جذوته، وناقلاً عمن كتب عنه، وأني لأرجو في مستقبل حياتي إن أطال الله في عمري أن أجمع ترجمة مستفيضة له أجعل القارئ يعيش بها مع هذا الرجل حياته ساعة بساعة، ويجلس في حلقات علمه تلميذاً حلقة حلقة، ودرساً درساً، ولعل الله أن يمكنني من ذلك وأما الآن فإلى هذه اللمحات من حيات شيخنا وأستاذنا شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله.

كتبه: عبد الرحمن بن عبد الخالق

الكويت الأحد ١٥ صفر ١٤٠٤هـ

الموافق ٢٠/ ١١/ ١٩٨٣

الباب الأول

ابن تيمية: الإعداد الرباني

أول ما يطالعنا في دراسة حياة شيخ الإسلام ابن تيمية هو هذا الإعداد والعناية الربانية التي كلأت هذا الإمام منذ أن كان صغيراً وإلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى وهذا ما يكاد يجمع عليه كل الذين ترجموا له. وكتبوا عنه ممن أراهم الله حقيقة هذا الرجل العجيب فكأن الظروف والأحداث كانت تتهيأ لاستقبال هذا المجدد.. ولا شك أن القارئ الذي سيستمر معنا مطالعاً هذه المقتطفات واللمحات من حياة شيخنا شيخ الإسلام سيخرج بهذه النتيجة.

فالعالم الذي أظلم ظلاماً يكاد أن يكون كاملاً قبل أن يبدأ هذا الرجل دعوته قد كان يتطلع وينتظر قدوم مثل هذا الرجل ليبدد ظلمات الفلسفة والزندقة، والإلحاد، والشرك بكل مظاهره، والباطنية بكل أعلامها والإتحادية، وأيضاً ظلام الحكام المتجبرين والعملاء المأجورين، وأكثر من هذا ظلام وعدوات التتر المتسترين بالإسلام، والنصيرية والرافضة المعادين لأهل الإسلام، والموالين لأهل الكفر والطغيان لقد كان العالم الإسلامي في أمس الحاجة إلى عالم مجدد جريء شجاع يستطيع أن يقول الحق لكل أولئك وهو لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى سجنا ولا تعذيباً، ولا غربة ولا نفياً.. بل ولا قتلاً.. فكان ابن تيمية الذي جعله الله أولاً وعاء عظيم استوعب علم الكتاب والسنة، ثم وسع كل علوم وترهات وأكاذيب أولئك الضلال وعرف بعد ذلك كيف يكر عليها ويبطلها باطلاً باطلاً، ولا يستطيع أحد منهم أن يقف أمامه أو يحاربه أو يلبس على الناس عنده.. والآن تعالو نطالع عناية الله بهذا الرجل منذ أن كان صبياً.

شهادة ابن عبد الهادي:

قال الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي في " العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية" : انبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه. واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له: أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً، لعلي أراه، فقال له خياط: هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جاء. فاقعد عندنا، الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتّاب (الكتّاب: مدرسة صغيرة لتحفيظ القرآن.) فجلس الشيخ الحلبي قليلاً. فمر صبيان، فقال الخياط: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير: هو أحمد بن تيمية. فناداه الشيخ. فجاء إليه. فتناول الشيخ اللوح منه، فنظر فيه ثم قال له: امسح يا ولدي هذا، حتى أملي عليك شيئاً تكتبه، ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر، أو ثلاثة عشر حديثاً، وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته اياه. ثم دفعه إليه، وقال: اسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع. فقال له: يا ولدي، امسح هذا، ففعل. فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه، كما فعل أول مرة. ثم أسمعه إياه كالأول. فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم. فإن هذا لم يُرَ مثله.

الباب الثاني

ابن تيمية: العالم الذي لم ير العلماء مثله

كان لا بد لابن تيمية الذي سيقابل هذا الواقع الأليم بكل مآسيه وعقباته أن يكون عالماً من طراز آخر، وأن يقر له العلماء جميعاً بالفضل والسبق عليهم، وأن يشهدوا أن أعينهم لم تر مثل هذا الرجل، وذلك حتى يستطيع أن يشق طريقه إلى الإصلاح، ولا يستطيع أحد أن يتهمه بجهل أو قصور وتعالوا نشاهد شهادات العلماء له في عصره وبعد عصره بالعلم الذي لا يضارع ولا يماثل..

١- شهادة تلمذة الإمام الذهبي

قال الذهبي في معجم شيوخه: أحمد بن عبد الحليم - وساق نسبه - الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي أبو العباس، تقي الدين، شيخنا وشيخ الإسلام، وفريد العصر علماً ومعرفة، وشجاعة وذكاء، وتنويراً إلهياً، وكرماً ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر. سمع الحديث، وأكثر بنفسه عن طلبه، وكتب وخرج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره. برع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها. وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ من الحديث، معزوا إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضاره له وقت إقامة الدليل. وفاق الناس من معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوي الصحابة والتابعين، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل يقوم بما دليله عنده. وأتقن العربية أصولاً وفروعاً، وتعليلاً واختلافاً. ونظر

في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين، وَرَدَّ عليهم، وَنَبَّهَ على خطئهم، وحذَّر منهم ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين. وأوذى في ذات الله من المخالفين، وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبَتَ أعداءه، وهدى به رجالاً من أهل الملل والنحل، وجمع قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته، وأحيى به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم بتثبيت أولى الأمر لما أقبل حزب التتر والبغي في خيلائهم، فظُنت بالله الظنون، وزلزل المؤمنون، واشْرَأَبَّ النفاق وأبدى صفحته. ومحاسنه كثيرة، **وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت: أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه** .طبقات الحنابلة لابن رجب ٣٨٩، ٣٩٠

وقال الذهبي أيضاً:

وله خبرة تامة بالرجال، وجرحهم وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه، الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند، **بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث. (المصدر السابق)**

وقال أيضاً:

ولما كان معتقلاً بالإسكندرية: التمس منه صاحب سبتة أن يجيز لأولاده، فكتب لهم في ذلك نحواً من ستمائة سطر، منها سبعة أحاديث بأسانيدها، والكلام على صحتها ومعانيها، وبحث وعمل ما إذا نظر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث. وذكر أسانيده في عدة كتب. وَنَبَّه على العوالي. عمل ذلك كله من حفظه، من غير أن يكون عنده ثَبَت أو من يراجعه.

ولقد كان عجيباً في معرفة علم الحديث. فأما حفظه متون الصحاح وغالب متون السنن والمسند: فما رأيت من يُدانيه في ذلك أصلاً.

قال: وأما التفسير فمسلم إليه. وله من استحضار الآيات من القرآن - وقت إقامة الدليل بها على المسألة - قوة عجيبة. وإذا رآه المقرئ تحير فيه. ولفرط إمامته في التفسير، وعظم اطلاعه. يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين. ويُوهي أقوالاً عديدة. وينصر قولاً واحداً، موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث .**ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل: نحواً من أربعة كراريس أو أزيد.**

قلت: وقد كتب "الحموية" في قعدة واحدة . وهي أزيد من ذلك. وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يبيض منه مجلد. ا هـ

(المصدر السابق)

وقال الذهبي أيضاً في بيان حملاته على المنحرفين:

وغالب حطه على الفضلاء والمتزهدة فبحق، وفي بعضه هو مجتهد، ومذهبه توسعة العذر للخلق، ولا يكفر أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه.

قال: ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدّعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابل لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المرَّ الذي أدَّاه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكر، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، ولتعظيم لحرمات الله.

فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يُدْمنها بكيفية

وجمعية. وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً، بلسانه وقلمه.

"وله حدة قوية تعتريه في البحث، حتى كأنه ليث حَرِب. وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته. وفيه قلة مداراة، وعدم تؤدة غالبا، والله يغفر له إقدام وشهامة، وقوة نفس توقعه في أمور صعبة، فيدفع الله عنه. " ا هـ. (المصدر السابق)

وقال أيضاً في وصف شجاعته:

وأما شجاعته: فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتضبه أكابر الأبطال. ولقد أقامه الله تعالى في نوبة قازان. (ملم من ملوك التتار قابله ابن تيمية وانكر عليه وأمره بطلاق أسرى المسلمين ففعل). والنقى أعباء الأمر بنفسه. وقام وقعد وطلع، ودخل وخرج، واجتمع بالملك - يعني قازان - مرتين، وبقَطْلوشاه، وبُولاي. وكان قبجق يتعجب من إقدامه وجراءته على المغول."

وأقول: إن هذه والله الترجمة ما نال أحد من العلماء فيما أعلم منها قط ومن يستطيع أن يكتب الناس فيه كلاماً صحيحاً صادقاً كالذي يكتبه هذا الإمام المدقق الصادق رحمه الله.

٢- شهادة تلميذه الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الهادي المتوفى سنة ٧٤٤هـ

"قال الشيخ ابن عبد الهادي: ثم لم يبرح شيخنا في ازدياد من العلوم، وملازمة الاشتغال والإشغال، وبث العلم ونشره، والاجتهاد في سبيل الخير، حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم والأناة والإنابة، والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والعفة والصيانة، وحسن القصد

والإخلاص، والابتهال إلى الله وكثرة الخوف منه، وكثرة المراقبة له، وشدة التمسك بالأثر، والدعاء إلى الله وحسن الأخلاق، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، والصبر على من آذاه، والصفح عنه والدعاء له، وسائر أنواع الخير.

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين. وكان بحراً لا تكدِّره الدِّلاء، وحبراً يقتدي به الأخيار الأولياء. طنَّت بذكره الأمصار وضنَّت بمثله الأعصار.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى (ولد سنة ٦٥٤ بالمزة. وتوفي سنة ٧٤٢): ما رأيت مثله. ولا رأى هو مثل نفسه، ولا رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا أتبع لهما منه.

وقال الشيخ الحافظ أبو الفتوح محمد بن سيد الناس اليعمري الأندلسي، ثم المصري (ولد سنة ١٩٧١ وتوفي بالقاهرة سنة ٧٣٤) - بعد أن ذكر ترجمة الحافظ جمال الدين المزي - وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، تقي الدين، أبي العباس: أحمد بن عبد الحليم عبد السلام بن تيمية - فألفيته: **كاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير: فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه: فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث: فهو صاحب علمه وروايته، أو حاضر بالنِّحَل والملل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من رايته. برز في كل فن على أبناء جنسه. ولم تر عين من رآه مثله.**

ولا رأت عينه مثل نفسه. كان يتكلم في التفسير يحضر مجلسه الجم الغفير، ويرتوون من بحر علمه العذب النمير، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير، إلى أن دب إليه من أهل بلده داء الحسد. وألَّب أهل النظر منهم ما ينتقد عليه في حنبليته من أمور المعتقد، فحفظوا أنه خالف طريقهم، وفرق فريقهم، فتنازعهم ونازعوه، وقاطع بعضهم وقاطعوه، ثم نازعه طائفة أخرى ينتسبون من الفقر إلى طريقة، ويزعمون أنهم على أدق باطن منها وأجلى حقيقة، فكشف عن عيوب تلك الطوائف، وذكر لها بوائق، فآضت إلى

الطائفة الأولى من منازعيه، واستعانت بذوى الضعن عليه من مقاطعيه، فوصلوا بالأمراء أمره، وأعمل كل منهم في كفره فكره، فكتبوا محاضر. وألَّبوا الرويبضة للسعي بها بين الأكابر، وسعوا في نقله إلى حضرة المملكة بالديار المصرية، فنقل وأودع السجن ساعة حضوره، واعتقل، وعقدوا لإراقة دمه مجالس، وحشدوا لذلك قوماً من عمار الزوايا وسكان المدارس، من كل متحامل في المنازعة بالمخادعة، ومن مجاهر بالتفكير مبارز بالمقاطعة، يسومونه ريب المنون ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٦٩] . وليس المجاهر بكفره أسوأ حالاً من المخاتل، وقد دبت إليه عقارب مكره. فرد الله كيد كل في نحره. فنجاه الله على يد من اصطفاه، والله غالب على أمره ثم لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة، إلى أن فُوِّض أمره إلى بعض القضاة، فَقُلِّدَ ما تقلد من اعتقاله. ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى وانتقاله. وإلى الله ترجع الأمور. وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وكان يومه مشهوداً، ضاقت بجنازته الطريق. وانتابها المسلمون من كل فج عميق، وكان موته رحمه الله في ليلة العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ سيجناً بقلعة دمشق. (العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية).

٣- شهادة قاضي الشافعية ومفتيهم ابن الزملكاني:

قال ابن كثير: -

وأثنى عليه وعلى علومه وفضائله جماعة من علماء عصره، مثل القاضي الخوبي، وابن دقيق العيد، وابن النحاس، والقاضي الحنفي قاضي قضاة مصر ابن الحريري وابن الزملكاني وغيرهم، ووجدت بخط ابن الزملكاني (قال ابن كثير في وصف ابن الزملكاني: - شيخ الشافعية بالشام وغيرها، انتهت إليه رياسة المذهب وإفتاء ومناظرة، ويقال في نسبه السماكي نسبة إلى أبي دجانة سماك بين خرشة والله أعلم). (البداية والنهاية ص ١٤٠ ج ١٤). أنه قال: اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطولى في حسن

التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتدوين، وكتب على تصنيف له هذه الأبيات:

مـــاذا يـقـــولُ الـــواصـــفـــونُ لَـــهُ   ومحـاسـنـه جـلَّـتْ عـن الحـصـرِ
هـــو حـــجـــةٌ للهِ قـــاهـــرةٌ   هـــو بـيـنَنا أُعـجُـوبـةُ الـدّهـرِ
هـــو آيـــة في الخـــلـــق ظـــاهـــرة   أنـــوارهـــا أربـــت عـــلى الـــفـــجـــر

وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء وممن يخطئ ويصيب ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضاً مغفور له كما في صحيح البخاري: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر "فهو مأجور. وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر."

٤- شهادة الحافظ جلال الدين السيوطي:

ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن المفتي شهاب الدين عبد الحليم بن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الحراني

أحد الأعلام، ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة.

وسمع ابن أبي اليسر. وابن عبد الدائم، وعدّة.

وعُنى بالحديث، وخرج وانتقى، وبرع في الرجال، وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام وعلم الكلام، وغير ذلك. وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين. والزهاد، والأفراد، ألف وثلاثمائة مجلدة، وامتحن وأوذى مراراً.

مات في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. " هـ (طبقات الحفاظ ص ٥١٦، ٥١٧).

٥- شهادة أبو الحسن السبكي قاضي القضاة..

ومما وجد في كتاب كتبه العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ أبي عبد الله الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين المذكور: أما قول سيدي في الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره. وزخارة بحره. وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية. وفرط ذكائه واجتهاده. وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الصف. والمملوك يقول ذلك دائماً. وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل. مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة. ونصرة الحق. والقيام فيه لا لغرض سواه. وجريه على سنن السلف. وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى. وغرابة مثله في هذا الزمان. بل من أزمان.

٦- شهادة الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي رحمه الله

قال ابن حجر العسقلاني المولود في القاهرة والمتوفي بها سنة ٨٥٢ هـ وصاحب كتاب فتح الباري شرح البخاري وكتاب التهذيب وهو الذي لقب بأمير المؤمنين في الحديث. قال تقريظا لكتاب الرد الوافر للإمام ابن ناصر الدين الدمشقي وهو الذي كتبه مؤلفه رداً على أن من زعم من متعصبي الأحناف أنه لا يجوز تسمية ابن تيمية بشيخ الإسلام وأنه من فعل ذلك فقد كفر!! (انظر) فكتب ابن ناصر الدين الدمشقي كتاباً سماه الرد الوافر ذكر فيه أكثر من بضع وثمانين إماماً من أئمة المسلمين كلهم سمي ابن تيمية بشيخ الإسلام ونقل نقولهم من كتبهم بذلك، ولما قرأ الحافظ بن حجر رحمه الله هذا الكتاب الرد الوافر كتب عليه تقريظاً هذا نصه:

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وقفت على هذا التأليف النافع، والمجموع الذي هو للمقاصد التي جمع لأجلها جامع، فتحققت سعة اطلاع الإمام الذي صنفه، وتضلعه من العلوم النافعة بما عظمه بين العلماء وشرفه، وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باق إلى الآن على الألسنة الزكية

ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو تجنب الانصاف، فما أغلط من تعاطي ذلك وأكثر عثاره، فالله تعالى هو المسؤول أن يقينا شرور أنفسنا وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله، ولو لم يكن من الدليل على إمامة هذا الرجل إلا ما نبه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي في تاريخه: أنه لم يوجد في الإسلام من اجتمع في جنازته لما مات ما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين، وأشار إلى أن جنازة الإمام أحمد كانت حافلة جداً شهدها مئات ألوف، ولكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير من كان ببغداد أو أضعاف ذلك، لما تأخر أحد منهم عن شهود جنازته، وأيضاً فجميع من كان ببغداد إلا الأقل كانوا يعتقدون إمامة الإمام أحمد، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت اذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم، بخلاف ابن تيمية فكان أمير البلد حين مات غائباً.وكان أكثر من بالبلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه حتى مات محبوساً بالقلعة، ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم عليه والتأسف (عليه) إلا ثلاثة أنفس، تأخروا خشية على أنفسهم من العامة.

ومع حضور هذا الجمع العظيم فلم يكن لذلك باعث إلا اعتقاد إمامته وبركته لا بجمع سلطان ولا غيره، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: "أنتم شهداء الله في الأرض" (رواه البخاري ومسلم). ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مراراً بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع، وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة وبدمشق، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا حكم بسفك دمه مع شدة المتعصبين عليه حينئذ من أهل الدولة، حتى حبس بالقاهرة ثم بالإسكندرية، ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وكثرة ورعه وزهده، ووصفه بالسخاء والشجاعة، وغير ذلك من قيامه في نصر الإسلام، والدعوة إلى الله تعالى في السر والعلانية، فكيف لا ينكر على من أطلق أنه كافر، بل من أطلق على من سماه شيخ الإسلام الكفر، وليس في تسمية بذلك ما يقتضي ذلك فإنه شيخ في الإسلام بلا ريب، والمسائل أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عناداً، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبري

منه، ومع ذلك فهو بشرٌ يخطئ ويصيب، فالذي أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه، بل هو معذور لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه، حتى كان أشد المتعصبين عليه، والقائمين في ايصال الشر إليه، وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني شهد له بذلك، وكذلك الشيخ صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره، ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان أعظم الناس قياماً على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة، وفتاويه فيهم لا تدخل تحت الحصر، فيا قرة أعينهم إذ سمعوا بكفره، ويا سرورهم إذا رأوا من يكفر من لا يكفره، فالواجب على من تلبَّس بالعلم وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشتهرة، أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل، فيفرد من ذلك ما ينكر فيحذِّر منه على قصد النصح، ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء، **ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف، لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم، والتميز في المنطوق والمفهوم، أئمة عصره من الشافعية وغيرهم! فضلاً عن الحنابلة**، فالذي يطلق عليه مع هذه الأشياء الكفر، أو على من سماه شيخ الإسلام، لا يلتفت إليه، ولا يعول في هذا المقام عليه، بل يجب ردعه عن ذلك لى أن يراجع الحق ويذعن للصواب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

صفة خطه أدام الله بقاءه.

قاله وكتبه أحمد بن علي بن محمد بن حجر الشافعي عفا الله عنه، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول عام خمسة وثلاثين وثمانمائة حامداً لله، ومطلياً على رسوله محمد وآله ومسلماً. ا هـ (الرد الوافر للإمام ابن ناصر الدين الدمشقي بتحقيق زهير الشاويش ص ١٤٥ - ١٤٦).

الباب الثالث

ابن تيمية: العابد الورع

ان مجدداً يقوم في مثل تلك الظلمات التي كانت في القرن الثامن الهجري لا يمكن أن يفلح في دعوته بمجرد العلم حتى لو كان علماً لا يصارع ولا يصاول ولا يطاول.. بل لا بد وأن يكون مع هذا العلم إيمان وتقوى، واستمداد من الله ورجوع دائم إليه، وقيام بحق العباد، وإخلاص في كل ذلك لله حتى يبارك هذا العلم وتؤتى ثماره، وكذلك كان شيخنا شيخ الإسلام العابد الورع التقي وهذه شهادة تلميذه الحافظ أبي عمر بن علي البزار رحمه الله. قال في بيان عبادته وورعه: -

قال أما تعبّده رضي الله عنه فإنه قَلَّ أنْ سُمعَ بمثله، لأنه كان قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيه، حتى إنّه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما يُرادُ له من أهل ولا من مال. وكان في ليلة متفرّداً عن الناس كلّهم، خالياً بربّه عزّ وعجلّ، ضارعاً، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم. مكرّراً لأنواع التعبّدات الليلية والنهاريّة. وكان إذا ذهب الليْل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنّها قبل إتيانه إليهم. وكان إذا أحرم بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة اتيانه بتكبيرة الاحرام. فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميد يمنةً ويُسرة. وكان إذا قرأ يمدّ قراءته مدّاً كما صحّ في قراءة رسول الله ﷺ. وكان ركوعه وسجوده وانتصابه عنهما من أكمل ما ورد في صلاة الفَرْض. وكان يُخِفُّ جلوسَه للتشهّد الأوّل خفّة شديدة، ويجهرُ بالتسمية الأولى حتى يسمعَ كلُّ مَنْ حضر. فإذا فرغ من الصلاة أثنى على الله عزّ وجلّ هو ومَنْ حضر بما ورد من

قوله "اللهم أنتَ السلام ومنك السلام. الحديث". ثم يُقبل على الجماعة، ثم يأتي بالتهليلات الواردات حينئذ. ثم يسبّحُ الله ويحمدُه ويكبّره ثلاثاً وثلاثين، ويختم المائة بالتهليل. كما أورد، وكذا الجماعة. ثم يدعو الله تعالى له ولهم وللمسلمين أجناس ما ورد.

وكان غالب دعائه "اللهم انصرْنا ولا تَنْصُر علينا، وأمكر لنا ولا تَمْكر علينا، وأهدِنا ويسِّرْ الهدى لنا. اللهم اجعلنا لك شاكرين، لك ذاكرين، إليك راغبين، لك مُخْبِتين، إليك راهبين، لك مطاويع. ربّنا تقبّل توباتنا، وأغسل حَوْباتنا، وثبّت حججنا، واهْد قلوبنا، واسلل سخيمةَ صدورنا" يفتتحه ويختمه بالصلاة على النبيّ ﷺ.

ثم يشرع في الذكر. وكان قد عُرِفَتْ عادتُه لا يُكلِّمُه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر. فلا يزال في الذكر يسمع نفسه، وربما يسْمَعُ ذكره من الروحانيّة، مع كوْنه في خلال ذلك يُكثر من تقليب بصره نحو السماء. هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس وتزول، وقتَ النهي عن الصلاة.

وكنتُ مدّة إقامتي بدمشق ملازمه جلَّ النهار وكثيراً من الليل. وكان يُدنيني منه حتى يُجلسني إلى جانبه. وكنتُ أسمع ما يتلو وما يذكر حينئذ. فرأيته يقرأ الفاتحة ويكرّرها، ويقطعُ ذلك الوقت كلّه، أعني من الفجر إلى ارتفاع الشمس في تكرير تلاوتها. ففكّرتُ في ذلك لِمَ قد لزم هذه السورة دون غيرها. فبان لي، والله أعلم، أنّ قصده بذلك أن يجمع بتلاوتها حينئذ بين ما ورد في الأحاديث وما ذكره العلماء: هل يستحبّ تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن أو العكس؟ فرأى رضي الله عنه أنّ في الفاتحة وتكرارها حينئذ جَمْعاً بين القولين، وتحصيلاً للفضيلَتَيْن. وهدا من قوة فطنته وثاقب بصيرته .

ثم إنه كان يركع، فإذا أراد سماع حديث في مكان آخر سارع إليه من فوره، مع من يصحبه. فقل أن يراه أحدٌ ممن له بصيرة إلا وأنكب على يديه فيقبلهما، حتى إنه كان إذا رآه أرباب المعايش يتخبطون من حوانيتهم للسلام عليه والتبرك به، وهو مع هذا يعطي كلا منهم نصيباً وافراً من السلام وغيره،

وإذا رأى منكراً في طريقه أزاله، أو سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها، أو تأسف على فواتها، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث، فصلى عليه. ثم يعود إلى مسجده، فلا يزال تارة في افتاء الناس، وتارة في قضاء حوائجهم حتى يُصلّي الظهر من الجماعة، ثم كذلك بقية يومه. وكان مجلسه عاماً للكبير والصغير، والجليل والحقير، والحر والعبد، والذكر والأنثى. وقد وسع كل من يرد عليه من الناس. يرى كلّ منهم في نفسه أن لم يكرم أحداً بقدره. ثم يصلّي المغرب، ثم يتطوّع بما يسره الله. ثم أقرأُ عليه من مؤلفاته أنا أو غيري، فيُفِدُنا بالطرائف، ويمدنا باللطائف، حتى يصلّي العشاء ثم بعدهما كما كنّا وكان: من الإقبال على العلوم إلى أن يذهب هوى من الليل طويل. وهو في خلال ذلك كله، في النهار والليل، لا يزال يذكر الله تعالى ويوحده، ويستغفره .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يرفع طَرْفَه إلى السماء، لا يكادُ يفتُر عن ذلك، كأنه يرى شيئاً يثبته بنظره. فكان هذا دأبه مدةَ إقامتي بحضرته. فسبحان الله ما أَقْصَرَ ما كانت! يا ليْتَها كانت طالت. ما مرَّ على عمري إلى الآن زمانٌ كان أحبَّ إليَّ من ذلك الحين، ولا رأيتني في وقتٍ أحسن حالاً منّي حينئذ، وما كان إلا ببركة الشيخ رضي الله عنه.

وكان في كل أسبوع يعودُ المرضى، خصوصاً الذين بالمارستان وأخبرني غير واحد ممن لا يُشكُّ في عدالته أنّ جميع زمن الشيخ ينقضي على من رأيتُه. فأيُّ عبادة واجتهاد أفضلُ من ذلك؟ فسبحان الموفّق من يشاء لما يشاء.

ورعه رضي الله عنه:

وكان رضي الله عنه في الغاية التي ينتهي إليها في الورع. لأن لله تعالى أجراه مدة عمره كلّها عليه. فإنه ما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة، ولا تجارة، ولا مشاركة، ولا زراعة، ولا عمارة. ولا كان ناظراً مُباشراً لمال وقف، ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر،

ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً، وإنما كانت بضاعته مدة حياته، وميراثه بعد وفاته، رضي الله عنه، العلم اقتداء بسيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، فإنه قال: "إن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظٍ وافر".

وكان ينبّه العاقل بحسن الملاطفة ورقيق المخاطبة ليختار لنفسه طريقتهم، ويسلك سبيلهم. وإن كان دونها من الطرائق من اتخاذ المباحات جائز، لكن العاقل يدله عقله على طلب الأعلى. فانظر بعين الانصاف إلى ما وفق الله له هذا الإمام وأجرى، مما أقعد عنه غيره وخذله عن طلبه، ولكن لكل شيء سبب، وعلامة عدم التوفيق سلب للأسباب. ومن أعظم الأسباب لترك فضول الدنيا التخلي عن غير الضروري منها، فلما وفق الله هذا الإمام لرفض غير الضروري منها انصبت عليه العواطف الإلهية فحصل بها كل فضيلة جليلة، بخلاف غيره من علماء الدنيا، مختاريها وطالبيها والساعين لتحصيلها، فإنهم لما اختاروا ملاذها وزينتها ورياستها انسدت عليهم غالباً طرق الرشاد فوقعوا في شركها يخبطون خبط عشواء، ويحطبونها كحاطب ليل، لا يبالون ما يأكلون ولا ما يلبسون ولا ما يتأوّلون إلا ما يحصل لهم أغراضهم الدنيئة ومقاصدهم الخبيثة الخسيسة، فهم متعاضدون على طلبها متحاسدون بسببها، أجسامهم ميتة، وقلوبهم من غيرها فارغة، وظواهرهم مزخرفة معمورة، وقلوبهم خربة مأبورة. ولم يكفهم ما هم عليه حتى أصبحوا قالين رافضها، معادين باغضها. ولما رأوا هذا الإمام عالم الآخرة، تاركاً هم عليه من تحصيل الحطام من المشتبه الحرام، رافضاً الفضل المباح فضلاً عن الحرام، تحققوا أن أحواله تفضح أحوالهم وتوضح خفي انفعالهم، وأخذتهم الغيرة النفسانية على صفاتهم الشيطانية، المباينة لصفاته الروحانية. فحرصوا على الفتك به أين ما وجدوا، وأنسوا أنهم ثعالب وهو أسد. فحماه الله تعالى منهم بحراسته، وصنع له غير مرة كما صنع لخاصته، وحفظه مدة حياته وحماه، ونشر له عند وفاته علماً في الأقطار بما والاه. انتهى (الاعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام تيمية ص ٣٧ - ٤٣).

الباب الرابع

ابن تيمية: العالم المبتلي والإمام الممتحن

وكان لا بد لإمام للناس، وقدوة للعالمين في زمانه أن يمتحن ويبلى.. إلا تنظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٤].

فهل كان إماماً للناس بعد أن ابتلاه الله بأن يقول الحق لا يخاف في الله لومة لائم ويحطم الأصنام ويجادل قومه والنمرود في باطلهم، ويطرد من بلده ويهاجر ويؤمر بذبح ابنه.. باختصار لا إمامة إلا بعد بلاء..

وهذا ما كان من شأن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فكان والبلاء صاحبين لا يفترقان، وكيف لا وهو القائم بأمر الله الداعي إلى سبيل الله، المجاهد أهل الشر جميعاً على اختلاف طوائفهم في ذات الله. متفرغاً فلا زوجة ولا ولد ولا ضيعة ولا تجارة، بل ولا وطن ولا إقامة بل رحيل دائم في الله، ولذلك كان بلاؤه على قدر منزلته من العلم والعمل والا بماذا كما قال رسول الله ﷺ: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه شدة زيد له في البلاء". متفق عليه.

وتفاصيل البلاء التي تعرض لها شيخ الإسلام ابن تيمية شيء طويل جداً. فما كان رضي الله عنه ينتهي من محنة إلا ليدخل في أخرى ولا يخرج من سجن إلا ليوضع في آخر حتى مات مسجوناً آخر عمره، ولا ينتهي من قتال مع طائفة باغية إلا ويدخل قتالاً آخر.. وقد جمع الإمام ابن رجب الحنبلي خلاصة للفتن التي تعرض لها ابن تيمية فيقول: -

الابتلاءات التي ابتلي بها الشيخ رضي الله عنه:

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله المتوفي سنة ٧٩٥هـ

وأما محن الشيخ: فكثيرة، وشرحها يطول جداً.

وقد اعتقله مرة بعض نواب السلطان بالشام قليلاً، بسبب قيامه على نصراني سب الرسول ﷺ، واعتقل معه الشيخ زين الدين الفاروقي، ثم أطلقهما مكرمين.

ولما وصف المسألة "الحموية" في الصفات: شنع بها جماعة، ونودي عليها في الأسواق على قصبة، وأن لا يستفتي من جهة بعض القضاة الحنفية، ثم انتصر للشيخ بعض الولاة، ولم يكن في البلد حينئذ نائب، وضرب المنادي وبعض من معه، وسكن الأمر.

ثم امتحن سنة خمس وسبعمائة بالسؤال عن معتقده بأمر السلطان؟ فجمع نائبه القضاه والعلماء بالقصر، وأحضر الشيخ، وسأله عن ذلك؟ فبعث الشيخ من أحضر من داره "العقيدة الواسطية" فقرأوها في ثلاث مجالس، وحاققوه، وبحثوا معه، ووقع الاتفاق بعد ذلك على أن هذه عقيدة سنية سلفية، فمنهم من قال ذلك طوعاً، ومنهم من قاله كرها.

وورد بعد ذلك كتاب من السلطان فيه: أنما قصدنا براءة ساحة الشيخ، وتبين لنا أنه على عقيدة السلف.

ثم ان المصريين دبروا الحيلة في أمر الشيخ، ورأوا أنه لا يمكن البحث معه، ولكن يعقد له مجلس، ويدعي عليه، وتقام الشهادة. وكان القائمون في ذلك منهم: بيبرس الجاشنكير، الذي تسلطن بعد ذلك، ونصر المنجى وابن مخلوف قاضي المالكية، فطلب الشيخ على البريد إلى القاهرة، وعقد له ثاني يوم وصوله - وهو ثاني عشرين رمضان سنة خمس وسبعمائة - مجلس بالقلع، وادعى عليه عند ابن مخلوف قاضي المالكية، أنه يقول: إن الله تكلم بالقرآن بحرف وصوت، وأنه على العرش بذاته، وأنه يشار إليه بالإشارة الحسية.

وقال المدعي: أطلب تعزيزه على ذلك، التعزيز البليغ- يشير إلى القتل على مذهب مالك/ فقال القاضي: ما تقول يا فقيه؟ فحمد الله وأثنى عليه، فقيل له: أسرع ما جئت لتخطب، فقال أأُمنع من الثناء على الله تعالى؟ فقال القاضي: أجب، فقد حمدت الله تعالى. فسكت الشيخ، فقال: أجب. فقال الشيخ له: من هو الحاكم فيّ؟ فأشاروا: القاضي هو الحاكم، فقال الشيخ لابن مخلوف: أنت خصمي، كيف تحكم فيّ؟ وغضب، ومراده: إني وإياك متنازعان في هذه المسائل، فكيف يحكم أحد الخصمين على الآخر فيها؟ فأقيم الشيخ ومعه أخواه، ثم رد الشيخ، وقال: رضيت أن تحكم فيَّ، فلم يمكن من الجلوس، ويقال: إن أخاه الشيخ شرف الدين ابتهل، ودعا الله عليهم في حال خروجهم، فمنعه الشيخ، وقال له: بل قل: اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق.

ثم حبسوا في برج أياما، ونقلوا إلى الجب ليلة عيد الفطر، ثم بعث كتاب سلطاني إلى الشام بالحط على الشيخ، وألزم الناس - خصوصاً أهل مذهبه - بالرجوع عن عقيدته، والتهديد بالعزل والحبس، ونودى بذلك في الجامع والأسواق. ثم قرئ الكتاب بسدة الجامع بعد الجمعة، وحصل أذى كثير للحنابلة بالقاهرة، وحبس بعضهم، وأخذ خطوط بعضهم بالرجوع. وكان قاضيهم الحراني قليل العلم.

ثم في سلخ رمضان سنة ست: أحضر سلار - نائب السلطان بمصر - القضاة والفقهاء، وتكلم في إخراج الشيخ، فاتفقوا على أنه يشترط عليه أمور، ويلزم بالرجوع عن بعض العقيدة، فأرسلوا إليه من يحضره، وليتكلموا معه في ذلك، فلم يجب إلى الحضور، وتكرر الرسول إليه في ذلك ست مرات، وصمم على عدم الحضور، فطال عليهم المجلس، فانصرفوا من غير شيء.

ثم في آخر هذه السنة وصل كتاب إلى نائب السلطنة بدمشق من الشيخ، فأخبر بذلك جماعة ممن حضر مجلسه، وأثنى عليه: وقال: ما رأيت مثله، ولا أشجع منه. وذكر ما هو عليه في السجن: من التوجه إلى الله تعالى، وأنه

لا يقبل شيئاً من الكسوة السلطانية، ولا من الأدرار السلطاني، ولا تدنس بشيء من ذلك.

ثم في ربيع الأول من سنة سبع وسبعمائة دخل مهنا بن عيسى أمير العرب إلى مصر، وحضر بنفسه إلى السجن، وأخرج الشيخ منه، بعد أن استأذن في ذلك، وعقد للشيخ مجالس حضرها أكابر الفقهاء، وانفصلت على خير.

وذكر الذهبي والبزالي وغيرهما: أن الشيخ كتب لهم بخطه مجملاً من القول وألفاظاً فيها بعض ما فيها، لما خاف وهدد بالقتل، ثم أطلق وامتنع من المجيء إلى دمشق. وأقام بالقاهرة يقرئ العلم، ويتكلم في الجوامع والمجالس العامة، ويجتمع عليه خلق.

ثم في شوال من السنة المذكورة: اجتمع جماعة كثيرة من الصوفية، وشكوا من الشيخ إلى الحاكم الشافعي، وعقد له مجلس لكلامه في ابن عربي وغيره، وادعى عليه ابن عطاء (هو ابن عطاء الله السكندري الصوفي صاحب الحكم). بأشياء، ولم يثبت منها شيئاً، لكنه اعترف أنه قال: لا يستغاث بالنبي ﷺ، استغاثة بمعنى العبادة، ولكن يتوسل به، فبعض الحاضرين قال: ليس في هذا شيء.

ورأى الحاكم ابن جماعة: أن هذا إساءة أدب، وعنفه على ذلك، فحضرت رسالة إلى القاضي: أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة في ذلك، فقال القاضي: قد قلت له ما يقال لمثله.

ثم إن الدولة خيروه بين أشياء، وهي الإقامة بدمشق، أو بالإسكندرية، بشروط، أو الحبس، فاختار الحبس. فدخل عليه أصحابه في السفر إلى دمشق، ملتزماً ما شرط عليه، فأجابهم، فأركبوه خيل البريد، ثم ردوه في الغد، وحضر عند القاضي بحضور جماعة من الفقهاء، فقال له بعضهم: ما ترضى الدولة إلا بالحبس. فقال القاضي: وفيه مصلحة له، واستناب التونسي المالكي وأذن له أن يحكم عليه بالحبس، فامتنع، وقال: ما ثبت عليه شيء، فأذن لنور الدين الزواوي المالكي، فتحير، فقال الشيخ: أنا أمضي إلى

الحبس، وأتبع ما تقتضيه المصلحة، فقال الزواوي المذكور: فيكون في موضع يصلح لمثله، فقيل له: ما ترضى الدولة إلا بمسمى الحبس، فأرسل إلى حبس القاضي وأجلس في الموضع الذي أجلس فيه القاضي تقي الدين ابن بنت الأعز لما حبس، وأذن أن يكون عنده من يخدمه. وكان جميع ذلك بإشارة نصر المنبجي.

واستمر الشيخ في الحبس يستفتي ويقصده الناس، ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة من الأمراء وأعيان الناس.

وكان أصحابه يدخلون عليه أولاً سراً، ثم شرعوا يتظاهرون بالدخول عليه، فأخرجوه في سلطنة الششنكير الملقب بالمظفر، إلى الإسكندرية على البريد، وحبس فيها في برج حسن مضيء متسع، يدخل عليه من شاء ويمنع هو من شاء، ويخرج إلى الحمام إذا شاء. وكان قد أخرج وحده، وأرجف الأعداد بقتله وتفريقه غير مرة، فضاقت بذلك صدور محبيه بالشام وغيره، وكثر الدعاء له. وبقي في الإسكندرية مدة سلطنة المظفر.

فلما عاد الملك الناصر إلى السلطنة وتمكن، وأهلك المظفر، وحمل شيخه نصر المنبجي، واشتدت موجدة السلطان على القضاة لمداخلتهم المظفر، وعزل بعضهم: بادر بإحضار الشيخ إلى القاهرة مكرماً في شوال سنة تسع وسبعمائة، وأكرمه السلطان إكراماً زائداً، وقام إليه، وتلقاه في مجلس حفل، فيه قضاة المصريين والشاميين، والفقهاء وأعيان الدولة. وزاد في إكرامه عليهم، وبقي يسارّه ويستشيره سويعة، وأثنى عليه بحضورهم ثناء كثيراً، وأصلح بينه وبينهم. ويقال: إنه شاوره في أمرهم به في حق القضاة، فصرفه عن ذلك، وأثنى عليهم، وأن ابن مخلوف كان يقول: ما رأينا أتقى من ابن تيمية، سعينا في دمه. فلما قدر علينا عفا عنا.

واجتمع بالسلطان مرة ثانية بعد أشهر، وسكن الشيخ بالقاهرة، والناس يترددون إليه، والأمراء والجند، وطائفة من الفقهاء، ومنهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع.

قال الذهبي: وفي شعبان سنة إحدى عشرة: وصل النبأ: أن الفقيه البكري - أحد المبغضين للشيخ - استفرد بالشيخ بمصر، ووثب عليه، ونتش بأطواقه، وقال: أحضر معي إلى الشرع، فلي عليك دعوى، فلما تكاثر الناس انملص، فطلب من جهة الدولة، فهرب واختفى.

وذكره غيره: أنه ثار بسبب ذلك فتنة، وأراد جماعة الانتصار من البكري فلم يمكنه الشيخ من ذلك.

واتفق بعد مدة: أن البكري همّ السلطان بقتله، ثم رسم بقطع لسانه (أي أمر بقطع لسانه فانظر كيف رد الله كيد البكري في نحره)، لكثرة فضوله وجراءته، ثم شفع فيه، فنفي إلى الصعيد، ومنع من الفتوى بالكلام في العلم. وكان الشيخ في هذة المدة يقرئ العلم، ويجلس الناس في مجالس عامة.

قدم إلى الشام هو وإخوانه سنة اثنتي عشرة بنية الجهاد، لما قدم السلطان لكشف التتر عن الشام. فخرج مع الجيش، وفارقهم من عسقلان، وزار البيت المقدس.

ثم دخل دمشق بعد غيبته عنها فوق سبع سنين، ومعه أخواه وجماعة من أصحابه، وخرج خلق كثير لتلقيه، وسر الناس بمقدمه، واستمر على ما كان عليه أولاً، من اقراء العلم، وتدريسه بمدرسة السكرية والحنبلية، وافتاء الناس ونفعهم.

ثم في سنة ثمان عشرة: ورد كتاب من السلطان بمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير (أي من حلف بالطلاق لا يلزمه وإنما يكفر كفارة يمين)، وعقد له مجلس بدار السعادة، ومنع من ذلك ونودى به في البلد.

ثم في سنة تسع عشرة عقد له مجلس أيضاً كالمجلس الأول، وقرئ كتاب السلطان بمنعه من على تأكيد المنع.

ثم بعد مدة عقد له مجلس ثالث بسبب ذلك، وعوتب وحبس بالقلعة. ثم

حبس لأجل ذلك مرة أخرى. ومنع بسببه من الفتيا مطلقا، فأقام مدة يفتي بلسانه، ويقول: لا يسعني كتم العلم (وقد عاد الناس اليوم بحمد الله إلى فتوى ابن تيمية هذه التي سجن فيها وأوذي مراراً).

وفي آخر الأمر: دبروا عليه الحيلة في مسألة المنع من السفر إلى قبول الأنبياء والصالحين، وألزموه من ذلك التنقص بالأنبياء، وذلك كفر، وأفتى بذلك طائفة من أهل الأهواء، وهم ثمانية عشر نفساً، رأسهم القاضي الإخناني المالكي وأفتى قضاة مصر الأربعة بحبسه، فحبس بقلعة دمشق سنتين وأشهراً. وبها مات رحمه الله تعالى.

وقد بين رحمه الله: أن ما حكم عليه به باطل بإجماع المسلمين من وجوه كثيرة جداً، وأفتى جماعة بأنه يخطئ في ذلك خطأ المجتهدين المغفور لهم، ووافقه جماعة من علماء بغداد، وغيرهم. وكذلك ابنا أبي الوليد شيخ المالكية بدمشق أفتيا: أنه لا وجه للاعتراض عليه فيما قاله أصلاً، وأنه نقل خلاف العلماء في المسألة، ورجح أحد القولين فيها.

وبقي مدة في القلعة يكتب العلم ويصنفه، ويرسل إلى أصحابه الرسائل، ويذكر ما فتح الله به عليه في هذه المرة من العلوم العظيمة، والأحوال الجسيمة.

وقال: قد فتح الله علي في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء، كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن، ثم إنه منع من الكتابة، ولم يترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر.

قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، ونور ضريحه، يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل الآخرة. قال: وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي، لا تفارقني، أنا حبسي خلوة. وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل

عندي شكر هذه النعمة - أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا إلي فيه من الخير - ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده، وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله.

وقال مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه، وقال (٥٧ : ١٣ فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب).

قال شيخنا: وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض: أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها ا هـ (الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ص ٣٩٦ إلى ٤٠٣ نشر دار المعرفة).

ابن تيمية والعفو عند المقدرة:

وقد يظن ظان أن ابن تيمية وقد ابتلى بهذه الابتلاءات جميعاً فكر يوماً ما أن ينال من مسلم آذاه أو وشى به حاشا وكلا لقد كان دائماً ذا نفس أبية لم ينتقم يوماً لنفسه مع قدرته ممن آذاه وألب عليه.

* حدث ابن عبد الهاي عن شيخ السلام أن سلطان مصر الناصر ابن قلاوون استقدم الشيخ عنده ورحب به أخرج له من جيبه فتاوي لبعض علماء مصر الذين أفتوا بقتل ابن تيمية، واستفتى السلطان ابن تيمية في أن يقتل بعضهم ممّن زد رواعه زوروا على ابن تيمية وأفتوا في قتله. قال الشيخ ابن

تيمية " ففهمتَ مقصود السلطان ابن قلاوون وعلمت أن عنده حنقاً شديداً عليهم لأنهم كانوا قد خلعوه وبايعوا ركن الدين بيبرس الجاشنكير يقول ابن تيمية فشرعت في مدح هؤلاء العلماء وشكرهم، وأنهم لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، وأما أنا فهم في حلٍ من حقي ومن جهتي".

قال ابن تيمية فكان القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكنا في السعي لقتله إلا وفعلناه، ولما قدر هو علينا عفى عنا" اهـ. (العقود الدرية لابن عبد الهادي ص ٢٨١ - ٢٨٣).

الباب الخامس

ابن تيمية وشهادات العلماء المعاصرين

كتب علماء معاصرون كثيرون لا أستطيع أن أحصيهم في هذه الرسالة الموجزة السريعة وكلهم أطبقوا كما ذكرت في أول الرسالة أن العالم في القرن الثامن كان ينتظر خروج هذا الرجل لحاجة الأمة الى تجديد الدين، وازالة الركام الذي القاه الظالمون والمنتحلون.. وكان هذا الذي ذكره العلماء المحدثون هو أيضاً ما أطبق عليه العلماء الذين عاصروا ابن تيمية وعايشوه. ولكن المعاصرين الآن من أهل الدين والفهم وممن له اشتغال بالدعوة والجهاد والعلم يرون أنه ما أشبه اليوم بالبارحة، وانه ما أحوج العالم اليوم إلى ابن تيمية ليجدد لهذه الأمة شبابها، ويعلي للتوحيد مناره، وللإسلام الحق ركنه وفخاره.

وأقول الحمد لله نحن اليوم نعيش عصر ابن تيمية فرجال الدعوة المخلصون، وشباب الأمة العاملون ملهمهم وامامهم وقدوتهم هو ابن تيمية، ومرجعهم هو كتبه ومؤلفاته، وأقواله ونظرياته.

وان التجديد الحادث اليوم لدين الأمة هو بفضل الله أولا ثم بفضل الذين تتلمذوا على كتب هذا الإمام الجليل، وتضلعوا من علمه الغزير وغاصوا في بحره الواسع وهآنذا أذكر طائفة من شهادات بعض العلماء المعاصرين.

* حاجة الأمة إلى ابن تيمية:

شهادة الشيخ أبي الحسن الندوي

كتب الشيخ أبو الحسن الندوي كتاباً مطولاً عن ابن تيمية يقع في نحو ثلاثمائة وخمسين صفحة وكان منه هذه المقدمة الرائعة التي يصف فيها حاجة المسلمين في القرن الثامن إلى ظهور هذا الإمام الذي كان لا بد من ظهوره لإعادة استثارة العالم من جديد بعد أن غطاه الظلام.

كتب حفظه الله يقول:

"ظهر علم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصرة الدين، وكان ذلك أمراً لازماً، غير أنه تأثر بالفلسفة وتسربت إليه روحها حتى تكونت "فلسفة دينية" تنتهج نفس المنهج، وتبحث نفس الموضوع وتتبع نفس الأسلوب للبحث والاستدلال، وتعيد نفس الخطأ في اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل أموراً عقلية يمكن اثباتها عن طريق العقل، وكذلك تسيطر عليه روح عدم الاقتناع بما جاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من شرح وتعبير في هذا الموضوع واستخدم مصطلحات يونانية تقوم على علم محدود ناقص وتثير شبهات، الأمر الذي دعا إلى تعقد القضايا وتوسعها بل أن تنحل أو تختصر، ووجدت "فلسفة الهية" وكتب ضخمة في شرح العقائد إزاء أسلوب مقنع مؤثر كان جديراً بشحن النفوس بالإيمان والإذعان، واقناع العقول في كل زمان، وكان مؤسساً على نصوص الكتاب والسنة.

وكانت هذه الفلسفة الإلهية الجديدة قد تاثرت بالفكر اليوناني رغم أنها ظهرت ضد الفلسفة اليونانية، فكانت روح الكتاب والسنة تحتج دائماً على هذا الموضوع ووجدت طبقة وجيهة للأمة الإسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتآويل الكلامية، غير أن الحاجة إلى عالم كبير نافذ البصيرة، واسع العلم، قوي الإيمان كانت أكيدة لشرح الكتاب والسنة والتعبير القوي المؤثر عنهما، ذلك الذي يعتقد أجزم الاعتقاد أن في نصوص الكتاب والسنة حول

ذات الله وصفاته وفي تعبيراتها عنها غنى وكفاية تامة، ذلك العالم الذي يتوصل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة ويطلع على خباياها وكوامنها، ويتمكن من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي، بما عنده من علم بموضع ضعفها الأساسية، ذلك الذي قد تعمق بتفكيره فوصل إلى أغوار علم الكلام واطلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الاسلامية ولا يخفى عليه شيء من تاريخ علم الكلام ونموه، ذلك الرجل الذي يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزاز بنصوص الكتاب والسنة ومذهب السلف بفضل دراسته وتجاربه، يفيض عزماً وحماساً بنصرته وشرحه، ويعيش على حسك السعدان لكي يثبت رجحان مذهب السلف وفضله من الناحية العقلية على غيره من الفلسفات والنظم العقلية، كما يكون متمتعاً بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التي يتطلبها هذا العمل العظيم ومتميزاً في ذكائه وقوة بيانه واستدلاله وسعة نظره وعمق دراسته عن يره، يكون فوق مستوى عصره وكفوا للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة.

في مواجهة المسيحية، ونقدها العلمي:

هذا وقد كان الإسلام هدفا للهجمات الداخلية والخارجية بجانب آخر، وكان المسيحيون قد تحمسوا لاثبات أن المسيحية هي الدين الحق، وتوجيه الايرادات إلى الاسلام، إن الهجوم الصليبي المتتابع ووجود عدد وجيه من مسيحي الغرب في الشام وقبرص شجعهم على مواجهة المسلمين في المجال العلمي وعلى تأليف كتب تثبت فضل دينهم وأخرى ترفض نبوة محمد ﷺ.

وللرد على كل ذلك كانت الحاجة ملحة إلى عالم كبير ومتكلم، له دراسة عميقة في المسيحية والديانات الأخرى وله اطلاع واسع على الصحف السماوية وما واجهته من تغيير وتحريف ويستطيع أن يحسن المقارنة بين الديانات ويثبت فضل الإسلام وخلوده في أسلوب علمي مؤثر قوي، ويتمكن من دعوة أتباع الديانات الأخرى الى الإسلام بحكمة وقوة.

فضح المذاهب المنحرفة والحركات الهدامة:

وقد كان أشد وأكثر خطورة من هذه الهجمات حملة شنها فرقة إسلامية دخيلة على الإسلام وهي الفرقة الباطنية التي كانت ديانتها وتعاليمها مجموعة عجيبة للعقائد المجوسية والأفكار الأفلاطونية والغأراض السياسية، وقد كانت هذه الفرقة وفروعها المختلفة من الإسماعيلية والحشاشية والدروزية والنصيرية تتعاون مع القوى العدوانية والمهاجمين الأجانب على الإسلام، وهي التي مهدت الطريق ودبرت المؤامرات للهجوم على القأطار الإسلامية وساعدت الصليبيين في شن هجومهم على الشام وذلك ما جعل الصليبيين عند استيلائهم على الشام أن قربوا رجال الفرقة الباطنية وجعلوهم موضع ثقتهم ونجواهم وأحسنوا إليهم، اعترافاً بمساعداتهم المخلصة، وقد ظل هؤلاء الباطنيون مشتغلين بتبييت المؤامرات وتدبير الثورات في عهدي صلاح الدين ونور الدين فلما قصد وحوش التتر أرض الشام بهجماتهم العنيفة ساعدهم الباطنيون علناً وجهاراً، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ، وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشر اضطراب فكري وتشاؤم بالدين وإلحاد وزيغ وثورة على الدين وكانوا "كالطابور الخامس" في حصن المسلمين الديني.

كل ذلك كان يحتم على المسلمين أن يقتلعوا جذور هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها ليطلع المسلمون على نواياها ويعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائية ومحاربتها للإسلام ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا من له اطلاع تام على حقيقة هذه الفرقة وأسرارها وتاريخها، وله معرفة بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها مع قدرته البالغة على تناولها بالرد والنقد، مضافاً إلى ذلك حماسه الزائد للإسلام ودافعه القوي للجهاد مع أعداء الإسلام.

محاربة العقائد، والأعمال الشركية، والدعوة إلى الدين الخالص:

هذا وكانت الجماهير المسلمة فريسة العقائد الباطلة وأعمال الشرك

بضغط عوامل عديدة منها اختلاطهم بغير المسلمين، وتأثير العجم، وتهاون العلماء، وقد أصبح الدين الخالص والتوحد النقي وراء حجاب وحجاب، ونشأ الغلو والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى، حتى بدأت عقيدة التوسط والتقرب بالأولياء ترسخ، وينطبق عليهم ما حكاة القرآن من قول مشركي العرب الأولين "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" وتنتشر هذه الفكرة الجاهلية في أوساط المسلمين وأصبح كثير من العلماء لا يرون بأساً في الاستغاثة بغير الله والاستعانة به، واتخذت قبور الأنبياء والصالحين مساجد وتحقق الخطر الذي كان قد أنذر به النبي ﷺ وشدد النهي عنه، ولم يكن المسلمون يشعرون بأي غضاضة في التخلق بأخلاق الذميين والكافرين واتخاذ شعائرهم وخصائصهم والحضور في أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم واصطناع تقاليدهم وعاداتهم.

فكانت الحاجة ماسة إلى عالم مجاهد يتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشتركة والدعوة إلى التوحيد الخالص بكل قوة وايضاح ويكون عارفاً بالفرق بين التوحيد والشرك معرفة دقيقة، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنعت وتنكرت أو ظهرت في مظاهر، ويكون قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرة من الكتاب والسنة وحياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم لا من كتب المتأخرين وتعامل المسلمين الجهلاء، وتقاليد الزمان وعادات الناس، ولا يبالي في الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضة الحكومات وعداوة الناس ومخالفة العلماء ولا يخاف في ذلك لومة لائم، ويكون ذا نظر دقيق وعلم واسع بالكتاب والسنة ومصادر الدين الأولى الموثوق بها، وبأحوال القرن الأولى، وذا اطلاع كامل على تاريخ اليهود والنصارى وقصة انحرافهم ومسخهم وتحريفهم، وعلى عقلية الأمم الجاهلية ونفسيتهم، ويعيش في تأمل وقلق لكي يعيد المسلمين إلى تعاليم القرآن وعقيدة الصدر الأول ويراهم منتهجين طريق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأتباعهم.

محاربة الانحرافات والمغالطات في الطوائف الدينية وتنقية الدين من الشوائب:

وقد تسرب إلى متصوفين - لأسباب تاريخية وعلمية عديدة - تأثير الفلسفة الاشراقية التي جاءت من يونان والهند، وامتزجت بالعقائد الإسلامية وأفكارها امتزاجاً لا يتسنى لكل واحد فصلها عنها، ان إشراقية الأفلاطونية الجديدة أو تنسك الهنود، وعقيدة الحلول والاتحاد، ومذهب وحدة الوجود، وتقسيم الظاهر والباطن، وفتنة الرموز والأسرار، والعلم الدفين، وسقوط التكاليف الشرعية عن "الكاملين" و"الواصلين" واستنثناؤهم عن الأحكام الشرعية كل ذلك كانت معتقدات وأفكاراً نالت اعجاب طبقة كبيرة من المتصوفين، وبالرغم من انكار أصحاب التحقيق والرسوخ في العلم من هذه الطائفة في كل زمان لهذه المعتقدات الفاسدة كانت طبقة من المتصوفين تلح عليها، حتى تسفل بعض فروع التصوف وسلاسله إلى حد الشعوذة والتهويل، ولا سيما بعض فروع السلسلة الرفاعية التي انحرفت في العهد الأخير (للأسف إن بعد المعاصرين من الرفاعية ما زالوا يفتخرون بمثل هذه الأعمال الشيطانية) عن أصلها وتعاليم مؤسسها الكبير وآثر كثير من رجالها الذين لم ترسخ قدمهم في العلوم الشرعية والعقائد الإسلامية الأعمال البهلوانية، زاعمين أنها تؤثر في عقول المغول والتتار وترغبهم في الإسلام، وكان ذلك ضرر عظيم على سلامة العقيدة ومكانة الشريعة وقد استفحلت هذه الفتنة في القرنين السابع والثامن، ووقع العامة وكثير من الخاصة فريسة هذه المغالطات.

ولقمع هذا الخطر الناجم أيضاً والحفاظ على الشريعة كانت الحاجة شديدة إلى مؤمن قوي، ومصلح جريء يتناول هذه الطوائف المنحرفة بالنقد اللاذع ويكشف القناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكل حرية وجراءة، معرضاً عن صولتها وقوتها، وغير مبال بعدد أتباعها ونفوذهم.

تجديد الفكر الإسلامي:

وكانت الحلقات العلمية والتدريسية مصابة بجمود شديد، فكل طائفة تعتبر الخروج عن دائرتها الفقهية قيد شعرة جريمة لا تغتفر، وكان مألوفاً لدى كل طائفة أن ترى إلى الكتاب والسنة بمنظار مذهبها الفقهي، وتحاول تطبيق الكتاب والسنة في الخلافات الفقهية على آرائها في كل حال فضلاً عن تحكيمها فيها، وكان باب الترجيح والاختيارات الفقهية مغلقاً عملياً، وكانت مشكلات حديثة وقضايا جديدة قد حدثت مع تغير الزمان والأحوال، الأمر الذي كان يحتاج إلى ارشاد المسلمين فيها والبحث عن حلولها إلى رجل يجمع بين سعة النظر في ذخائر الفقه الإسلامي، والتعمق في الكتاب والسنة والإطلاع على تعامل القرون الأولى، والعلم العميق الدقيق بأصول الفقه، وقد كان يتضايق مجال العلم والنظر والدراسة على مر الزمان وتضمحل القوى الفكرية، ولم يكن عالم من علماء الإسلام يتجرأ على استنباط الأحكام الجديدة وكان الفقه الإسلامي قد فقد جدارة النمو والتقدم، ويعتبر من المستحيل أن يزداد إلى ثروة الفقه القديمة أي زيادة.

فكان إصلاح هذا الوضع كذلك يحتاج إلى محدث فقيه وأصولي ضليع يكون قد استعرض ذخائر المكتبة الإسلامية بأسرها ويستحضر الكتاب والسنة بحيث يحير الناس، ويعرف الحديث وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفة دقيقة تضطر الناس إلى الاعتراف بمكانته في صناعة الحديث، حتى يقولوا: "إن الحديث الذي لا يعرفه هذا الرجل ليس حديثاً" (من الأقوال التي قالها كبار علماء العصر في شيخ الإسلام ابن تيمية كما سيأتي. قلت قاله تلميذه الذهبي). ويكون مستحضراً لخلافات الفقهاء ومراجعهم ودلائلهم في كل حين، كما يكون له اطلاع تام على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثر من أصحاب الاختصاص فيها والمنقطعين إليها من أهل المذهب، ولا يتعدى حدود السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه، عارفاً بمكانة الأئمة المجتهدين وفضلهم وحقهم ومتطفلاً على موائد علمهم ودينهم، ويكون ذا قدم راسخة في

علوم اللغة وباع طويل فيها حتى تأهل لذلك للنقد والصيرفة في مجالها، يجمع إلى ذلك علو الكعب ودقة النظر في النحو حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطائهم الفنية، ويجدد بقوة عارضته عهد المحدثين الأولين، يعتبر ذكاؤه آية من آيات الله وعلمه دليلاً على فضل الله، ويبرهن بشخصيته على خصوبة تربة الأمة الإسلامية وغضارة دوحة الإسلام، ونضارة العلوم الإسلامية ونموها وازدهارها، ويكون تصديقاً لما جاء في حديث النبي ﷺ من قولته الخالدة. "مثل أمتي مثل المطر، لا يدري أوله خير أم أخره (رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه)".

جامع بين العلم والعمل، والسيف والقلم:

ويكون مع ذلك من فرسان العمل والكفاح، ويجمع بين القلم والسيف، جريئاً على الملوك في الصدع بالحق، لا يحجم عن قيادة الجيش الإسلامي أمام أضرى عدد ومثل الوحوش التتر، ويعرفه كل من حلق الدرس، وزوايا المكتبات، وخلوات المساجد، ومجالس المناظرة، ومعتقلات السجون، وساحات الحرب كفارس عظيم ورجل ذي شكيمة، مبجلاً في كل عين ومعترفاً بإمامته في كل طبقة.

كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل الذي يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة أو تتركز على جانب واحد، كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاط وحياة تحركات علمية وعملية لا تزال آثارها خالدة باقية على مر القرون والأجيال.

٢- شهادة الشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله: -

وكتب الشيخ محمد أبي هرة ترجمة مستفيضة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وفي مقدمتها يبين الباعث له على هذه الترجمة فيقول: -

أ- الفقيه الذي اتصل بالحياة وتعلق قلبه بالكتاب والسنة:

برز إلى الخاطر إمام شغل عصره بفكره ورأيه ومسلكه، فدوى صوته بأرائه في مجتمعه، فتقبلتها عقول واستساغتها، وضاقت عنها أخرى وردتها، وانبرى لمنازلته المخالفون، وشد أزره الموافقون، وهو في الجمعين يصول ويجول، ويجادل ويناضل، والعامة من وراء الفريقين قد سيطر عليهم الإعجاب بشخصه وبيانه، وقوة جنانه وحدة لسانه، واعترتهم الدهشة لما يجيء به من آراء يجدد بها أمر هذه الأمة، ويعيد إليها دينها غضاً قشيباً كما ابتدأ.

ذلكم الإمام الجريء هو تقي الدين بن تيمية صاحب المواقف المشهودة، والرسائل المنضودة، اتجهت لدراسته مستعيناً بالله سبحانه، لأن دراسته دراسة لجيل، وتعرف لقبس من النور أضاء في دياجير الظلام، ولأن آراءه في الفقه والعقائد تعتنقها الآن طائفة من الأمة الإسلامية تأخذ بالشريعة في كل أحاكمها وقوانينها، ولأننا نحن المصريين في قوانين الزواج والوصية والوقف قد نهلنا من آرائه، فكثير مما اشتمل عليه القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ مأخوذ من آرائه، مقتبس من اختياراته، وشروط الواقفين والوصايا اقتبست أحاكمها في قانوني الوقف والوصية من أقواله.

ثم إن دراسة ذلك الإمام الجليل تعطينا صورة للفقيه قد اتصل بالحياة، وتعلق قلبه وعقله وفكره بالكتاب والسنة والهدي النبوي، والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فهو يأتي بفكر سلفي آخذ بأحكام القرآن الكريم، والسنة النبوية، يعالج به مشاكل الحياة الواقعة بالقسطاس المستقيم، بل يلقى في حقل الحياة العاملة الكادحة المتوثبة بالبذرة الصالحة التي استنبطها من الكتاب والسنة فتنبت الزرع، وتخرج الثمر، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وإنا وقد اتجهنا إلى دراسة ذلك العالم الكاتب الخطيب المجاهد الذي حمل السيف والسنان، كما حمل القلم والبيان، سنجتهد في دراسة حياته،

ومجاوبتها لروح عصره، وتأثيرها فيه، ثم ندرس آراءه كعالم من علماء الكلام وآراءه كفقيه، واجتهاده والأصول التي تقيد بها، ومقدار الصلة التي تربطه بالفقه الحنبلي.

وإنا نستعين بالله، ونسأله التوفيق، فإنه لولا توفيقه ما تيسر لنا أمر، ولا وصلنا إلى غاية، إنه نعم المولى ونعم النصير. ا هـ

(ب) لماذا درس ابن تيمية الفلسفة؟

ويشيد أبو زهرة بردود ابن تيمية على الفلاسفة، وبين لماذا درس الفلسفة ويعقد فصلا يقارن فيه بين دراسة ابن تيمية للفلسفة ودراسة الغزالي لها فيقول: -

درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها، ولكنه درسها ليهدمها، وهو قد رآها داء قد أصاب فكر المسلمين، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين، وأنها سرت إلى العقل الإسلامي فسيطرت على مساربه، ويروي أنه قبل أن يخوض في بيان العقيدة الإسلامية وموافقتها لصريح المعقول لا بد من ابعاد العناصر الفلسفية التي هي أخيلة وأوهام، كما يبعد عن الجسم الإنساني الأخلاط الضارة لتتم سلامته، فيقول في ذلك:

"لما كان بيان مراد الرسول في هذه الأبواب لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي، وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله. وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر به، إذ كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي ناقضه، بل يصير ذلك قدحاً في الرسول، وقدحاً فيمن استدل بكلامه، وصار هذا بمنزلة المريض الذي تكون به أخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء، فلا ينفعه مع وجود هذه الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات أو بعضها، أو نفي عموم خلقه لكل شيء وأمره ونهيه، أو امتناع المعاد أو ير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة، إلا مع

بيان فساد ذلك المعارض،وفساد المعارض قد يعلم جملة وتفصيلاً (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول المطبوع على هامش منهاج السنة ص٩ جـ١)".

الفرق بينه وبين الغزالي:

درس إذن ابن تيمية الفلسفة وما عند الفلاسفة، لا ليطلب الحقائق من ورائها، بل ليبين بطلان ما يعارض الدين منها، فهو آمن بما جاء به الرسول أولاً، ثم أراد أن ينفي عنه خبث الفلسفة، فدرس ذلك الخبث ليعرف حقيقته ثم ليبين بطلانه بعد معرفته.

وهو في هذا يفترق عن منهاج الغزالي رضي الله عنه، فهو قد درس الفلسفة ليطلب الحقيقة من ورائها، وخلص نفسه من كل شيء ليصل إلى الحق المستقيم، واعتبر الشك هو الطريق للوصول إلى الحق، ولكن تبين له بطلان ما يقوله الفلاسفة، فعاد إلى الدين، وأشرق في نفسه نور الحقائق في خلوات صوفية عرف فيها نفسه، ثم حمل حملته على الفلاسفة وبيّن تهافتهم.

ومع ذلك هل تجرد منها؟ إنه بقيت في نفسه أثارة منها، بل إنه لم يتركها إلا وقد تكون عقله تكوناً فلسفياً، وأخذ أحد شعب الفلسفة وجعله جزءاً من دراسته، وهو المنطق، فهو في مقدمة كتاب المستصفى في عالم الأصول، والذي يعد أحد دعائم على أصول الفقه الثلاثة (الكتب الثلاثة هي: المعتمد لأبي الحسين البصري، والبرهان لإمام الحرمين، والمستصفي للغزالي) يقرر أن الحقائق لا يمكن أن تعرف في أي علم من العلوم على وجهها إلا إذا كان المنطق ميزانها، ويقول في مقدمة كتاب المستصفى التي شرح بها علم المنطق إجمالاً ما نصه:

"نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان، ونذكر شرط الحد الحقيقي، وشرط البرهان الحقيقي، وأقسامها على منهاج أو جزء مما ذكرناه في كتاب محك النظر، وكتاب معيار العلم، وليست هذه المقدمة

من جملة علم الأصول، ولا من مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً (مقدمة المستصفى ص ١٠ الجزء الأول).

وهذا إيمان بشعبة من شعب الفلسفة عميق، فإن علم المنطق فرع من فروعها، بل لعله أعظم تراث تركه أرسطو من بعده.

هذا هو الفرق بين المقصد عند هذين العالمين من دراسة الفلسفة، وقد تأدى بالأول إلى نقضها، وتأدى بالثاني إلى اعتناق بعضها، لذا قال بعض تلاميذ الغزالي: إنه دخل في بطن الفلسفة، ولما أراد الخروج منها لم يستطيع. فكانت منه تلك المناهج الفلسفية التي سلكها في دراسة العقائد، ودراسة أصول الفقه، بل كان منه تلك الحيرة التي بدت في آرائه في الفلسفة والفلاسفة، فبينما تراه يحمل على الفلاسفة، ويبين تهافتهم، تراه يقبض قبضة من علومهم ويجعلها وحدها ميزان العلوم، ولذا قال ابن تمية فيه:

"كان أبو حامد ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة، وتكفيره لهم، وتعظيم النبوة وغير ذلك، ومع ما يوجد فيه من أشياء صحيحة حسنة، بل عظيمة القدر نافعة يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وأمور أضيفت توافق أصول الفلاسفة المخالفة للنبوة، بل المخالفة لصريح العقل، حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق والمغرب (شرح العقيدة الأصفهانية ص ١١٥) ".

ويقول فيه أيضاً:

"وأبو حامد لا يوافق المتفلسفة على كل ما يقولون، بل يكفرهم ويضللهم في موضع، وإن كان في الكتب المضافة إليه ما قد يوافق بعض أصولهم، بل في الكتب التي يقال إنها مضنونة بها على غير أهلها ما هو في الفلسفة مضنونة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان قد عبر عنها بعبارات إسلامية، لكن هذه الكتب في الناس من يقول إنها مكذوبة على أبي حامد، ومنهم من يقول: بل رجع عنها، ولا ريب أنه صرح في بعض المواضع ببعض ما قاله في هذه الكتب، وأخبر في المنقذ من الضلال، وغيره

في كتبه بما في هذه من الضلال (الكتاب المذكور ص ٤٩)".

ثم بين أن الغزالي كان ينقل كتب الفلسفة، وأقوال الفلاسفة، وينقل عن أبي عبد الله المازري الفقيه المتكلم فيقول:

"قال (ابن المازري) ووجدت هذا الغزالي يعول على ابن سينا في أكثر ما يشير إليه في علوم الفلسفة، حتى إنه في بعض الأحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير، وأحياناً يغيره، وينقله إلى الشرعيات أكثر مما نقل ابن سينا، لكونه أعلم بأسرار الشرع منه، فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل إخوان الصفا عول الغزالي في علم الفلسفة (الكتاب المذكور ص ١١٧)".

نقده للفلاسفة:

من هذا يتبين كيف غمر الغزالي نفسه في الفلسفة ولم يستطيع الخروج منها، لأنه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها فكانت نيته في الطلب سبباً في أن أحاط به غمارها، وكان يعيش في أقطارها، فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي، ففلسف الشريعة، أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر أو لا يشعر.

أما ابن تيمية فقد طلبها ليهدمها، فكان يقرؤها ويفهمها، وهو في غير محيطها، ولم ينغمر في غمارها، وشدد النكير على الغزالي في منهاجه، وأخذ يتبع هفواته ويتقصى هناته.

ولقد كان يرى أن علم الشرع من النبوة وحدها، سواء في ذلك أصول العقيدة، وفروع لفقه والأحكام العلمية، لأن النبوة جاءت بكل ذلك، فما جاءت به النبوة مصدر العلم به وطريق معرفته، ولا طريق سواه، ويرى أن أولئك الذين يضعون مقدمات عقلية تسبق الدراسة الشرعية، ويجعلون ما جاء في القرآن يسير على منهاجها، فيؤولون صريحة ليوافقها، إنما يجعلون علم العقل فوق علم النبوة، ويقول في ذلك:

"يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم، وأن النظر يوجب العلم وأنه واجب، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام

قد اختلط فيه الحق بالباطل، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل في الدين استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام، وهو دليل مبتدع في الشرع" (معارج الوصول ص ٤ من مجموعة رسائل لابن تيمية طبعة الخانجي).

ينقد ابن تيمية هؤلاء، لأنهم يقدمون عند دراستهم لما جاءت به النبوة تلك الدراسة العقلية عليها، ثم يحكمون على الأوصاف التي جاءت في القرآن بقوانينها، ويوجهونها بتوجيهها، فما يوافقها أقفروه كما ورد، وما لم يوافقها وجهوه على اتجاهها، وأولوه بتأويلها، ثم هم في هذا السبيل لم يلتفتوا إلى السنة، ولم يعلموا أنها شارحة الكتاب، مبينة لكل ما جاء فيه، وأنها الطريق الوحيد لتفسيره.

نقد ابن تيمية ذلك المسلك، لأنه يجعل الحاكم محكوماً، فيجعل النبوة التي هي حاكمة هادية للعقول محكومة بها خاضعة.

* شهادة الشيخ أبو بكر الجزائري - رئيس قسم التفسير بالجامعة الإسلامية: -

الشيخ الداعية: -

"تصدى ابن تيمية لمحاربة الفساد المستشري في أمة الإسلام والمتمثل في الحكام. والعلماء والعباد من المتصوفة والمبتدعة والخرافيين، فقاومه بالحجة والبرهان وانبرى لمقاومته الحكام بالوعيد والتهديد، والسجن والحرمان، وتصدى له العلماء، بالإنكار والتشنيع والوشايات لدى الحكام وتصدى له المتصوفة والمبتدعة بالكيد والمكر والدس والخداع والكذب والتضليل.

ووقف الشيخ وحده في الميدان ليس له من ولي ولا نصير إلا ربه تعالى وكفى بالله ولياً ونصيراً. وكان ما أجمع عليه أعداؤه فيه ثلاث مسائل ادعوا أنه خالف فيها الإجماع وهي طلاق الثلاث، والوسيلة، وشد الرحال إلى غير

المساجد الثلاثة. هذه أبرز ما اجتمع عليه أعداء الشيخ فحاربوه عليها حرباً ضروساً بلا رحمة ولا شفقة، فما تركوا وسيلة للنيل من الشيخ لا استعملوها، فكذبوا عليه، وزوروا وافتروا. وقالوا ما لم يقله عدو في عدوه والشيخ صابر محتسب يقرع الحجة بالحجة، ويبين زيف الدعاوي، وافتراء المفترين، كل ذلك بأسلوب نزيه، وكلام طيب، وقول حسن فلا يغلظ في قول، ولا يجفو في عبارة، ولا يحاول انتقاص أحد، أو النيل من كرامته إن كان من ذوي الكرامات. الأمر الذي يعد فيه ابن تيمية فريداً وحيداً أشبه رجل نبي في دنيا الرجال." (مجلة الجامعة الإسلامية ص ١٦٩).

* شهادة الشيخ محمد سليمان العبدة المدرس بالجامعة الإسلامية

إن هذا العالم - وبتقديري الخاص - لم يقدر التقدير الكافي أو يفهم الفهم المطلوب حتى الآن. رغم ما بذل من جهود مشكورة في نشر كتبه أو الحديث عنه .

إن علم ابن تيمية من خلال كتبه كان المصدر الرئيسي لأكثر الحركات الإسلامية المعاصرة، وكما يقول مالك بن نبي: (إن تراث ابن تيمية يكون الترسانة الفكرية التي لا زالت تمد الحركات الإصلاحية بالأفكار النموذجية إلى اليوم).

وإن ما نعانيه اليوم ليس نقصاً في الكتب بل نقصاً في الرجال وابن تيمية هو من الرجال القلائل الذين ظهرت فيهم سيرة السلف بجمعهم بين العلم والجهاد، ومن اليوم الذي انفصل فيه هذا الشعور عند المسلمين تأخروا وأصبح العلماء بعيدين عن الحياة وعن القيادة والريادة. ا هـ (من مجلة الجامعة الإسلامية ص ٢٧٧).

الباب السادس

ابن تيمية: ألوان من جهاده

قدمنا أن ابن تيمية جاهد في كل ميدان تقريباً بالقلم والكلمة والسيف، ولا نستطيع أن نأتي في هذا المختصر على شيء كثير من جهاده وإنما نذكرها هنا لونا فريداً من ألوان جهاده وهو جهاده بالرسائل إلى تلاميذه وإلى بعض الأمراء والحكام.. ولا نستطيع أيضاً أن نذكر هنا كل مخاطباته ورسائله في هذا الصدد وإنما نذكر ألواناً من ذلك فقط.

جهاده للنصيريين وفضحه لعقائد الباطنيين

*** رسالة الشيخ ابن تيمية إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يبين فيها مشروعية حربه للباطنيين من النصرية واضرابهم ممن كانوا بجبال سوريا ولبنان.**

خاض الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية حروباً كثيرة بعضها في مقابل التتر المتسترين بالإسلام وبعضها ضد النصرية والباطنية الكفرة المعادين لأهل الإسلام والموالين لأعدائه من التتر والصليبيين، وبعد واقعة جبل كسروان (بلبنان) سنة ٧٠٤هـ التي هزم فيها هؤلاء المارقون كتب ابن تيمية كتاباً إلى السلطان المذكور يذكر فيه ما أنعم الله سبحانه وتعالى به على الإسلام وأهله.

في هذه الغزوة كتب ابن تيمية يقول: -

بسم الله الرحمن الرحيم

من الداعي أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومن أيد الله في دولته الدين، وأعز بها عباده المؤمنين، وقمع فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين، نصره الله ونصر به الإسلام، وأصلح له وبه أمور الخاص والعام، وأحيى به معالم الإيمان، وأقام به شرائع القرآن، وأذلّ به أهل الكفر والفسوق والعصيان.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإنّا نحمَدَ إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير. ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما.

أما بعد. فقد صدق الله وعده، ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. وأنعم الله على السلطان، وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تعهد في القرون الخالية. وجدد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية. وتحقق في ولايته خبر الصادق المصدوق، أفضل الأولين والآخرين، الذين أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس المئين والله تعالى يوزعه والمسلمين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين، ويتمها بتمام النصر على سائر الأعداء المارقين.

وذلك: أن السلطان - أتم الله نعمته - حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته، وصحة إسلامه وعقيدته، وبركة إيمانه ومعرفته، وفضل همته، وشجاعته، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته، ونتيجة اتباعه لكتاب الله وحكمته، ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين: من جهاد أعداء الله المارقين من الدين، وهم صنفان:

أهل الفجور والطغيان، وذوو الغنى والعدوان، الخارجون عن شرائع الإيمان، طلباً للعلو في الأرض والفساد، وتركاً لسبيل الهدى والرشاد. وهؤلاء هم التتار، ونحوهم من كل خارج عن شرائع الإسلام وان تمسك بالشهادتين، أو ببعض سياسة الإسلام.

والصنف الثاني: أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون، الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة. مثل هؤلاء الذين غُزُوا بأمر السلطان من أهل الجبل، والجرد، والكسروان. فإن ما منَّ الله به من الفتح والنصر على هؤلاء الطغام، هو من عزائم الأمور التي أنعم الله بها على السلطان وأهل الإسلام.

وذلك: أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين فإن اعتقادهم: أن أبا بكر وعمر وعثمان، وأهل بدر، وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الإسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، ومشايخ الإسلام وعبادهم، وملوك المسلمين وأجنادهم، وعوام المسلمين وأفرادهم. كل هؤلاء عندهم كفار مرتدون، أكفر من اليهود والنصارى. لأنهم مرتدون عندهم والمرتد شر من الكافر الأصلي. ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان.

ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب، وحملو إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون في المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار، هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون، مثل أهل جزين (مدينة معروفة بالبقاع بلبنان). وما حواليها. وجبل عامل ونواحيه.

ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم (أي في النصيرية وأهل الجبل المارقين) من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم. ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان (هو السلطان الناصر ابن قلاوون سلطان مصر والشام)، كان بينهم شبيه بالعزاء.

كل هذا، وأعظم منه، عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكسخان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد،

وفي قدومه إلى حلب، وفي نهب الصالحية، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله.

لأن عندهم أن كل من لم يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مرتد. ومن استحل الفُقَّاع (شراب يصنع من الشعير وسمي كذلك لما يعلوه من الزبد. (لسان العرب. الرشاوي) فهو كافر. ومن مسح على الخفين فهو عندهم كافر. ومن حرم المتعة فهو عندهم كافر. ومن أحب أبا بكر أو عمر، أو عثمان، أو ترضى عنهم أو عن جماهير الصحابة فهو عندهم كافر. ومن لم يؤمن بمنتظرهم فهو عندهم كافر.

وهذا المنتظر صبي عمره سنتان أو ثلاث، أو خمس. يزعمون أنه دخل السِّرداب بسامرا من أكثر من أربعمائة سنة. وهو يعلم كل شيء. وهو حجة الله على الأرض. فمن لم يؤمن به فهو عندهم كافر. وهو شيء لا حقيقة له، ولم يكن هذا في الوجود قط.

وعندهم من قال: إن الله يرى في الآخرة فهو كافر. ومن قال: إن الله تكلم بالقرآن حقيقة فهو كافر. ومن قال إن الله فوق السموات فهو كافر ومن آمن بالقضاء والقدر وقال: إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأن الله يقلب قلوب عباده، وأن الله خالق كل شيء، فهو عندهم كافر. وعندهم أن من آمن بحقيقة أسماء الله وصفاته التي أخبر بها في كتابه وعلى لسان رسوله، فهو عندهم كافر.

هذا هو المذهب الذي تلقنه لهم أئمتهم. مثل بني العود. فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل. وهم الذين كانوا يأمرونهم بقتال المسلمين. ويفتونهم بهذه الأمور .

وقد حصل بأيدي المسلمين طائفة من كتبهم تصنيف ابن العود وغيره. وفيها هذا وأعظم منه. وهم اعترفوا لنا بأنهم الذين علموهم وأمروهم لكنهم مع هذا يظهرون التقية والنفاق. ويتقربون ببذل الأموال إلى من يقبلها منهم. وهكذا كان عادة هؤلاء الجبلية. فإنما أقاموا بجبلهم لما كانوا يظهرونه من

النفاق، ويبذلونه من البرطيل لمن يقصدهم.

والمكان الذي لهم في غاية الصعوبة. ذكر أهل الخبرة أنهم لم يروا مثله. ولهذا كثر فسادهم. فقتلوا من النفوس، وأخذوا من الأموال، مالا يعلمه إلا الله.

ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمر لا يضبط شره، كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد. كانوا في قطع الطرقات وإخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات، ويرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين، ويقعون بالرجال الصالح من المسلمين. فإما أن يقتلوه أو يسلبوه. وقليل منهم من يفلت منهم بالحيلة.

فأعان الله ويسر، بحسن نية السلطان وهمته، في إقامة شرائع الإسلام، وعنايته بجهاد المارقين أن غزوا غزوة شرعية، كما أمر الله ورسوله، بعد أن كشفت أحوالهم، وأزيحت عللهم، وأزيلت شبههم، وبذل لهم من العدل والإنصاف ما لم يكونوا يطمعون به، وبين لهم أن غزوهم اقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال الحرورية (الحرورية: هم الخوارج الذي خرجوا على علي بن أبي طالب وسموا كذلك لأول خروجهم كان ببلدة تسمى حروراء).

المارقين، الذين تواتر عن النبي ﷺ الأمر بقتاله ونعت حالهم، من وجوه متعددة. أخرج منها أصحاب الصحيح عشرة أوجه: من حديث علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري، وسهل بن حنيف، وأبي ذر الغفاري. ورافع ابن عمرو، وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ.

قال فيهم: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يرمق السهم من الرمية. لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ. لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد ﷺ لا تكلوا عن العمل. يقتلون أهل الإسلام. ويدعون أهل الأوثان. يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم،

شر قتلى تحت أديم السماء. خير قتلى من قتلوه".

وأول ما خرج هؤلاء، زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. وكان لهم من الصلاة، والصيام، والقراءة، والعبادة، والزهادة ما لم يكن لعموم الصحابة. لكن كانوا خارجين عن سنة رسول الله ﷺ، وعن جماعة المسلمين. وقتلوا من المسلمين رجلاً اسمه عبد الله بن خباب (هو عبد الله بن خباب بن الارت - بفتح الخاء وتشديد الباء وفتح الهمز والراء المهملة وتشديد التاء. له رؤية ولأبيه صحبة. قال في أسد الغابة: كان طائفة من الخوارج أقبلوا من البصرة إلى إخوانهم من أهل الكوفة، فلقوا عبد الله بن خباب ومعه امرأته. فقالوا له: من أنت؟ قال أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فأثنى خيراً عليهم، فذبحوه، فسال دمه في الماء، وقتلو المرأة وهي حامل ملم منهم، فقالت: أنا امرأة، ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها، وذلك سنة سبع وثلاثين، وكان من سادات المسلمين). وأغاروا على دواب للمسلمين.

وهؤلاء القوم كانوا أقل صلاة وصياما. ولم نجد في جبلهم مصحفاً ولا فيهم قارئاً للقرآن. وإنما عندهم عقائدهم التي خالفو فيها الكتاب والسنة. وأباحوا بها دماء المسلمين. وهم مع هذا فقد سفكوا من الدماء وأخذوا من الأموال ما لا يحصى عدده إلى الله تعالى.

فإذا كان علي بن أبي طالب قد أباح لعسكره أن ينهبوا ما في عسكر الخوارج، مع أنه قتلهم جميعهم، وأن هؤلاء أحق بأخذ أموالهم. وليس هؤلاء بمنزلة المتأولين الذين نادى فيهم علي بن أبي طالب يوم الجمل "أنه لا يقتل مدبرهم ولا يجهز على جريحهم، ولا يغم لهم مالاً ولا يسبي لهم ذرية" لأن مثل أولئك لهم تأويل سائغ. وهؤلاء ليس لهم تأويل سائغ. ومثل أولئك إنما يكونون خارجين عن طاعة الإمام. وهؤلاء خرجوا عن شريعة رسول الله ﷺ وسنته. وهم شر التتار من وجوه متعددة. لكن التتر أكثر وأقوى. فلذلك يظهر كثرة شرهم.

وكثير من فساد التتر هو لمخالطة هؤلاء لهم، كما كان في زمن قازان وهولاكو، وغيرهما. فإنهم أخذوا من أموال المسلمين أضعاف ما أخذوا من أموالهم. وأرضهم في بيت المال.

وقد قال كثير من السلف: إن الرافضة لا حق لهم في الفيء. لأن الله إنما جعل الفيء للمهاجرين والأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ فمن لم يكن قلبه سليما لهم، ولسانه مستغفرا لهم، لم يكن من هؤلاء.

وقطعت أشجارهم لأن النبي ﷺ لما حاصر بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرقوه. فقال اليهود: هذا فساد. وأنت يا محمد تنهى عن الفساد. فأنزل الله ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: الآية ٥] .

وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر، وتخريب العامر، عند الحاجة إليه. فليس ذلك بأولى من قتل النفوس وما أمكن غير ذلك.

فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها، وأيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار. وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم. وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم. لأن التركمان إنما قصدهم الرعى، وقد صار لهم مرعى، وسائر الفلاحين لا يتركو عمارة أرضهم ويجيئون إليه.

فالحمد لله الذي يسر هذا الفتح في دولة السلطان بهمته وعزمه وأمره، وإخلاء الجبل منهم، وإخراجهم من ديارهم.

وهم يشبهون ما ذكره الله في قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ

وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ سورة الحشر الآيات (٢ - ٥)).

وأيضاً فإنه بهذا قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز، واليمن والعراق ما يرفع الله به درجات السلطان، ويعز به أهل الإيمان.

ثم يستطرد الشيخ ناصحاً للسلطان بوجوب إقامة أحكام الإسلام فيقول: -

تمام هذا الفتح وبركته تقدم مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد، وإقامة الشريعة في البلاد. فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قرى كثيرة من يقتدون، بهم وينتصرون لهم. وفي قلوبهم علّ عظيم. وإبطان معاداة شديدة، لا يؤمنون معها على ما يمكنهم. ولو أنه مباطنة العدو. فإذا أمسك رؤوسهم الذين يضلونهم - مثل نبي العود - زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله.

ويتقدم إلى قراهم. وهي قرى متعددة بأعمال دمشق، وصفد، وطرابلس، وحماة، وحمص، وحلب بأن يقام فيهم شرائع الإسلام، والجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، ويكون لهم خطباء ومؤذنون، كسائر قرى المسلمين، وتقرأ فيهم الأحاديث النبوية. وتنشر فيهم المعالم الإسلامية، ويعاقب من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام.

فإن هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا: نحن قوم جبال. وهؤلاء كانوا يعلموننا ويقولون لنا: أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين. ومن قتل منكم فهو شهيد.

وفي هؤلاء كثير لا يقرون بصلاة، ولا صيام، ولا حج ولا عمرة، ولا يحرمون الميتة، والدم، ولحم الخنزير، ولا يؤمنون بالجنة والنار. من جنس الإسماعيلية، والنصيرية والحاكمية، والباطنية، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين.

فتقدم المراسيم السلطانية بإقامة شعائر الإسلام: من الجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، وتبليغ أحاديث النبي ﷺ في قرى هؤلاء من أعظم المصالح الإسلامية. وأبلغ الجهاد في سبيل الله.

وذلك سبب لانقماع من يباطن العدو من هؤلاء، ودخولهم في طاعة الله ورسوله، وطاعة أولي الأمر من المسلمين.

وهو من الأسباب التي يعين الله بها على قمع الأعداء.

فإن ما فعلوه بالمسلمين في أرض "سيس" نوع من غدرهم الذي به ينصر الله المسلمين عليهم. وفي ذلك لله حكمة عظيمة. ونصرة للإسلام جسيمة.

قال ابن عباس "ما نقض قوم العهد إلا أُديل عليهم العدو".

ولولا هذا وأمثاله ما حصل للمسلمين من العزم بقوة الإيمان، وللعدو من الخذلان، ما ينصر الله به المؤمنين، ويذل به الكفار والمنافقين.

والله هو المسؤول أن يتم نعمته على سلطان الإسلام خاصة، وعلى عباده المؤمنين عامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. (العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٨٢ - ١٩٤.) انتهى.

رسائل للشيخ من داخل السجن

*** رسائل من الشيخ إلى تلاميذه وإخوانه يرسلها من داخل سجنه، وقد كتبها بالفحم بعد مصادرة أوراقه وكتبه ومنعه من الكتابة: قال ابن عبد الهادي:**

وقد رأيت أوراقاً عدة بعثها إلى أصحابه، وبعضها مكتوب بفحم، منها ورقة يقول فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ونحن لله الحمد والشكر في نعم متزايدة، متوافرة، وجميع ما يفعله الله فيه نصر الإسلام، وهو من نعم الله العظام. و ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ فإن الشيطان استعمل حزبه في إفساد دين الله، الذي بعث به رسله، وأنزل كتبه.

ومن سنة الله: أنه إذا أراد إظاهر دينه، أقام من يعارضه، فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

والذي سعى فيه حزب الشيطان لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ وحده، بل مخالفة لدين جميع المرسلين: إبراهيم، وموسى والمسيح، ومحمد خاتم النبيين صلى الله عليهم أجمعين (وذلك في مسألة شد الرحال وتشييد القبور ودعائها من دون الله).

وكانوا قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا

كتاب، وجزعوا من ظهور الإخنائية، فاستعملهم لله تعالى. حتى أظهروا أضعاف ذلك وأعظم، وألزمهم بتفتيشه ومطالعته، ومقصودهم إظهار عيوبه، وما يحتجون به، فلم يجدوا فيه إلا ما هو حجة عليهم، وظهر لهم جهلهم، وكذبهم وعجزهم، وشاع هذا في الأرض، وأن هذا مما لا يقدر عليه إلا الله، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا في الشرع والدين، بل غاية ما عندهم: أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين، والمخلوق كائناً من كان، إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله، لم يجب، بل ولا يجوز طاعته، في مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين.

وقول القائل: إنه يظهر البدع، كلام يظهر فساده لكل مستبصر ويعلم أن الأمر بالعكس، فإن الذي يظهر البدعة، إما أن يكون لعدم علمه بسنة الرسول، أو لكونه غرض وهوى يخالف ذلك، وهو أولى الجهل بسنة الرسول، واتباع هواهم بغير هدى من الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القَصَص: الآية ٥٠] ، ممن هو أعلم بسنة الرسول منهم، وأبعد عن الهوى والغرض في مخالفتها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وهذه قضية كبيرة لها شأن عظيم. ولتعلمن نبأه بعد حين.

ثم ذكر الشيخ في الورقة كلاماً، لا يمكن قراءة جميعه، لانطماسه وقال بعده:

وكانوا يطلبون تمام الاخنائية (رسالة ألفها في الرد على الاخنائي المالكي في مسألة الزيارة)، فعندهم ما يطمهم أضعافها، وأقوى فقها منها، وأشد مخالفة لإغراضهم. فإن الزملكانية قد بين فيها من نحو خمسين وجها: أن ما حكم به ورسم به، مخالف لاجماع المسلمين وما فعلوه - لو كان ممن يعرف ما جاء به الرسول، ويتعمد مخالفته - لكان كفراً وردة عن الإسلام، لكنهم جهال دخلوا في شيء ما كانوا يعرفونه، ولا ظنوا أنه يظهر منه أن

السلطنة تخالف مرادهم والأمر أعظم مما ظهر لكم، ونحن ولله الحمد، على عظيم الجهاد في سبيله.

ثم ذكر كلاماً وقال:

بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان (عندما تصدى لقازان ملك التتر وناقشه ورده عن بلاد المسلمين)، والجبلية (الجبلية هم النصرية وأشكالهم الذين حاربهم الشيخ.)، والجهمية، والاتحادية (اتباع ابن عربي ومن على شاكلته)، وأمثال ذلك.. من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* وكتب من داخل السجن رسال أخرى يقول فيها: -

ونحن ولله الحمد والشكر، في نعم عظيمة، تتزايد كل يوم، ويجدد الله تعالى من نعمه نعماً أخرى، وخروج الكتب كان من أعظم النعم فاني كنت حريصاً على خروج شيء منها، لتقفوا عليه، وهم كرهوا خروج الاخنائية، فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه. وبهذا يظهر ما أرسل الله به ورسوله من الهدى ودين الحق.

فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس. فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يذله الله ويخزيه.

وما كتبت شيئاً من هذا ليكتم عن أحد، ولو كان مبغضاً، والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت

وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا،

ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

ثم ذكر كلاماً. وقال:

كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والإستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له "إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له. ا هـ (العقود الدرية ص ٣٦٤ - ٣٦٧.)

* رسالة من داخل السجن أيضاً من الشيخ إلى بعض أقاربه في دمشق:

تعلمون أنا بحمد الله في نعم عظيمة، ومنن جسيمة، وآلاء متكاثرة، وأيادٍ متظاهرة. لم تكن تخطر لأكثر الخلق ببال، ولا تدور لهم في خيال والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. كما يحب ربنا ويرضى. إلى أن قال:

والحق دائماً في انتصار وعلو وازدياد، والباطل في انخفاض وسفال ونفاد. وقد أخضع الله رقاب الخصوم وأذلهم غاية الذل، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه.

ونحن - ولله الحمد - قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة، وانقماع الباطل والبدعة، وقد دخلوا في ذلك كله، وامتنعنا، حتى يظهر ذلك إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد، ولم نجبهم إلى مطلوبهم، حتى يصير المشروط معمولاً، والمذكور مفعولاً، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم. وقد أمد الله من الأسباب التي فيها عز الإسلام والسنة، وقمع الكفر والبدعة، بأمور يطول وصفها في كتاب. جرى من الأسباب التي هي عز الإسلام وقمع اليهود والنصارى، بعد أن كانوا قد استطاعوا وحصلت لهم شوكة، وأعانهم من أعانهم على أمرٍ فيه ذل كبير من الناس، فلطف الله

باستعمالنا في بعض ما أمر الله به ورسوله. وجرى في ذلك مما فيه عز المسلمين، وتأليف قلوبهم، وقيامهم على اليهود والنصارى وذلك المشركين وأهل الكتاب، مما هو أعظم نعم الله على عباده المؤمنين.

ووصف هذا يطول.

وقد أرسلت إليكم كتاباً أطلب ما صنفته في أمر الكنائس، وهي كراريس بخطي، قطع النصف البلدي، فترسلون ذلك إن شاء تعالى. وتستعينون على ذلك بالشيخ جمال الدين المزي فإنه يقلب الكتب ويخرج المطلوب. وترسلون أيضاً من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخط القاضي أبي الحسين، إن أمكن الجميع، وهو أحد عشر مجلداً، وإلا فمن أوله مجلداً، أو مجلدين، أو ثلاثة. (الكواكب الدرية ص ٣٨٤).

الباب السابع

ابن تيمية: اختياراته واجتهاداته

لم يكن ابن تيمية معصوماً، ولا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ بل كان عالماً مجتهداً له صوابه وخطؤه، ردَّ على اناس كثيرين ورد عليه أيضاً أناس كثيرون، وقد قال الإمام مالك بن أنس (ما مِنَّا إلا وَرَدَّ عليه إلا صاحب هذا القبر) وهذه جملة الأمور التي تفرد بها مخالفاً غيره من أئمة الفقه ومتبعاً فيها أيضاً من سلف من الصحابة والتابعين فليس له بحمد الله قول لا سلف له فيه هكذا كان دينه ودينه لا يقول قولاً لا سلف له فيه. وقد آتاه الله من العلم ما يستطيع به أن يرجح ما يراه راجحاً، ويبطل ما يراه باطلاً، ولا أقول إن كل ما رجحه صواب، وكل ما أبطله باطل وهذه هي جملة اختياراته كما نقلها تلميذه ابن عبد الهادي: -

قال: -

ومن اختياراته التي خالفهم فيها، أو خالف المشهور من أقوالهم: القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً، طويلاً كان أو قصيراً. كما هو مذهب الظاهرية. وقول بعض الصحابة.

والقول بأن البكر لا تستبرأ، وإن كانت كبيرة. كما هو قول ابن عمر. واختاره البخاري صاحب الصحيح.

والقول بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء. كما يشترط للصلاة. كما هو مذهب ابن عمر. وختيار البخاري أيضاً.

والقول بأن من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل. فبان نهاراً لا قضاء عليه. كما هو الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإليه ذهب بعض التابعين، وبعض الفقهاء بعدهم.

والقول بأن المتمتع يكفيه سعى واحد بين الصفا والمروة. كما هو في حق القارن والمفرد. كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما. ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل. رواها عنه ابنه عبد الله. وكثير من أصحاب الإمام أحمد لا يعرفونها.

والقول بجوار المسابقة بلا محلل. وإن خرج المتسابقان.

والقول باستبراء المختلعة بحيضه. وكذلك الموطوءه بشبهة. والمطلقة آخر ثلاث تطليقات.

والقول بإباحة وطء الوثنيات بملك اليمين.

والقول بجواز عقد الرداء في الإحرام. ولا فدية في ذلك، وجواز طواف الحائض. ولا شيء عليها، إذا لم يمكنها أن تطوف طاهراً.

والقول بجواز بيع الأصل بالعصير. كالزيتون بالزيت. والسمسم بالشيرج.

والقول بجواز الوضوء بكل ما يسمى ماء، مطلقاً كان أو مقيداً.

والقول بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره. كالخاتم ونحوه، بالفضة متفاضلاً، وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة.

والقول بأن المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه إلا. أن يتغير، قليلاً أو كثيراً.

والقول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة باستعمال الماء.

والقول بجواز التيمم في مواضع معروفة.

والجمع بين الصلاتين في أماكن مشهورة.

وغير ذلك من الأحكام المعروفة من أقواله.

وكان يميل أخيراً لتوريث المسلم من الكافر الذمي، وله في ذلك مصنف وبحث طويل.

ومن أقواله المعروفة المشهورة التي جرى بسبب الافتاء بها محن وقلاقل: قوله بالتكفير في الحلف بالطلاق.

وأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة.

وأن الطلاق المحرم لا يقع.

وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة منها: -

قاعدة كبيرة سماها "تحقيق الفرقان بين التطليق والإيمان" نحو أربعين كراسة.

وقاعدة سماها "الفرق المبين بين الطلاق واليمين، بقدر النصف من ذلك.

وقاعدة في أن جميع أيمان المسلمين مكفرة، مجلد لطيف.

وقاعدة في تقرير أن الحلف بالطلاق من الأيمان حقيقة.

وقاعدة سماها "التفصيل بين التكفير والتحليل"

وقاعدة سماها "اللمعة (الكواكب الدرية - ٢٢٢ - ٢٢٤.)".

وغير ذلك من القواعد والأجوبة في ذلك لا ينحصر ولا ينضبط وله في ذلك جواب اعتراض، ورد عليه من الديار المصرية. وهو جواب طويل في ثلاث مجلدات، بقطع نصف البلدي.

وقال ابن رجب الحنبلي: -

ذكر نبذة من مفرداته وغرائبه

اختار ارتفاع الحدث بالمياه المتعصرة، كماء الورد ونحوه، واختار جواز المسح على النعلين والقدمين، ولك ما يحتاج في نزعه من الرجل إلى معالجة باليد أو بالرجل الأخر، فإنه يجوز عنده المسح عليه مع القدمين.

واختار أن المسح على الخفين لا يتوقف مع الحاجة، كالمسافر على البريد ونحوه، وفعل ذلك في ذهابه إلى الديار المصرية على خيل البريد ويتوقف مع إمكان النزع وتيسره.

واختار جواز المسح على اللفائف ونحوها.

واختار جواز التيمم لخشية فوات الوقت في حق غير المعذور، كمن أخر الصلاة عمداً حتى تضايق وقتها. وكذا من خشى فوات الجمعة والعيدين وهو محدث. فأما من استيقظ أو ذكر في وقت الصلاة: فإنه يتطهر بالماء ويصلي، لأن الوقت متسع في حقه.

واختار أن المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال في البيت، أو شق عليها النزول إلى الحمام وتكرره: أنها تتيمم وتصلي.

واختار أن لا حد لأقل الحيض ولا لأكثره، ولا لأقل الطهر بين الحيضين، ولا لسن الاياس من الحيض. وأن ذلك راجع إلى ما تعرفه كل امرأة من نفسها.

واختار أن تارك الصلاة عمداً: لا يجب عليه القضاء (الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٤٠٤، ٤٠٥). ولا يشرع له. بل يكثر من النوافل، وأن القصر يجوز في قصير السفر وطويله، وأن سجود التلاوة لا يشترط له طهارة.

الباب الثامن

ابن تيمية: جنازة مشهودة وشهادة من الخلق له بالكرامة والولاية

سبع وخمسون عاماً أمضاها الشيخ وهي عمره في جهاد مرير وسعي متواصل، ودعوة دائمة إلى الله عز وجل حتى أتته المنية مسجونا بقلعة دمشق في سعاية للواشين والحاسدين من عباد القبور أنه يمنع الناس من زيارة الرسول والصالحين والصحيح أنه نهى الناس عن شد الرحال إليها مؤكداً أن زيارتهم سنة مستحبة وهذا قد ذكرناه في مقدمة الكتاب، وفي ردنا على المفتري الكذاب.. أقول كان لا بد بعد ذلك أن يستريح الشيخ ويؤوي - بحمد الله ومشيئته وفضله إلى جنة الله ورضوانه وكانت جنازة لا يعهد تاريخ الإسلام مثلها إلا لإمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رضي الله عنه وهاك وصفاً حياً لجنازته كما رواها ابن كثير في تاريخه.

وفاة شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية

قال الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه: وفي ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد المجاهد القدرة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا الإمام العلامة المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد بن الخضر ابن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوساً بها، وحضر جمع كثير إلى القلعة، وأذن

لهم في الدخول عليه، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرؤا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم انصرفوا، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن واقتصروا على من يغسله، فلما فرغ من غسله أخرج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع وامتلأ الجامع أيضاً وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة، وحضرة الجنازة في الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضعت في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصلى عليه أولا بالقلعة، تقدم في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام، ثم صلى عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر، وقد تضاعف اجتماع الناس على ما تقدم ذكره، ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، ثم حمل بعد أن صلى عليه على الرؤوس والأصابع، وخرج النعش به من باب البريد واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم، وذهبت النعال من أرجل الناس وقباقيبهم ومناديل وعمائم لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة، وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر، وتارة يقف حتى تمر الناس.

وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام، كل باب أشد زحمة من الآخر، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام فيها، لكن كان معظم الزحام من الأبواب الأربعة: باب الفرج الذي أخرجت من الجنازة، وباب الفراديس، وباب النصر، وباب الجابية. وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس، ووضعت الجنازة هناك وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن، فلما قضيت الصلاة حمل إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله، وكان دفنه قبل العصر بيسير، وذلك من كثرة من يأتي ويصلي عليه من أهل البساتين وأهل الغوطة وأهل القرى وغيرهم، وأغلق الناس حوانيتهم ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور، مع الترحم والدعاء له، وأنه لو قدر ما تخلف، وحضر

نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة، غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل. وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به، ودفع في الخيط الذي كان فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل مائة وخمسون درهما، وقيل إن الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهماً. وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير، وتضرع وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد، وتردد الناس إلى قبره أياماً كثيرة ليلاً ونهاراً يبيتون عنده ويصبحون، ورؤيت له منامات صالحة كثيرة، ورثاه جماعة بقصائد جمة.

ثم استطرد ابن كثير قائلاً:

قال: وقد اتفق موته في سحر ليلة الاثنين المذكور، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها وتكلم به الحراس على الابرجة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئاً، ولا فتحوا كثيراً من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة، وكان نائب السطنة تنكز قد ذهب يتصيد في بعض الأمكنة، فحارت الدولة ماذا يصنعون، وجاء الصاحب شمس الدين غبريال نائب القلعة فعزاه فيه، وجلس عنده، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية، فجلسوا عنده يبكون ويثنون *على مثل ليلى يقتل المرء نفسه *وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله، وكشفت عن وجه الشيخ ونظرت إليه وقبلته، وعلى رأسه عمامة بعذب مغروزة وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه. وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة وشرعاً في الحادية والثمانين، فانتهينا فيها إلى آخر

اقتربت الساعة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ فشرع عند ذلك الشيخان الصالحان الخيران عبد الله بن المحب وعبد الله الزرعي الضرير - وكان الشيخ رحمه الله يحب قراءتهما - فابتدا من أول سورة الرحمن حتى ختموا القرآن وأنا حاضر أسمع وأرى.

ثم شرعوا في غسل الشيخ وخرجت إلى مسجد هناك ولم يدعوا عنده إلا من ساعد في غسله، منهم شيخنا الحافظ المزي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار، أهل العلم والإيمان، فما فرغ منه حتى امتلأت القلعة وضج الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم، ثم ساروا به إلى الجامع فسلكوا طريق العمادية على العادية الكبيرة، ثم عطفوا على ثلث الناطفانيين، وذلك أن سويقة باب البريد كانت قد هدمت لتصلح، ودخلوا بالجنازة إلى الجامع الأموي، والخلائق فيه بين يدي الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها ما لا يحصى عدتهم إلا الله تعالى، فصرخ صارخ وصاح صائح هكذا تكون جنائز أئمة السنة فتباكى الناس وضجوا عند سماع الصارخ ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف، بل مرصوصين رصا لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة جُوّ الجامع وَبرّى الأزقة والأسواق، وذلك قبل أذان الظهر بقليل، وجاء الناس من كل مكان، ينوي خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لأكل ولا لشرب، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف، فلما فرغ من أذان الظهر أقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة، فلما فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب لغيبة الخطيب بمصر فصلى عليه إماما، وهو الشيخ علاء الدين الخراط، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد كما ذكرنا، واجتمعوا بسوق الخيل، ومن الناس من تعجل بعد أن صلى في الجامع إلى مقابر الصوفية، والناس في بكاء وتهليل في مخافته كل واحد بنفسه، وفي ثناء وتأسف، والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين ويدعين ويقلن هذا العالم.

وبالجملة كان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله بدمشق إلا أن يكون في زمن بني أمية حين كان الناس كثيرين، وكانت دار الخلافة، ثم دفن عند أخيه قريباً من أذان العصر على التحديد، ولا يمكن أحد حصر من حضر الجنازة،

وتقريب ذلك أنه عبارة عمن أمكنه الحضور من أهل البلد وحواضره ولم يتخلف من الناس إلا القليل من الصغار والمخدرات ا هـ.

يوم الجنائز شهادة لأهل الحق:

قال ابن كثير:

"ثم ذكر الشيخ علم الدين بعد ايراد هذه الترجمة جنازة أبي بكر بن أبي داود وعظمها، وجنازة الإمام أحمد ببغداد وشهرتها، وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: سمعت أبا عبد الرحمن السيوفي يقول: حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع الشيخ أبي الحسن الدارقطني فلما بلغ إلى ذلك الجمع العظيم أقبل علينا وقال سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول سمعت عبد الله بن أحمد ابن حنبل يقول سمعت أبي يقولي: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز، قال ولا شك أن جنارة أحمد بن حنبل كانت هائلة عظيمة، بسبب كثرة أهل بلده واجتماعهم لذلك، وتعظيمهم له، وأن الدولة كانت تحبه، والشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله توفي ببلدة دمشق، وأهلها لا يعشرون أهل بغداد حينئذ كثرة، ولكنهم اجتمعوا لجنازته اجتماعاً لو جمعهم سلطان قاهر، وديوان حاصر لما بلغوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته، وانتهوا إليها. هذا مع أن الرجل مات بالقلعة محبوساً من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة، مما ينفر منها طباع أهل الأديان، فضلاً عن أهل الإسلام. وهذه كانت جنازته. (البداية والنهاية ص ١٣٧ - ١٣٨/ ج ١٤. البداية ص ١٣٩. انظر البداية والنهاية من ص ١٣٨ - ١٤٠ ج ١٤).

الذين تخلفوا عن جنازته:

وقال أيضاً:

"**وما علمت أحداً من أهل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور في جنازته، وهم ثلاثة أنفس: وهم ابن جمله، والصدر، والقفجاري، وهؤلاء كانوا قد**

اشتهروا بمعاداته فاختفوا من الناس خوفا على أنفسهم، بحيث إنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس" ا هـ.

ثناء الناس عليه بعد وفاته: -

وقال أيضاً:

وتردد شيخنا الإمام العلامة برهان الدين الفزاري إلى قبره في الأيام الثلاثة وكذلك جماعة من علماء الشافعية، وكان برهان الدين الفزاري يأتي راكباً على حماره وعليه الجلالة والوقار رحمه الله.

وعملت له ختمات كثيرة ورؤيت له منامات صالحة عجيبة، ورثى بأشعار كثيرة وقصائد مطولة جداً. وقد أفردت له تراجم كثيرة، وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم، وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه وفضائله وشجاعته وكرمه ونصحه وزهادته وعبادته وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة وصفاته الكبار والصغار، التي احتوت على غالب العلوم ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة وأفتى بها. ا هـ

الباب التاسع

واجبنا نحو شيخ الإسلام ابن تيمية

لم أجد في هذا الصدد خيراً من رسالة كتبها الشيخ الإمام القدوة الزاهد عماد الدين أبو العباس بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي المتوفي سنة ٧١١هـ، والتي كتب هذه الرسالة التي يوصي فيها أتباع الشيخ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه أن يقوموا بحق شيخهم وإمامهم وقدوتهم، ويذكر فيها ما منّ الله سبحانه وتعالى به عليهم من معرفة الدين الحق والهداية إلى الصراط المستقيم على يد شيخهم ابن تيمية في وقت يعيش فيه الناس في الضلال المبين والظلمات العظيمة، ويذكر انهم هم الفئة الذين قال فيهم الرسول ﷺ.

"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك " فالشيخ ابن تيمية وتلاميذه وأحبابه وأنصاره كانت هي هذه الفئة حتما في زمانه فهم الفئة التي حاربت جميع المرتدين والمارقين بالحجة والبيان والسيف والسنان، فلقد حاربوا التتار المعتدين المتلبسين بظاهر الشهادة فقط والمخالفين شرائع الإسلام، وحارب الشيخ كذلك بسيفه طوائف النصرية، والإسماعيلية والرافضة والباطنية الموالين لأهل الصليب المكفرين لصدر الاسلام، وكذلك لم تبق طائفة من أهل الباطن كأهل الحلول، والتأويل والزندقة وعباد القبور، وأمراء الظلم الا وقد ناقشهم الشيخ وتلاميذه وأبطلوا حججهم وأظهروا كذبهم وتحريفهم أو جهلهم وانتحالهم..

لقد رأى الشيخ عماد الدين هذه النعم العظيمة على شيخ الاسلام ابن

تيمية وتلاميذه، فأخذته الحمية والشهامة، والعزة على جناب الشيخ العظيم فقام يوصي اتباعه بالشيخ ان يعرفوا له حرمته، ويقدروا له مكانته وينزلوه منزلته.. واترك المجال بعد هذه المقدمة للشيخ عماد الدين ليقدم وصيته الخالدة حيث يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسبحان الله وبحمده، تقدس في علوه وجلاله. وتعالى في صفات كماله. وتعاظم في سبحات فرادنيته وجماله، وتكرم في افضاله وجمال نواله، جل أن يمثل بشيء من مخلوقاته، أو يحاط به، بل هو المحيط بمبتدعاته، لا تصوره الأوهام، ولا تقله الأجرام، ولا يعقل كنه ذاته البصائر ولا الأفهام.

الحمد لله مؤيد الحق وناصره، ودافع الباطل وكاسره، ومعز الطائع وجابره، ومذل الباغي ودائره، الذي سعد بخطوة الاقتراب من قدسه من قام بأعباء الاتباع في بنانه وأسه، وفاز بمحبوبيته في ميادين أنسه من بذل ما يهواه في طلبه من قلبه وحسه، وتثبت في مهامه الشكوك منتظرا زوال لبسه، سبحانه وبحمده له المثل الأعلى، والنور الأتم الأجلى، والبرهان الظاهر في الشريعة المثلى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. الذي شهدت لوحدانيته الفطر، وأسلم لربوبيته ذو العقل والنظر، وظهرت أحكامه في الآى والسور، وتم اقتداره في تنزل القدر.

وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، الذي شهدت بنبوته الهواتف والأحبار، فكان قبل ظهوره ينتظر، وتلاحقت عند مبعثه معجزاته من حنين الجذع وانقياد الشجر، صلوات الله عليه وعلى أله وأصحابه أهل الخشية والحذر، والعلم المنور، فهم قدوة التابع للأثر.

وبعد. فهذه رسالة سطرها العبد الضعيف الراجي رحمة ربه وغفرانه، وكرمه وامتنانه. أحمد بن إبراهيم الواسطي. عامله الله بما هو أهله. فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

إلى إخوانه في الله السادة العلماء، والأئمة الاتقياء، ذوي العلم النافع، والقلب الخاشع، والنور الساطع، الذين كساهم الله كسوة الاتباع، وأرجو من كرمه أن يحققهم بحقائق الانتفاع: -

السيد الأجل العالم، الفاضل فخر المحدثين، ومصباح المتعبدين المتوجه إلى رب العالمين، تقي الدين أبي حفص عمر بن عبد الله بن عبد الأحد بن شقير.

والشيخ الأجل، العالم الفاضل السالك الناسك ذي العلم والعمل، المكتسي من الصفات الحميدة أجمل الحلل، الشيخ شمس الدين محمد ابن عبد الأحد الآمدي.

والسيد الأخ، العالم الفاضل، السالك الناسك، التقي الصالح، الذي سيماء نور قلبه لائح على صفحات وجهه، شرف الدين محمد ابن المنجى.

والسيد الأخ، الفقيه العالم النبيل، الفاضل فخر المحصلين، زين الدين، عبد الرحمن بن محمود بن عبيدان البعلبكي.

والسيد الأخ العالم الفاضل، السالك الناسك، ذي اللب الراجح والعمل الصالح، والسكينة الوافرة، والفضيلة الغامرة، نور الدين محمد بن محمد بن محمد بن الصائغ.

وأخيه السيد الأخ، العالم التقي الصالح، الخير الدين، العالم الثقة، الأمين الراجح، ذى السمت الحسن، والدين المتين، في اتباع السنن، فخر الدين محمد.

والأخ العزيز الصالح، الطالب لطريق ربه، والراغب في مرضاته وحبه والعالم الفاضل، الولد شرف الدين محمد بن سعد الدين سعد الله ابن نجيح.

وغيرهم من اللائذين بحضرة شيخهم وشيخنا الامام، الأمة الهمام، محيى السنة، وقامع البدعة، ناصر الحديث، مفتي الفرق، الفائق عن الحقائق، وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق، الجامع بين الظاهر

والباطن، فهو يقضي بالحق ظاهرا وقلبه في العلى قاطن، أنموذج الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، الذين غابت عن القلوب سيرهم، ونسيت الأمة حذوهم وسبلهم، فذكرهم بها الشيخ، فكان في دارس نهجهم سالكا، ولموات حذوهم محييا، ولأعنة قواعدهم مالكا: الشيخ الامام تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، أعاد الله علينا بركته، ورفع إلى مدارج العلى درجته، وأدام التوفيق السادة المبدوّ بذكرهم وتسديدهم، وأجزل لهم حظهم، ومزيدهم.

السلام عليكم معشر الاخوان ورحمة الله وبركاته، جعلنا الله وإياكم ممن ثبت على قرع نوائب الحق جاشه، واحتسب لله ما بذله من نفسه في اقامة دينه، وما احتوشته من ذلك وحاشه، واحتذى حذو السبق الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين لم تأخذهم في الله لومة لائم، فما ضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، مع قلة عددهم في أول الأمر، فكانوا مع ذلك كل منهم مجاهد بدين الله قائم. ونرجو من كرم الله تعالى أن يوفقنا لأعمالهم، ويرزق قلوبنا قسطا من أحوالهم، وينظمنا في سلكهم، تحت سجفتهم ولوائهم، مع قائدهم وإمامهم سيد المرسلين، وامام المتقين، محمد صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أذكركم رحمكم الله بما أنتم به عالمون، عملا بقوله تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأبدأ من ذلك بأن أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله، وهي وصية الله تعالى إلينا وإلى الأمم من قبلنا، كما بين سبحانه وتعالى قائلا وموصيا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾. [النساء: الآية ١٣١]

وقد علمتم تفاصيل التقوى على الجوارح والقلوب، بحسب الأوقات والأحوال: من الأقوال، والأعمال، والإرادات، والنيات.

وينبغي لنا جميعاً أن لا نقنع من الأعمال بصورها حتى نطالب قلوبنا بين يدي الله تعالى بحقائقها. ومع ذلك فلتكن لنا همة علوية، تترامى الى أوطان

القرب، ونفحات المحبوبية والحب. فالسعيد من حظى من ذلك بنصيب. وكان مولاه منه على سائر الأحوال قريباً بخصوص التقريب.

فيكتسي العبد من ذلك ثمرة الخشية والتعظيم، للعزيز العظيم، فالحب والخشية ثابتان في الكتاب العزيز والسنة المأثورة. قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (سورة فاطر آية ٢٨) وفي الحديث " أسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقربني الى حبك (رواه الترمذي عن ابن عباس في دعاء طويل) " وفي الحديث " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله (رواه الامام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بدون قوله "ولخرجته الخ " وهو بهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي عن أبي الدرداء) ".

ومعلوم أن الناس يتفاوتون في مقامات الحب والخشية، في مقام أعلى من مقام، ونصيب أرفع من نصيب، فلتكن همة أحدنا من مقامات الحب والخشية أعلاه، ولا يقنع الا بذروته وذراه، فالهمم القصيرة تقنع بأيسر نصيب، والهمم العلية تعلو مع الأنفاس الى قريب الحبيب لا يشغلنا عن ذلك ما هو دونه من الفضائل، والعاقل لا يقنع بأمر مفضول عن حال فاضل.ولتكن الهمة منقسمة على نيل المراتب الظاهرة، وتحصيل المقامات الباطنة. فليس من الانصاف الانضباب الى الظواهر والتشاغل عن المطالب العلوية ذوات الأنوار البواهر.

وليكن لنا جميعا بين الليل والنهار ساعة، نخلو فيها بربنا جل اسمه وتعالى قدسه، نجمع بين يديه في تلك الساعة همومنا، ونطرح أشغال الدنيا من قلوبنا، فنزهد فيما سوى الله ساعة من نهار، فبذلك يعرف الانسان حاله مع ربه، فمن كان له مع ربه حال، تحركت في تلك الساعة عزائمه. وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره، وطارت الى العلى زفراته وكوامنه. وتلك الساعة

أنموذج لحاله العبد في قبره، حين خلوه عن ماله وحبه. فمن لم يخل قلبه لله ساعة من نهار، لما احتوشه من الهموم الدنيوية وذوات الآصار. فليعلم أنه ليس له ثم رابطة علوية، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبية، فليبك على نفسه، ولا يرضى منها الا بنصيب من قرب ربه وأنسه.

فاذا حصلت تلك الساعة، أمكن ايقاع الصلوات الخمس على نمطها من الحضور والخشوع، والهيبة للرب العظيم في السجود والركوع فلا ينبغي لنا أن نبخل على أنفسنا في اليوم والليلة من أربع وعشرين ساعة بساعة واحدة لله الواحد القهار، نعبده فيها حق عبادته، ثم نجتهد على إيقاع الفرائض على ذلك النهج في رعايته، وذلك طريق لنا جميعا ان شاء الله تعالى الى النفوذ، فالفقيه اذا لم ينفذ في علمه حصل له الشطر الظاهر، وفاته الشطر الباطن. لاتصاف قلبه بالجمود. وبعده في العبادة والتلاوة عن لين القلوب والجلود. كما قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣] وبذلك يرتقي الفقيه عن فقهاء عصرنا. ويتميز به عنهم، فالنافذ من الفقهاء له البصيرة المنورة، والذوق الصحيح، والفراسة الصادقة، والمعرفة التامة، والشهادة على غيره بصحيح الأعمال وسقيمها. ومن لم ينفذ لم تكن له هذه الخصوصية، وأبصر بعض الأشياء وغاب عنه بعضها.

فيتعين علينا جميعاً طلب النفوذ الى حضرة قرب المعبود، ولقائه بذوق الايقان، لنعبده كأننا نراه كما جاء في الحديث (حديث جبريل في سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال له " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك"رواه البخاري ومسلم عن عمر وعن ابنه رضي الله عنهما).

وبعد ذلك الخطوة في هذه الدار بلقاء رسول الله ﷺ، غيبا في غيب، وسرا في سر، بالعكوف على معرفة أيامه وسننه واتباعها. فتبقى البصيرة شاخصة اليه، تراه عيانا في الغيب، كأنها معه ﷺ، وفي أيامه. فيجاهد على دينه. ويبذل ما استطاع من نفسه في نصرته.

وكذلك من سلك في طريق النفوذ يرجى له أن يلقى ربه بقلبه غيباً في

غيب، وسراً في سر، فيرزق القلب قسطاً من المحبة والخشية. والتعظيم اليقيني، فيرى الحقائق بقلبه من وراء ستر رقيق. وذلك هو المعبر عنه بالنفوذ. ويصل الى قلبه من وراء ذلك الستر ما يغمره من أنوار العظمة والجلال والبهاء والكمال، فيتنور العلم الذي اكتسبه العبد. ويبقى له كيفية أخرى زائدة على الكيفية المعهودة من البهجة والأنوار والقوة في الإعلان والأسرار.

فلا ينبغي لنا أن نتشاغل عن نيل هذه الموهبة السنية، بشواغل الدنيا وهمومها، فتنقطع بذلك - كما تقدم - بالشيء المفضول عن الأمر المهم الفاضل. فاذا سلكنا في ذلك برهة من الزمان، ورزقنا الله تعالى نفوذا، وتمكنا في ذلك النفوذ فلا تعود هذه العوارض الجزئيات الكونيات تؤثر فينا إن شاء الله تعالى.

وليكن شأن أحدنا اليوم: التعديل بين المصالح الدنيوية والفضائل العلمية، والتوجهات القلبية، ولا يقنع أحدنا بأحد هذه الثلاثة عن الأخريين. فيفوته المطلوب. ومتى اجتهد في التعديل فإنه إن شاء الله تعالى بقدر ما يحصل للعبد جزء من أحدهم، حصل جزءاً من الآخر. ثم بالصبر على ذلك تجتمع الأجزاء المحصلة، فتصير مرتبة عالية عند النهاية - إن شاء الله تعالى.

هذا وإن كنتم - أيدكم الله تعالى - بذلك عالمين، لكن الذكرى تنفع المؤمنين.

ثم يستطرد الشيخ عماد الدين قائلاً في رسالته: -

واعلموا - أيدكم الله - أنه يجب عليكم أن تشكروا ربكم تعالى في هذا العصر، حيث جعلكم بين جميع أهل هذا العصر كالشامة البيضاء في الحيوان الأسود. لكن من لم يسافر الى الأقطار، ولم يتعرف أحوال الناس، لا يدري قدر ما هو فيه من العافية. فأنتم ان شاء الله تعالى في حق هذه الامة الاولى كما قال تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران الآية ١١٠) وكما قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِن

﴿ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (سورة الحج، الآية ٤١).

أصبحتم اخواني تحت سنجق (أي تحت لوائه ورايته) رسول الله ﷺ، إن شاء الله تعالى، مع شيخكم وإمامكم، وشيخنا وإمامنا المبدوء بذكره رضي الله عنه. قد تميزتم عن جميع أهل الأرض، فقائها وفقرائها، وصوفيتها، وعوامها: بالدين الصحيح.

وقد عرفتم ما أحدث الناس من الاحداث، في الفقهاء والفقراء والصوفية والعوام. فأنتم اليوم في مقابلة الجهمية من الفقهاء. نصرتم الله ورسوله في حفظ ما أضاعوه من دين الله، تصلحون ما أفسدوه من تعطيل صفات الله.

وأنتم أيضا في مقابلة من لم ينفذ في علمه من الفقهاء الى رسول الله ﷺ، وجمد على مجرد تقليد الأئمة فانكم قد نصرتم الله ورسوله في تنفيذ العلم إلى أصوله من الكتاب والسنة، واتحاد أقوال الأئمة، تأسيا بهم لا تقليداً لهم.

وأنتم أيضا في مقابلة ما أحدثته أنواع الفقراء من الأحمدية (اتباع احمد الرفاعي البطائحي وسموا ايضا البطائحية) والحريرية (فرقة صوفية) من اظهار شعار المكاء والتصدية (المكاء صوت القطط، والتصديد: التصفيق وكان كفار قلة يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون في طوافهم، وشبه الشيخ الصوفية بذلك لأن أذكارهم برفع الاصوات لقولهم هوهو. تكون كالمكاء أو النباح ولانهم يصفقون في أذكارهم ويتمايلون ويصرخون)، ومؤاخاة النساء والصبيان، والاعراض عن دين الله الى خرافات مكذوبة عن مشايخهم، واستنادهم الى شيوخهم وتقليدهم في صائب حركاتهم وخطئها، واعراضهم عن دين الله الذي أنزله من السماء. فأنتم بحمد الله تجاهدون هذا الصنف ايضا كما تجاهدون من سبق. حفظتم من دين الله ما أضاعوه. وعرفتم ما جهلوه تقومون من الدين ما عوجوه، وتصلحون ما أفسدوه.

وأنتم أيضا في مقابلة رسمية الصوفية والفقهاء، وما أحدثوه من الرسوم

الوضعية، والآصار الابتداعية، من التصنع باللباس، والاطراق والسجادة لنيل الرزق من المعلوم، ولبس البقيار، والاكمام الواسعة في حضرة الدرس، وتنميق الكلام، والعدو بين يدي المدرس راكعين، حفظا للمناصب، واستجلابا للرزق والادرار.

فحفظ هؤلاء في عبادة الله غيره، وتألهوا سواه. ففسدت قلوبهم من حيث لا يشعرون. يجتمعون لغير الله بل للمعلوم، ويلبسون للمعلوم وكذلك في أغلب حركاتهم يراعون ولاة المعلوم. فضيعوا كثيرا من دين الله وأماتوه.وحفظتم أنتم ما ضيعوه، وقومتم ما عوجوه.

وكذلك أنتم في مقابلة ما أحدثته الزنادقة من الفقراء والصوفية من قولهم بالحلول والاتحاد، وتأله المخلوقات. كاليونسية، والعربية، والصدرية، والسبعينية، والتلمسانية. فكل هؤلاء بدلوا دين الله تعالى وقلبوه. وأعرضواعن شريعة رسول الله ﷺ.

فاليونسية يتألهون شيخهم، ويجعلونه مظهراً للحق، ويستهينون بالعبادات، ويظهرون بالفرعنة والصولة، والسفاهة والمحالات، لما وقر في بواطنهم من الخيالات الفاسدة، وقبلتهم الشيخ يونس. ورسول الله ﷺ والقرآن المجيد عنهم بمعزل، يؤمنون به بألسنتهم، ويكفرون به بأفعالهم.

وكذلك الاتحادية، يجعلون الوجود مظهرا للحق، باعتبار أن لا متحرك في الكون سواه، ولا ناطق في الأشخاص غيره. وفيهم من لا يفرق بين الظاهر والمظهر، فيجعل الأمر كموج البحر، فلا يفرق بين عين الموجة وبين عين البحر، حتى ان أحدهم يتوهم أنه الله، فينطق على لسانه، ثم يفعل ما اراد من الفواحش والمعاصي، لانه يعتقد ارتفاع الثنوية فَمَنِ العابد ومن المعبود؟ صار الكل واحدا.

اجتمعنا بهذا الصنف في الربط والزوايا.

فأنتم بحمد الله قائمون في وجه هؤلاء أيضاً تنصرون الله ورسوله، وتذبون عن دينه، وتعلمون على إصلاح ما أفسدوا وعلى تقويم ما عوجوا فان

هؤلاء محوا رسم الدين، وقلعو أثره. فلا يقال أفسدوا ولا عوجوا بل بالغوا في هدم الدين ومحو أثره. ولا قربة أفضل عند الله من القيام بجهاد هؤلاء بمهما أمكن، وتبين مذاهبهم للخاص والعام. وكذلك جهاد كل من الحد في دين الله وزاغ عن حدوده وشريعته. كائنا في ذلك ما كان من فتنة وقول. كما قيل:

اذا رضى الحبيب فلا أبالي أقام الحى أم جد الرحيل.

وبالله المستعان.

وكذلك أنتم بحمد الله قائمون بجهاد الأمراء والأجناد، تصلحون ما أفسدوا من المظالم والاجحافات، وسوء السيرة الناشئة عن الجهل بدين الله، بما أمكن. وذلك لبعد العهد عن رسول الله ﷺ. لأن اليوم له سبعمائة سنة، فأنتم بحمد الله تجددون ما دثر من ذلك واندثر.

وكذلك أنتم بحمد الله قائمون في وجوه العامة، مما أحدثوا من تعظيم الميلادة. والقلندس، وخميس البيض. والشعانين، وتقبيل القبور والأحجار، والتوسل عندها. ومعلوم أن ذلك كله من شعائر النصارى والجاهلية. وانما بعث رسول الله ﷺ ليوحد الله ويعبد وحده، ولا يأله معه شيء من مخلوقاته. بعثه الله تعالى ناسخا لجميع الشرائع والأديان والأعياد. فانتم بحمد الله قائمون باصلاح ما أفسد الناس من ذلك.

وقائمون في وجوه من ينصر هذه البدع من مارقي الفقهاء، أهل الكيد والضرار لاولياء الله، أهل المقاصد الفاسدة. والقلوب التي هي عن نصر الحق حائدة.

وإنما اعرض هذا الضعيف عن ذكر قيامكم في وجوه التتر والنصارى، واليهود، والرافضة، والمعتزلة، والقدرية، وأصناف أهل البدع والضلالات لأن الناس متفقون على ذمهم. يزعمون أنهم قائمون برد بدعتهم. ولا يقومون بتوفية حق الرد عليهم كما تقومون. بل يعلمون ويجبنون عن اللقاء فلا يجاهدون، وتأخذهم في الله اللائمة. لحفظ مناصبهم، وابقاء على اعراضهم.

سافرنا البلاد فلم نر من يقوم بدين الله في وجوه مثل هؤلاء - حق القيام - سواكم، فأنتم القائمون في وجوه هؤلاء إن شاء الله. بقيامكم بنصرة شيخكم وشيخنا - أيده الله - حق القيام، بخلاف من ادعى من الناس أنهم يقومون بذلك.

فصبرا يا اخواني على ما أقامكم الله فيه، من نصرة دينه وتقويم اعوجاجه، وخذلان أعدائه. واستعينوا بالله، ولا تأخذكم فيه لومة لائم. وانما هي أيام قلائل. والدين منصور. قد تولى الله اقامته ونصره، ونصرة من قام به من أوليائه، ان شاء الله، ظاهراً وباطناً.

وابذلوا فيما أقمتم فيه ما أمكنكم من الأنفس والأموال، والافعال، والأقوال، عسى ان تلحقوا بذلك بسلفكم أصحاب رسول الله ﷺ. فلقد عرفتم مالقوا في ذات الله، كما قال الغبيب حين صلب على الجذع:-

وذلــك في ذات الآلــه، وان يــشــأ   يــبـارك عـلى أوصـال شـلـو مـمـزع

وقد عرفتم ما لقي رسول الله ﷺ من الضر والفاقة في شعب بني هاشم، وما لقى السابقون الأولون من التعذيب والهجرة الى الحبشة، وما لقي المهاجرون والأنصار في أحد، وفي بئر معونة، وفي قتال أهل الردة، وفي جهاد الشام والعراق، وغير ذلك.

وانظروا كيف بذلوا نفوسهم وأموالهم لله، حباً له، وشوقاً اليه. فكذلك أنتم، رحمكم الله. كل منكم على قدر إمكانه واستطاعته، بفعله، وبقوله، وبخطه، وبقلبه، وبدعائه. كل ذلك جهاد. أرجو ان لا يخيب من عامل الله بشيء من ذلك. اذ لا عيش الا في ذلك، ولو لم يكن فيه الا همكم، مزاحمة لأهل الزيغ، مشوشة لهم، تبغضونهم في الله، وتطلبون استقامتهم في دين الله. وذلك من الجهاد الباطن إن شاء الله تعالى.

ثم يستطرد الشيخ علم الدين أيضاً قائلاً:-

ثم اعرفوا اخواني حق ما أنعم الله عليكم من قيامكم بذلك. واعرفوا طريقكم الى ذلك، واشكروا الله تعالى عليها. وهو إن أقام لكم ولنا في هذا

العصر مثل سيدنا الشيخ الذي فتح الله به أقفال القلوب، وكشف به عن البصائر عمى الشبهات وحيرة الضلالات، حيث تاه العقل بين هذه الفرق، ولم يهتد الى حقيقة دين الرسول ﷺ.

ومن العجب أن كلا منهم يدّعي أنه على دين الرسول، حتى كشف الله لنا ولكم بواسطة هذا الرجل عن حقيقة دينه الذي أنزله من السماء وارتضاه لعباده.

واعلموا أن في آفاق الدنيا أقواما يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الاسلام. فلا يعرفون الاسلام الا هكذا.

فاشكروا الله الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة من بين لكم أعلام دينكم. وهداكم الله به وايانا الى نهج شريعته. وبين لكم بهذا النور المحمدي ضلالات العباد وانحرافاتهم، فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم، والصحيح من السقيم. وأرجو أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة. الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. وهم بالشام ان شاء الله تعالى.

فصل

ثم إذا علمتم ذلك، فاعرفوا حق هذا الرجل الذي هو بين أظهركم وقدره، ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره. فمن وقع دين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من قلبه بموقع يستحقه، عرف حق ما قام به هذا الرجل بين أظهر عباد الله، يقوم معوجهم، ويصلح فسادهم، ويلم شعثهم، جهد امكانه، في الزمان المظلم، الذي انحرف فيه الدين، وجهلت السنين، وعهدت البدع، وصار المعروف منكرا، والمنكر معروفا، والقابض على دينه، كالقابض على الجمر، فان أجر من قام باظهار هذا النور في هذه الظلمات لا يوصف، وخطره لا يعرف.

فالله الله في حفظ الأدب معه، والانفعال لأوامره، وحفظ حرماته في

الغيب والشهادة، وحب من أحبه، ومجانبة من أبغضه وتنقصه ورد غيبته، والانتصار له في الحق.

واعلموا رحمكم الله، أن هنا من سافر الى الأقاليم، وعرف الناس وأذواقهم وأشرف على غالب أحوالهم، فوالله، ثم والله ثم والله، لم ير أديم تحت السماء مثل شيخكم: علماً، وعملاً، وحالاً، وخلقاً، واتباعاً، وكرماً وحلماً. في حق نفسه، وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته. أصدق الناس عقداً، وأصلحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفاً، وأكملهم اتباعا لنبيه محمد ﷺ.

ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل. بحيث يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الإتباع حقيقة.

وبعد ذلك كله فقول الحق فريضة، فلا ندعي فيه العصمة عن الخطأ، ولا ندعي اكماله لغايات الخصائص المطلوبة. فقد يكون في بعض الناقصين خصوصية مقصودة مطلوبة، لا يتم الكمال الا بهاتيك الخصوصية وهذا القدر لا يجهله منصف عارف. ولولا أن قول الحق فريضة، والتعصب للانسان هوى، لأعرضت عن ذكر هذا - لكن يجب قول الحق - ان ساء أو سر. والله المستعان.

إذا علمتم ذلك - أيدكم الله تعالى - فاحفظوا قلبه، فان مثل هذا قد يدعى عظيما في ملكوت السماء. واعملوا على رضاه بكل ممكن واستجلبوا وده لكم، وحبه اياكم بمهما قدرتم عليه. فان مثل هذا يكون شهيدا، والشهداء في العصر لمثله، فان حصلت لكم محبته رجوت لكم بذلك خصوصية أكتمها ولا أذكرها، وربما يفطن لها الأذكياء منكم، وربما سمحت نفسي بذكرها، كيلا أكتم عنكم نصحي.

وتلك الخصوصية: هي أن ترزقوا قسطا من نصيبه الخاص المحمدي مع الله تعالى. فان ذلك انما يسري بواسطة محبة الشيخ للمريد، واستجلاب المريد محبة الشيخ بتأتيه معه، وحفظ قلبه وخاطره، واستجلاب وده ومحبته،

فأرجو بذلك لكم قسطا مما بينه وبين الله تعالى، فضلا عما تكسبونه من ظاهر علمه وفوائده وسياسته، إن شاء الله تعالى.

وأرجو أنكم اذا فتحتم بينكم وبين ربكم تعالى بصحيح المعاملة بحفظ تلك الساعة في الصلوات الخمس والتهجد أن ينفتح لكم معرفة حقيقية هذا الرجل ونبأه إن شاء الله تعالى.

وإنما ذكرت حفظ الساعة - وان كان في الصلوات الخمس كفاية. اذا قام العبد فيها لحق الله تعالى - وذلك لأن الصلوات قد تهجم على العبد وقلبه مأخوذ في جوانب الظاهر، فلا يعرف نصيب قلبه من ربه فيها، فاذا كان للعبد ساعة بين الليل والنهار عرف فيها نصيب قلبه من ربه، فاذا جاءت الصلوات، عرف فيها حاله وزيادته ونقصانه باعتبار حالته مع ربه في تلك الساعة. وبالله المستعان.

واذا عرفتم قدر دين الله تعالى الذي أنزله على رسوله ﷺ، وعرفتم قدر حقائق الدين الذي يعبر عنه بالنفوذ إلى الله تعالى، والخطوة بقربه. ثم عرفتم اجتماع الأمرين في شخص معين، ثم عرفتم انحراف الأمة عن الصراط المستقيم، وقيام الرجل المعين الجامع الظاهر والباطن في وجوه المنحرفين، بنصر الله تعالى ودينه، ويقوم معوجهم، ويلم شعثهم، ويصلح فاسدهم. ثم سمعتم بعد ذلك طعن طاعن عليه من أصحابه أو من غيرهم، فإنه لا يخفى عنكم محق هو، أو مبطل؟ إن شاء الله.

وبرهان ذلك: أن المحق طالب الهدى والحق بغرض عند من أنكر عليه ذلك أنكره، إما بصيغة السؤال أو الاستفهام بالتلطف عن ذلك النقص الذي رآه فيه، أو بلغه عنه، فإن وجد هناك اجتهاداً، أو رأياً أو حجة، قنع بذلك، وأمسك، ولم يفش ذلك إلى غيره، إلا مع إقامة ما بينه من الاجتهاد، أو الرأى أو الحاجة، ليسد الخلل بذلك. فمثل هذا يكون طالب هدى، محباً، ناصحاً، يطلب الحق، ويروم تقويم أستاذه عن انحرافه بتعريفه وتفويضه. كما يروم أستاذه تقويمه. كما قال بعض الخلفاء الراشدين (هو أبو بكر الصديق

رضي الله عنه - كذا في المنقول عنه - أ هـ من هامش الأصل وذلك في أول خطبة قام بها بع الخلافة ويروى أيضاً عن عمر:)- ولا يحضرني اسمه - "إذا اعوججت فقوموني".

فهذا حق واجب بين الأستاذ والطالب. فإن الأستاذ والطالب. فإن الأستاذ يطلب إقامة الحق على نفسه ليقوم به، ويتهم نفسه أحياناً، ويتعرف أحواله من غيره، مما عنده من النصفة وطلب الحق، والحذر من الباطل، كما يطلب المريد ذلك من شيخه من التقويم، وإصلاح الفاسد من الأعمال والأقوال.

ومن براهين الحق: أن يكون عدلا في مدحه، عدلا في ذمه، لا يحمله الهوى - عند وجود المراد - على الافراط في المدح، ولا يحمله الهوى - عند تعذر المقصود - على نسيان الفضائل والمناقب، وتعديد المساوىء والمثالب.

فالمحق في حالتي غضبه ورضاه ثابت على مدح من مدحه وأثنى عليه، ثابت على ذم من ثلبه وحطظ عليه.

وأما من عمل كراسة في عد مثالب هذا الرجل القائم بهذه الصفات الكاملة بين أصناف هذا العالم المنحرف، في هذا الزمان المظلم، ثم ذكر مع ذلك شيئاً من فضائله، ويعلم أنه ليس المقصود ذكر الفضائل، بل المقصود تلك المثالب. ثم أخذ الكراسة يقرؤها على أصحابه واحدا واحدا في خلوة، يوقف بذلك همهم عن شيخهم، ويريهم قدحا فيه. فاني استخير الله تعالى وأجتهد رأيي في مثل هذا الرجل، وأقول انتصارا لمن ينصر دين الله، بين أعداء الله في رأس السبعمائة، فان نصرة مثل هذا الرجل واجبة على كل مؤمن كما قال ورقة بن نوفل: "لئن أدركني يومك لانصرنك نصرا مؤزرا (رواه البخاري في بدء الوحي) "ثم أسأل الله تعالى العصمة فيما أقول عن تعدى الحدود والاخلاد الى الهوى.

أقول: مثل هذا - ولا أعين الشخص المذكور بعينه - لا يخلو من أمور: -

أحدها: أن يكون ذا سن تغير رأيه لسنه. لا بمعنى أنه اضطرب بل بمعنى أن السن اذا كبر يجتهد صاحبه للحق. ثم يضعه في غير مواضعه. مثلا يجتهد أن انكار المنكر واجب. وهذا منكر. وصاحبه قد راج على الناس. فيجب على تعريف الناس ما راج عليهم، وتغيب عليه المفاسد في ذلك.

فمنها: تخذيل الطلبة، وهم مضطرون الى محبة شيخهم، ليأخذوا عنه. فمتى تغيرت قلوبهم عليه ورأوا فيه نقصا حرموا فوائده الظاهرة والباطنة. وخيف عليهم المقت من الله أولاً. ثم من الشيخ ثانياً.

المفسدة الثانية: اذا شعر اهل البدع الذين نحن وشيخنا قائمون الليل والنهار بالجهاد والتوجه في وجوههم لنصرة الحق: أن في أصحابنا من ثلب رئيس القوم بمثل هذا. فانهم يتطرقون بذلك الى الاشتفاء من أهل الحق ويجعلونه حجة لهم.

المفسدة الثالثة: تعديد المثالب في مقابلة ما يستغرقها ويزيد عليها بأضعاف كثيرة من المناقب، فان ذلك ظلم وجهل.

والأمر الثاني، من الأمور الموجبة لذلك: تغير حالة وقلبه. وفساد سلوكه بحسد كان كامناً فيه. وكان يكتمه برهة من الزمان. فظهر ذلك الكمين في قالب، صورته حق ومعناه باطل.

وفي الجملة - أيدكم الله - اذا رأيتم طاعنا على صاحبكم فافتقدوه في عقله أولاً، ثم في فهمه، ثم في صدقه، ثم في سنه. فاذا وجدتم الاضطراب في عقله، دلكم على جهله بصاحبكم. وما يقول فيه وعنه. ومثله قلة الفهم. ومثله عدم الصدق، أو قصوره، لأن نقصان الفهم يؤدي الى نقصان الصدق بحسب ما غاب عقله عنه. ومثله العلو في السن فانه يشيخ فيه الرأي والعقل كما تشيخ فيه القوى الظاهرة الحسية، فاتهموا مثل هذا الشخص واحذروه، واعرضوا عنه اعراض مداراة بلا جدل ولا خصومة.

وصفة الامتحان بصحة ادراك الشخص وعقله وفهمه: أن تسألوه عم مسألة سلوكية. أو علمية، فاذا أجاب عنها فأوردوا على الجواب اشكالا

متوجها بتوجيه صحيح، فان رأيتم الرجل يروح يميناً وشمالاً، ويخرج عن ذلك المعنى الى معان خارجة، وحكايات ليست في المعنى حتى ينسى رب المسألة سؤاله، حيث توهه عنه بكلام لا فائدة فيه، فمثل هذا لا تعتمدوا على طعنه، ولا على مدحه، فانه ناقص الفطرة، كثير الخيال، لا يثبت على تحري المدارك العلمية، ولا تنكروا مثل انكار هذا. فانه اشتهر قيام ذي الخويصرة التميمي الى رسول الله ﷺ وقوله له "اعدل - فانك لم تعدل - ان هذه قسمة لم يرد بها وجه الله تعالى" أو نحو ذلك.

فوقوع هذا وأمثاله من بعض معجزات الرسول ﷺ. فانه قال: "لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة" وان كان ذلك في اليهود والنصارى، لكن لما كانوا منحرفين عن نهج الصواب، فكذلك يكون في هذه الأمة من يحذو حذو كل منحرف وجد في العالم، متقدما كان أو متأخرا، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

يا سبحان الله العظيم، أين عقولاء هؤلاء؟ أعميت أبصارهم وبصائرهم؟ أفلا يرون ما الناس فيه من العمى والحيرة في الزمان المظلم المدلهم، الذي قد ملكت فيه الكفار معظم الدنيا؟ وقد بقيت هذه الخطة الضيقة، يشم المؤمنون فيها رائحة الاسلام؟ وفي هذه الخطة الضيقة من الظلمات من علماء السوء والدعاة الى الباطل واقامته، ودحض الحق وأهله ما لا يحصر في كتاب. ثم ان الله تعالى قد رحم هذه الامة باقامة رجل قوي الهمة، ضعيف التركيب، قد فرق نفسه وهمه مصالح العالم، واصلاح فسادهم، والقيام بمهماتهم، وحوائجهم، ضمن ما هو قائم بصدد البدع والضلالات، وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم، ويردهم الى الدين الاول العتيق جهد امكانه؟ والا فأين حقيقة الدين العتيق؟

فهو مع هذا كله قائم بجملة ذلك وحده، وهو منفرد بين أهل زمانه، قليل ناصره، كثير خاذله، وحاسده، والشامت فيه!!

فمثل هذا الرجل في هذا الزمان، وقيامه بهذا الامر العظيم الخطير فيه.

أيقال له: لمَ ترد على الاحمدية؟ لم لا تعدل في القسمة؟ لم تدخل على الامراء؟ لم تقرب زيدا وعمرا؟

أفلا يستحي العبد من الله؟ يذكر مثل هذه الجزئيات في مقابلة هذا العبءِ الثقيل؟ ولو حوقق الرجل على هذه الجزئيات وجد عنده نصوص صحيحة، ومقاصد صحيحة ونيات صحيحة!! تغيب عن الضعفاء العقول، بل عن الكمل منهم، حتى يسمعوها.

أما رده على الطائفة الفلانية ايها المفرط التائه، الذي لا يدري ما يقول. أفيقوم دين محمد بن عبد الله الذي أنزل من السماء، الا بالطعن على هؤلاء؟ وكيف يظهر الحق ان لم يخذل الباطل؟ لا يقول مثل هذا الا تائه، أو مسن أو حاسد.

وكذلك القسمة للرجل، في ذلك اجتهاد صحيح. ونظر الى مصالح تترتب على اعطاء قوم دون قوم، كما خص الرسول ﷺ الطلقاء بمائة من الابل، وحرم الأنصار! حتى قال منهم احداثهم شيئاً في ذلك. لاذووا أحلامهم، وفيها قام ذو الخويصرة فقال ما قال، وأما دخوله على الأمراء، فلو لم يكن، كيف كان شم الأمراء رائحة الدين العتيق الخاص؟ ولو فتش المفتش، لوجد هذه الكيفية التي عندهم من رائحة الدين، ومعرفة المنافقين، انما اقتبسوها من صاحبكم.

وخاتمة الخير على عمله، وأن يرده عن انحرافه الى نهج الصواب، بحيث لا يبقى معشره يعيبه بعلمه، وتصنيفه، من اولى العقول والأحكام ونستغفر الله العظيم، من الخطأ والزلل، في القول والعمل. والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ا هـ (تمت هذه الرسالة التي سماها مؤلفها الشيخ علم الدين رحمه الله التذكرة والاغيار، والانتصار للابرار وقد نقلناها من كتاب العقود الدرية لابن عبد الهادي من ص ٢٩١ الى ٣٢١).

الباب العاشر

ابن تيمية: مصنفاته وتآليفه

مصنفات ابن تيمية تربو على ثلاثمائة مجلد وقد وزعت مصنفاته على سنى عمره فوجد انها تبلغ في كل يوم أربعة كراريس، ولا غرر في ذلك فقد كتب الرسالة الحموية وهي تقع في نحو سبعين صفحة من القطع المتوسط في جلسة بين الظهر والعصر كما قال الذهبي. وكتب اربعة مجلدات كاملة في الرد على الاخنائي المالكي في مسألة شد الرحال الى زيارة القبور وأربع مجلدات على سؤال واحد سماه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح). وهذه طائفة من تصانيفه كما ذكرها ابن رجب.

قال:

واما تصانيفه رحمه الله: فهي أشهر من أن تذكر، واعرف من ان تنكر. سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار. قد جاوزت حد الكثرة، فلا يمكن احد حصرها، ولا يتسع هذا المكان لعد المعروف منها، ولا ذكرها.

ولنذكر نبذة من أسماء أعيان المصنفات الكبار: كتاب "الايمان" مجلد، كتاب "الاستقامة" مجلدان "جواب الاعتراضات المصرية على الفتاوي الحموية" أربع مجلدات، كتاب "تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" في ست مجلدات كبار، كتاب "المحنة المصرية" مجلدان "المسائل الاسكندرانية" مجلد "الفتاوى المصرية" سبع مجلدات.

وكل هذه التصانيف ما عدا كتاب "الايمان" كتبه وهو بمصر في مدة سبع سنين صنفها في السجن. وكتب معها اكثر من مائة لفة ورق ايضاً، كتاب "درء تعارض العقل والنقل" أربع مجلدات كبار. والجواب عما أورده للشيخ كمال الدين بن الشربشي على هذا الكتاب، نحو مجلد كتاب "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية" أربع مجلدات "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" مجلدان "شرح أول المحصل للرازي" مجلد "شرح بضعة عشر مسألة من الأربعين للرازي" مجلدان "الرد على المنطق" مجلد كبير "الرد على البكري في مسألة الاستغاثة" مجلد "الرد على أهل كسروان الروافض" مجلدان "الصفدية"، "جواب من قال: ان معجزات الأنبياء قوى نفسانية" مجلد "الهلاونية" مجلد "شرح عقيدة الأصبهاني" مجلد "شرح العمدة" للشيخ موفق الدين. كتب منه نحو أربع مجلدات "تعليقة على المحرر" في الفقه لجده عدة مجلدات "الصارم المساول على شاتم الرسول مجلد، "بيان الدليل على بطلان التحليل" مجلد "اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم" مجلد "التحرير في مسألة حفير" مجلد في مسألة من القسمة، كتبها اعتراضا على الخوى في حادثة حكم فيها "الرد الكبير على من اعترض عليه في مسألة الحلف بالطلاق" ثلاث مجلدات، كتاب "تحقيق الفرقان بين التطليق والأيمان" مجلد كبير "الرد على الأخنائي في مسألة الزيارة" مجلد. وأما القواعد المتوسطة والصغار وأجوبة الفتاوى: فلا يمكن الاحاطة بها، لكثرتها وانتشارها وتفرقها. ومن أشهرها "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" مجلد لطيف "الفرقان بين الحق والبطلان" مجلد لطيف "الفرقان بين الطلاق والأيمان" مجلد لطيف "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية" مجلد لطيف "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" مجلد لطيف.

السبب في إكثاره في الأصول: -

قال الحافظ ابو حفص عمر بن علي البزار المتوفي سنة ٧٤٩ - تلميذ شيخ الاسلام.

ولقد اكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول فضلا عن غيره من بقية العلوم فسألته عن سبب ذلك والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الافتاء. فقال لي ما معناه: الفروع أمرها قريب، فاذا قلد المسلم فيها احد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقن خطأه. واما الأصول فاني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية، والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة، والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسلمية وغيرهم من اهل البدع قد تجاذبوا فيها، بأزمة الضلال، وبان لي أن كثيرا منهم انما قصد ابطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة على كل دين، العلية. وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضا عن الكتاب والسنة، مقبلا على مقولاتهم الا وقد تزندق أوصار على غير يقين في دينه أو اعتقاده. فلما رأيت/ الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم. وزيف دلائلهم ذبا عن الملة الحنيفية، والسنة الصحيحية الجلية. ولا والله ما رأيت فيهم احدا ممن صنف في هذا الشان، وادعى علو المقام، الا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الاسلام. وسبب ذلك اعاضه عن الحق الواضح المبين، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه ضرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم حكميات وعقليات، وانما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها معرضا عن غيرها اصلا ورأساً. فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم فتخبط حتى خبط فيها خبط (الاعلام العلية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية للحافظ البزار بتحقيق دكتور صلاح الدين المنجد ص ٣٤،٣٥) عشواء، ولم يفرق بين الحق والباطل، والا فالله أعظم لطفاً بعباده من (اخرجه مسلم عن ابي سعيد وابي هريرة معا) أن لا يجعل لهم عقلا يقبل الحق ويثبته، ويبطل الباطل وينفيه. لكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال. وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانا يزن به العبد الواردات فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق، وما هو من قبيل الباطل. ولم

يبعث الله الرسل الا الى ذوي العقل، ولم يقع التكليف الا مع وجوده، فكيف يقال انه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟ هذا باطل قطعاً يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (متفق عليه).

قال الشيخ الامام قدس الله روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي/ الى الأصول، والزمني أن أوردت مقالاتهم وأوجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية".

الباب الحادي عشر
تحقيق القول في مسألة خلود الجنة والنار

ذكرت في المقدمة أن السبب الذي حداني أن أجمع هذه الرسالة هو إتمام ذلك الأستاذ للإمام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه خالف الإجماع لأنه قال بفناء نار الآخرة.

والحقيقة أن الإمام ابن تيمية نفسه ليس له قول صريح في هذا بل أقواله في الفتاوي أن الجنة والنار مخلوقتان باقيتان لا تفنيان، وأما الذي قال صراحة بفناء النار فهو الإمام ابن القيم تلميذ الشيخ ابن تيمية وقد كتب في هذا فصلاً مطولاً جداً في كتابه الفريد (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) وقد استدل لقوله الذي رجحه هذا بأنه هو المنقول عن عامة الصحابة وجمهور التابعين، وأنه لا يذكر للصحابة قول مخالف وقد كتب أيضاً ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في هذه المسألة فصلاً في شرح العقيدة الطحاوية بين فيه مذاهب المسلمين في هذه القضية حيث يقول:

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال: أحدهما: أن من دخلها لا يخرج منها أبدا الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة. والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي!! الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ

أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٨٠ - ٨١). الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد. الخامس: أنها تفني نفسها بنفسها، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاءه!! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم. السادس: تفني حركات أهلها ويصيرون جماداً، لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف كما تقدم. السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئاً، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه. الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا، كما قال الشيخ رحمه الله. وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتهما.

فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٢٨). وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (هود: ١٠٦ - ١٠٧). ولم يأت بعد هذين الاستثنائين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ هود: ١٠٨. وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النَبَإِ: الآية ٢٣]. وهذا القول، أعني بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم. وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر رضي الله عنه، أنه قال: "لو لبث أهل النار في لنار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه" (قال ناصر الدين الألباني ضعيف، لأنه من روايته عن الحسن قال: قال عمر. والحسن لم يدرك عمر رضي الله عنه. وقال ابن القيم في "حادي الأرواح" (٢/ ٧١ طبع الكردي) عقبه: "والحسن لم يسمع من عمر. ومع ذلك فقد حاول تقويته

بكلام خطابي، لا غناء فيه (راجع المستدرك) وقد روي نحوه عن عبد الله ابن عمرو موقوفاً بسند، ضعيف، وعن أبي امامه مرفوعاً بسند فيه تالف، وقد تكلمت عليه في "سلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة" ضمن المائة السابعة)، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النبأ: ٢٣] قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته. وقد قال ﷺ: "لما قضى الله الخلق، كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي" (متفق عليه). وفي رواية: "تغلب غضبي". رواه البخاري في "صحيحه" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٥] . و﴿أَلِيمٌ﴾ [هود: الآية ٢٦] . و﴿عقيم﴾ (الحج: ٥٥). / ولم يخبر / ولا في موضع أحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٥). وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: الآية ٧] ، فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته. وقد ثبت في "الصحيح" تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة (أخرجه مسلم في حديث لأبي هريرة في عقوبة مانع الزكاة يوم القيامة. وفي الباب عن ابن عمرو عند الحاكم. (٤/ ٥٧٢) وصححه ووافقه الذهبي)، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحمة الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآبد عذاباً سرمداً لا نهاية له. وأما أنه يخلق خلقاً ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيماً سرمداً، فمن مقتضى الحكمة. والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض. قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام - : كله حق مسلم، لان نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد. ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتفاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

[المَائدة: الآية ٣٧] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٧٥] .﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النّبَإِ: الآية ٣٠] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [البينة: الآية ٨] ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٤٨] ، (هذه الآية في أهل الجنة، فلعله أراد آية المائدة ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾) . ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرة: الآية ١٦٧] .

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٠] ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ (فاطر: ٣٦).

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ الفرقان: ٦٥، أي مقيماً لازماً. وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله: وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بابقاء الله لهما". ا هـ منعه بلفظه.

وهكذا يتبين من هذا النقل أن علماء أهل السنة في هذه المسألة على قولين وأن المنقول عن بعض خيار الصحابة هو القول بفناء النار في نهاية الأمر، دون الجنة. فإنهم مجمعون على بقائها بقاءً سرمدياً.

* ولأهمية البحث الذي كتبه ابن القيم رحمه الله حول هذه القضية ننقله بنصوصه من كتابه حادي الأرواح ليتبين لقارئ هذه الرسالة منزلة هذين الإمامين في العلم الشرعي وتحري الحق ومعرفة الدليل والوقوف عند أقوال السلف وأنهما لا يقولان قولاً لم يسبقا إليه وأن ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام إنما هو قبس من نور شيخ الإسلام وشعلة من ناره ولذلك قال ابن حجر رحمه الله لو لم يكن من فضل لابن تيمية ابن القيم لكفى: والآن إلى تحقيق ابن القيم الفريد في مسألة خلود الجنة والنار.

علماً أن جامع هذه الرسالة لا يذهب إلى ما ذهب إليه ابن القيم في المسألة وإنما ننقل ما ذكره ابن القيم هنا لبيان أنه متأول للنصوص القرآنية وناقل عن سلف له، وليس متحكماً برأيه وهواه. ولكننا مع ذلك نرى أن الأسلم هو الإيمان بخلود النار أيضاً خلوداً سرمدياً لأن هذا هو الذي يتماشى مع ظاهر

النصوص، ولا يجوز لنا التحول عن هذا الظاهر إلا بدليل شرعي ظاهر قوي، ويبدو أن هذا الدليل ليس موجوداً هنا. والله تعالى أعلم وعلى كل حال فهذه المسألة لا ينبني عليها عمل ومن الأفضل ترك تفصيل القول فيها.. وهذا هو ما حققه ابن القيم في هذه المسألة:

قال: الباب السابع والستون

في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد:

وهذا مما يعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ أخبر به قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (سورة هود، الآية ١٠٨) (٢٢ - حادي الأرواح) أي مقطوع. ولا تنافى بين هذا وبين قوله إلا ما شاء ربك. واختلف السلف في هذا الاستثناء. فقال معمر عن الضحاك: هو في الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة يقول سبحانه: أنهم خالدون في الجنة ما دامت السموات والأرض إلا مدة مكثهم في النار.

قلت: وهذا يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون الاخبار عن الذين سعدوا وقع عن قوم مخصوصين وهم هؤلاء.

والثاني: وهو الأظهر أن يكون وقع عن جملة السعداء والتخصيص بالمذكورين هو الاستثناء وما دل عليه. وأحسن من هذين التقديرين أن ترد المشيئة إلى الجميع حيث لم يكونوا في الجنة في الموقف. وعلى هذا فلا يبقى في الآية تخصيص. وقالت فرقة أخرى: هو استثناء استثناه الرب تعالى ولا يفعله كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وأنت لا تراه. بل تجزم بضربه.

وقالت فرقة أخرى: العرب اذا استثنت شيئاً كثيراً مع مثله ومع ما هو

أكثر منه، كان معنى الا في ذلك ومعنى الواو سواء والمعنى على هذا سوى ما شاء الله من الزيادة مدة دوام السموات والأرض. هذا قول الفراء وسيبويه: يجعل إلا بمعنى سوى قالوا: ونظير ذلك أن تقول: لي عليك ألف الا الألفين الذين قبلها أي سوى الألفين. قال ابن جرير: وهذا هو أحب الوجهين إلي، لأن الله تعالى لا خلف لوعده وقد وصل الاستثناء بقوله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

قالوا: ونظير أن نقول: أسكنتك داري حولا إلا ما شئت أي سوى ما شئت من الزيادة عليه.

وقالت فرقة أخرى: هذا الاستثناء إنما هو مدة احتباسهم عن الجنة ما بين الموت والبعث وهو البرزخ إلى أن يصيروا إلى الجنة ثم هو خلود الأبد فلم يغيبوا عن الجنة إلا بمقدار اقامتهم في البرزخ. وقالت فرقة أخرى: العزيمة قد وقعت لهم من الله بالخلود الدائم إلا أن يشاء الله خلاف ذلك اعلاماً لهم بأنهم من خلودهم في مشيئته وهذا كما قال لنبيه ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ (سورة الإسراء، الآية ٨٦.). وقوله ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: الآية ٢٤] وقوله ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [يُونس: الآية ١٦] ونظائره وأخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقالت فرقة أخرى: المراد بمدة دوام السموات والأرض في هذا العالم فأخبر سبحانه أنهم خالدون في الجنة مدة دوام السموات والأرض إلا ما شاء الله ان يزيدهم عليه. ولعل هذا قول من قال إنّ إلاّ بمعنى سوى ولكن اختلف عبارته وهذا اختيار ابن قتيبة. قال: المعنى خالدين فيها مدة العالم سوى ما شاء أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم وقالت فرقة أخرى: ما بمعنى من قوله ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: الآية ٣]، والمعنى الا من شاء ربك أن يدخله النار بذنوبه من السعداء والفرق بين هذا القول وبين أول الأقوال: أن الاستثناء على ذلك القول من المدة وعلى هذا القول من الأعيان.

وقالت فرقة أخرى: المراد بالسموات والأرض سماء الجنة وأرضها، وهم باقيتنان أبداً وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] ان كانت ما بمعنى فهم الذين يدخلون النار ثم يخرجون منها، وان كانت بمعنى الوقت فهو مدة احتسابهم في البرزخ والموقف، قال الجعفي: سألت عبد الله بن وهب عن هذا الاستثناء، فقال سمعت فيه أنه قدر وقوفهم يوم القيامة إلى أن يقضي بين الناس.

وقالت فرقة أخرى: الاستثناء راجع إلى مدة لبثهم في الدنيا وهذه الأقوال متقاربة ويمكن الجمع بينها بأن يقال أخبر سبحانه عن خلودهم في الجنة كل وقت إلا وقتا يشاء أن لا يكونوا فيها وذلك يتناول وقت كونهم في الدنيا وفي البرزخ وفي موقف القيامة وعلى الصراط، وكون بعضهم في النار مدة وعلى كل تقدير فهذه الآية من المتشابه وقوله فيها ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم وكذلك قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ وقوله ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرّعد: الآية ٣٥] وقوله ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٤٨].

وقد أكد الله سبحانه خلود أهل الجنة بالتأييد في عدة مواضع من القرآن وأخبر أنهم لا يذقون فيها الموت إلا الموتة الأولى. وهذا الاستثناء منقطع وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] تبين لك المراد من الآيتين واستثناء الوقت الذي لم يكونوا في الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية. وذلك مفارقة للجنة تقدم على خلودهم فيها. وبالله التوفيق.

وقد تقدم قول النبي ﷺ "من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت" وقوله "ينادي مناد يا أهل الجنة أن لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً".

وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: "يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون مشفقين ويقال: يا أهل النار فيطلعون فرحين فيقال هل تعرفون

هذا فيقولون: نعم هذا الموت فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

فصل

وهذا موضع اختلف فيه المتأخرون على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن الجنة والنار فانيتان غير أبديتين بل كما هما حادثتان فهما فانيتان.

والقول الثاني : انهما باقيتان دائمتان لا يفنيان أبداً.

والقول الثالث: ان الجنة باقية أبدية والنار فانية، ونحن نذكر هذه الأقوال وما قابلها وما احتج به أرباب كل قول، ونرد ما خالف كتاب الله وسنة رسوله. فأما القول بفنائهما فهو قول قاله جهم بن صفوان إمام المعطلة الجهمية، وليس له فيه سلف قط من الصحابة ولا من التابعين ولا أحد من أئمة الإسلام ولا قال به أحد من أهل السنة. وهذا القول مما أنكره عليه وعلى أتباعه أئمة الإسلام وكفروهم به وصاحوا بهم من أقطار الأرض، كما ذكره عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة عن خارجة بن مصعب أنه قال: كفرت الجهمية بثلاث آيات من كتاب الله عز وجل، بقول الله سبحانه وتعالى ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرّعد: الآية ٣٥] وهم يقولون لا يدوم، وبقول الله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ (سورة ص آية ٥٤) وهم يقولون ينفذ، ويقول الله عز وجل ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ (سورة النحل آية ٩٦).

قال شيخ الإسلام: وهذا قاله جهم لأصله الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وهو عمدة أهل الكلام التي استدلوا بها على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يحل من الحوادث وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العلام، فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنع في المستقبل فداوم الفعل ممتع عنده على الرب تبارك وتعالى في

المستقبل، ما هو ممتنع عنده عليه في الماضي.

وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات لكونها متعاقبة شيئاً بعد شيء. فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة، وزعمت فرقة ممن وافقهم على امتناع حوادث لا نهاية لها أن هذا القول مقتضى العقل، لكن لما جاء السمع ببقاء الجنة والنار قلنا بذلك، وكأن هؤلاء لم يعلمون ما كان ممتعاً في العقل لا يجيء الشرع بوقوعه اذ يستحيل عليه أن يخبر بوجودها ما هو ممتنع في العقل وكأنهم لم يفرقوا بين محالات العقول ومجازاتها، فالسمع يجيء بالثاني لا بالأول فالسمع يجيء بما يعجز العقل عن إدراكه ولا يستقل به ولا يجيء بما يعلم العقل إحالته.

والأكثرون الذين وافقوا جهماً وأبا الهذيل على هذا الأصل فرقوا بين الماضي والمستقبل، وقالواك الماضي قد دخل في الوجود بخلاف المستقبل، والممتنع إنما هو دخول ما لا يتناهى في الوجود لا تقدير دخوله شيئاً بعد شيء. قالوا: وهذا نظير أن يقول القائل: لا أعطيك درهماً إلا وأعطيك بعده درهماً آخر فهذا ممكن، والأول نظير أن يقول: لا أعطيك درهماً إلا وأعطيك قبله درهماً فهذا محال، وهؤلاء عندهم وجود مالا يتناهى في الماضي محال ووجوده في المستقبل واجب، ونازعهم في ذلك آخرون فقالوا: بل الأمر في الماضي كهو في المستقبل ولا فرق بينهما، بل الماضي والاستقبال أمر نسبي فكل ما يكون مستقبلاً يصير ماضياً وكل ماض فقد كان مستقبلاً فلا يعقل امكان الدوام في أحد الطرفين وإحالته في الطرف الآخر.

قالوا: وهذه مسألة دوام فاعلية الرب تبارك وتعالى وهو لم يزل رباً قادراً فعالا فإنه لم يزل عليماً قديراً، ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعاً عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكناً لذاته من غير تجديد شيء وليس للازم حد محدود حتى يصير الفعل ممكناً عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعاً عليه فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده ويكفي في فساده أن الوقت الذي انقلب

فيه من الإحالة الذاتية إلى الامكان الذاتي إما أن يصح أن يفرض قبله وقت يمكن فيه الفعل أو لا يصح.

فإن قلتم لا يصح كان هذا تحكماً غير معقول وهو من جنس الهوس، وإن قلتم يصح: قيل وكذلك ما يفرض قبله لا إلى غاية، فما من زمن محقق أو مقدار الا والفعل ممكن فيه وهو صفة كمال وإحسان ومتعلق حمد رب تعالى وربوبيته وملكه وهو لم يزل رباً حميداً ملكاً قادراً لم تتجدد له هذه الأوصاف كما أنه يزل حياً مريداً عليما. والحياة والإرادة والعلم والقدرة تقضي آثارها ومتعلقاتها، فكيف يعقل حي قدير عليم مريد ليس له مانع ولا قاهر يقهره يستحيل عليه أن يفعل شيئاً البتة؟

وكيف يجعل هذا أصل من أصول الدين ويجعل معياراً على ما أخبر الله به ورسوله ويفرق به بين جائزات العقول ومحالاتها؟ فإذا كان هذا شأن الميزان فكيف يستقيم الموزون به، وأما قول من فرق بأن الماضي قد دخل في الوجود دون المستقبل فكلام لا تحقيق وراءه، فان الذي يحضره الوجود من الحركات هو المتناهي ثم يعدم فيصير ماضياً، كما معدوماً لما كان مستقبلاً فوجوده بين عدمين وكلما اتقضت جملة حدثت بعدها جملة أخرى، فالذي صار ماضياً هو بعينه الذي كان مستقبلاً فان الدليل على امتناع مالا يتناهى شيئاً قبل شيء فهو بعينه، دل على امتناعه شيئاً بعد شيء.

وأما تفريقكم بقولكم المستقبل نظير قوله: ما أعطيك درهماً وأعطيك قبله درهما، فهذا ممكن. والماضي نظير قوله ما أعطيك درهما إلا وأعطيك قبله درهما، فهذا الفرق فيه تلبيس لا يخفى وليس بنظير ما نحن فيه بل نظيره أن يقول ما أعطيك درهماً إلا وقد تقدم مني اعطاء درهم قبله. فهذا ممكن الدوام في الماضي على حد امكانه في المستقبل ولا فرق في العقل الصحيح بينهما البتة، ولما لم يجد الجهم وأبو الهذيل وأتباعهما بين الأمرين فرقا قالوا: بوجوب تناهي الحركات في المستقبل كما يجب ابتدائها عندهم في الماضي.

وقال أهل الحديث بل هما سواء في الأماكن والوقوع ولم يزل الرب

سبحانه وتعالى فعلاً لما يريد ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال منعوتاً بنعوت الجلال. وليس المتمكن من الفعل كل وقت كالذي لا يمكنه الفعل إلا في وقت معين وليس من يخلق كمن لا يخلق، ومن يحسن كمن لا يحسن، ومن يدبر الأمر كمن لا يدبر، وأي كمال في أن يكون رب العالمين معطلا عن الفعل في مدة مقدرة أو محققة لا تتناهى يستحيل منه الفعل وحقيقة ذلك أنه لا يقدر عليه.

وان أبيتم هذا الاطلاق وقلتم أن المحال لا يوصف بكونه غير مقدور عليه، فجعتم بين محالين الحكم بإباحة الفعل من غير موجب لاحالته وانقلابه من الاحالة الذاتية إلى الامكان الذاتي من غير تجدد سبب وزعمتم أن هذا هو الأصل الذي تثبتون به وجود الصانع وحدوث العالم وقيامة الأبدان فجنيتم على العقل والشرع، والرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته ولم يزل فعالاً لما يريد ولم يزل رباً محسناً.

والمقصود: أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين. والذين قالوه إنما تلقوه عن قياس فاسد كما اشتبه أصله على كثير من الناس فاعتقدوه حقاً وبنوا عليه القول بخلق القرآن ونفي الصفات وقد دل القرآن والسنة والعقل الصريح على أن كلمات الله وأفعاله لا تتناهى ولا تنقطع بآخر ولا تحد بأول، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ٢٧] فأخبر عن عدم نفاذ كلماته لعزته وحكمته وهذان وصفان ذاتيان له سبحانه وتعالى لا يكون إلا كذلك.

وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن سليمان بن عامر قال: سمعت الربيع ابن أنس يقول أن مثل علم العباد كلهم في علم الله عز وجل كقطرة من هذه

البحور كلها وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: الآية ٢٧].

وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] . يقول سبحانه وتعالى: قل لو كان البحر مداداً لكلمات الله والشجر كلها أقلام لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر وكلمات الله تعالى باقية لا يفنيها شيء لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي بل هو كما أثنى على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما يقول، ثم ان مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

فصل

وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلم: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين، وقلت: ههنا أقوال سبعة:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبداً بل من دخلها خلد فيها أبد الآباد بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي.

قال في فصوصه: الثناء بصدق الوعد لا يصدق الوعيد والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات، فيثنى عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٧] لم يقل وعيده بل قال: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: الآية ١٦] مع أنه توعد على ذلك، وأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد وقد زال الإمكان في حق الحق من طلب المرجح:

فلم يبق الا صادق الوعد وحده ... وما لوعيد الحق عين تعاين
ان دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد والأمر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صاين

وهذا في طرف والمعتزلة الذين يقولون لا يجوز على الله أن يخالف وعيده بل يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب في طرف، فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلاً، وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلاً. والفريقان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به وأخبر به عن الله عز وجل.

الثالث: قول من يقول أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ فاكذبهم الله تعالى في القرآن فيه:

فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة البقرة الآيتان ٨٠ و٨١.).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (سورة آل عمران أية ٢٣ و٢٤).

فهذا القول نما هو قول أعداء الله اليهود فهم شيوخ أربابه والقائلين به. وقد دل القرآن والسنة واجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده.

قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرة: الآية ١٦٧] وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: الآية ٤٨] وقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحَجّ: الآية ٢٢].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٠] وقال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٦] ، وقال تعالى ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعرَاف: الآية ٤٠] .

وهذا أبلغ ما يكون في الاخبار عن استحالة دخولهم الجنة.

الرابع: قول من يقول: يخرجون منها وتبقى ناراً على حالها ليس فيها أحد يعذب. حكاه شيخ الإسلام. والقرآن والسنة أيضاً يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن: وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته. وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس : قول من يقول تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جماداً لا يتحركون ولا يحسون بألم. وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة طرداً لامتناع حوادث لا نهاية لها. والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

السابع: قول من يقول: بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم. وقد روى عبد بن حميد وهو من أجل أئمة الحديث في تفسيره المشهور حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن قال قال عمر: "لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه".

وقال: حدثنا حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن أن عمر ابن الخطاب قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه" ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾

[النَّبَإِ: الآية ٢٣] . فقد رواه عبد وهو من الأئمة الحفاظ وعلماء السنة عن هذين الجليلين سليمان بن حرب وحجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة وحسبك به وحماد يرويه عن ثابت وحميد وكلاهما يرويه عن الحسن، وحسبك بهذا الإسناد وجلالة.

والحسن وان لم يسمع من عمر، فإنما رواه عن بعض التابعين ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به. وقال: عمر بن الخطاب، ولو قدر أنه لم يحفظ عن عمر فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين له بالإنكار والرد مع أنهم ينكرون على من خالف السنة بدون هذا فلو كان هذا القول عند هؤلاء الأئمة من البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله واجماع الأئمة، لكانوا أول منكر له.

قال: ولا ريب أن من قال هذا القول عن عمر ونقله عنه إنما أراد بذلك جنس أهل النار الذين هم أهلها، فأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علم هؤلاء وغيرهم أنهم يخرجون منها، وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريباً منه.

ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين بل يختص بمن عداهم، كما قال النبي ﷺ، أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٢] وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٤٨] .

بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق الذي لا يقع خلافه، لكن إذا انقضى أجلها وفنيت تفنى الدنيا لم تبق ناراً ولم يبق فيها عذاب قال أرباب هذا القول:

وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٨] قال: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا ناراً.

قالوا: وهذا الوعيد في هذه الآية مختصاً بأهل القبلة فإنه سبحانه قال: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم

من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ (سورة الأنعام الآيات ١٢٨ - ١٢٩).

وأولياء الجن من الانس يدخل فيها الكفار قطعاً فانهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ (سورة النحل الآيات ٩٩ و١٠٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (سورة الأعراف آية ٢٠١).

وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] .

وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النِّساء: الآية ٧٦] .

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: الآية ١٩] .

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ والاستثناء وقع في الآية التي أخبرت عن دخول أولياء الشياطين النار.

فمن ههنا قال ابن عباس: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله قالوا: وقول من قال أن "الا" بمعنى سوى أي ما شاء الله أن يزدهم من أنواع العذاب وزمنه لا تخفى منافرته للمستثنى والمستثنى منه، وان الذي يفهمه المخاطب مخالفة ما بعد "إلا" لما قبلها.

قالوا: وقول من قال أنه لاخراج ما قبل دخولهم إليها من الزمان كزمان البرزخ والموقف ومدة الدنيا أيضاً، لا يساعد على وجه الكلام، فإنه استثناء من جملة خبرية مضمونها أنهم إذا دخلوا النار لبثوا فيها مدة دوام السموات والأرض إلا ما شاء الله.

وليس المراد الاستثناء قبل الدخول هذا مالا يفهمه المخاطب الا ترى سبحانه يخاطبهم بهذا النار حين يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٨] فيقول لهم حينئذ: ﴿النار مثواكم خالدين فيها لا ما شاء الله﴾.

وفي قوله: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٨] نوع اعتراف واستسلام وتحسر أي اسمتع الجن بنا استمتعنا بهم، فاشتركنا في الشرك ودواعيه وأسبابه، وآثرنا الاستماع على طاعتك وطاعة رسلك، وانقضت آجالنا وذهبت أعمارنا في ذلك ولم نكتسب فيها رضاك. وإنما كان غاية أمرنا في مدة آجالنا استمتاع بعضنا ببعض.

فتأمل ما في هذا من اعتراف بحقيقة ما هم عليه وكيف بدت لهم تلك الحقيقة ذلك اليوم، وعلموا أن الذي كانوا فيه في مدة اجالهم هو حظهم من استمتاع بعضهم ببعض ولم يستمتعوا بعبادة ربهم ومعرفته وتوحيده ومحبته وايثار مرضاته.

وهذا نمط قولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: الآية ١٠] وقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [المُلك: الآية ١١] وقوله: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٥] ونظائره والمقصود أن قوله ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٢٨] عائد إلى هؤلاء المذكورين مختصاً بهم أو شاملاً لهم ولعصاة الموحدين، وأما اختصاصه بعصاة المسلمين دون هؤلاء فلا وجه له.

ولما رأت طائفة ضعف هذا القول قالوا: الاستثناء يرجع إلى مدة البرزخ والموقف. وقد تبين ضعف هذا القول، ورأت طائفة أخرى أن الاستثناء يرجع إلى نوع آخر من العذاب غير النار.

قالوا: والمعنى أنكم في النار أبداً الا ما شاء الله أن يعذبكم بغيرها وهو الزمهرير وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا * لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ (سورة النبأ الآيات ٢١ - ٢٣).

وقالوا: والأبد لا يقدر بالأحقاب.

وقد قال ابن مسعود في هذه الآية: ليأتين على جهنم زمان وليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وعن أبي هريرة مثله حكاه البغوي عنهما. ثم قال: ومعناه عند أهل السنة أن ثبت أنه لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان.

قالوا: قد ثبت ذلك عن أبي هريرة وابن مسعود وعبد الله بن عمر وقد سأل حرب اسحق بن راهويه عن هذه الآية فقال: سألت اسحق قلت قول الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآية ١٠٧] فقال: أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن.

حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا معتمر بن سليمان قال: قال أبي حدثنا أبو نضرة عن جابر أو أبي سعيد أو بعض أصحاب النبي ﷺ قال هذه الآية تأتي على القرآن كله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: الآية ١٠٧].

قال المعتمر: قال أتى على كل وعيد في القرآن، حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي عن شعبة عن أبي بلخ سمع عمرو بن ميمون يحدث عن عبد الله بن عمرو قال ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً.

حدثنا عبيد الله حدثنا أبي حدثنا شعبة عن يحيى بن أيوب عن ابن زرعة عن أبي هريرة قال: ما أنا بالذي لا أقول انه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: الآية ١٠٦].

قال عبيد الله: كان أصحابنا يقولون يعني به الموحدين حدثنا أبو معن حدثنا وهب بن جرير حدثنا شعبة عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر

ابن عبد الله أو بعض أصحابه في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] قال هذه الآية تأتي على القرآن كله. وقد حكى ابن جرير هذا القول في تفسيره عن جماعة من السلف فقال: وقال آخرون عني بذلك أهل النار وكل من دخلها. ذكر من قال ذلك ثم ذكر الآثار التي نذكرها.

وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن التيمي عن أبيه نضرة عن جابر أو أبي سعيد أو عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] قال هذه الآية تأتي على القرآن كله يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تاي عليه قال: وسمعت ابا مجلز يقول: جزاؤه فان شاء الله تجاوز عن عذابه.

وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحيى أنبأنا عبد الرزاق فذكره قال وحدثت عن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال استثنى الله قال أمر الله النار أن تأكلهم. قال: وقال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمان تصفق أبوابها ليس فيها أحد بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، حدثنا ابن حميد حدثنا جرير بيان عن الشعبي قال: جهنم أسرع الدارين عمراناً، وأسرعهما خراباً.

وحكى ابن جرير في ذلك قولاً آخر فقال: وقال آخرون أخبرنا الله عز وجل بمشيئته لأهل الجنة فعرفنا معنى ثنياه بقوله ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وأنها لفي الزيادة على مقدار مدة السموات والأرض قالوا: ولم يخبرنا بمشيئته في أهل النار، وجائز أن تكون مشيئته في الزيادة وجائز أن تكون في النقصان. حدثني يونس أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هُود: الآية ١٠٨] ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

وقال ابن مردويه في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا جبير بن عرفة حدثنا يزيد بن مروان الخلال حدثنا أبو خليد حدثنا سفيان يعني الثوري

عن عمرو ابن دينار عن جابر قال قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ (سورة هود الآيتان ١٠٦ و١٠٧) قال رسول الله ﷺ "ان شاء الله لأن يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل". وهذا الحديث يدل على أن الاستثناء إنما هو للخروج من النار بعد دخولها خلافاً لمن زعم أنه لما قبل الدخول، ولكن إنما يدل على إخراج بعضهم من النار، وهذا حق بلا ريب وهو لا ينفي انقطاعها وفناء عذابها وأكلها لمن فيها وأنهم يعذبون فيها دائماً ما دامت كذلك وما هم منها بمخرجين، فالحديث دل على أمرين: أحدهما: أن بعض الأشقياء ان شاء الله أن يخرجهم من النار وهي نار فعل، وأن الاستثناء انما هو فيما بعد دخولها لا فيما قبله وعلى هذا فيكون معنى الاستثناء إلا ما شاء ربك من الاشقياء فإنهم لا يخلدون فيها ويكون الأشقياء نوعين نوعاً يخرجون منها ونوعاً يخلدون فيها فيكونون من الذين شقوا أولاً ثم يصيرون من الذين سعدوا فتجتمع لهم الشقاوة والسعادة في وقتين قالوا وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا * لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ (سورة النبأ الآيات ٢١ - ٢٨) فهذا صريح في وعيد الكفار المكذبين بآياته ولا يقدر الأبد بهذه الأحقاب ولا غيرها كما لا يقدر به القديم. ولهذا قال عبد الله بن عمرو فيما رواه شعبة عن أبي بلخ سمع عمرو بن ميمون يحدث عند "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً".

فصل

والذين قطعوا بدوام النار لهم ست طرق:

أحدهما: اعتقاد الإجماع فكثير من الناس يعتقدون أن هذا مجمع عليه بين الصحابة والتابعين لا يختلفون فيه، وأن الاختلاف فيه حادث وهو من أقوال أهل البدع.

الطريق الثاني: أن القرآن دل على ذلك دلالة قطعية فإنه سبحانه أخبر أنه عذاب مقيم، وأنه لا يفتر عنهم وأنه لن يزيدهم إلا عذاباً وأنهم خالدين فيها أبداً وما هم بخارجين من النار، وما هم منها بمخرجين، وأن الله حرم الجنة على الكافرين وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، وأنهم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وأن عذابها كان غراماً، أي مقيماً لازماً. قالوا وهذا يفيد القطع بدوامه واستمراره.

الطريق الثالث: أن السنة المستفيضة أخبرت بخروج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان دون الكفار، وأحاديث الشفاعة من أولها إلى آخرها صريحة بخروج عصاة الموحدين من النار وأن هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان.

الطريق الرابع: أن الرسول وقفنا على ذلك وعلمناه من دينه بالضرورة من غير حاجة بنا إلى نقل معين، كما علمنا من دينه دوام الجنة وعدم فنائها .

الطريق الخامس: أن عقائد السلف وأهل السنة مصرحة لأن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما لا يفنيان بل هما دائمتان، وإنما يذكرون فناءهما عن أهل البدع.

الطريق السادس: أن العقل يقضي بخلود الكفار في النار، وهذا مبنى على قاعدة وهي أن المعاد وثواب النفوس المطيعة وعقوبة النفوس الفاجرة هل هو مما يعلم بالعقل أو لا يعلم إلا بالسمع؟ فيه طريقتان لنظار المسلمين، وكثير منهم يذهب إلى أن ذلك يعلم بالعقل مع السمع، كما دل عليه القرآن في غير موضع، كإنكاره سبحانه على من زعم أنه يسوى بين الأبرار والفجار، في المحيا والممات وعلى من زعم أنه خلق خلقه عبثاً، وأنهم إليه لا يرجعون، وأنه يتركهم سدى أي لا يثيبهم ولا يعاقبهم، وذلك يقدح في حكمته وكماله، وأن نسبهُ إلى ما لا يليق به وربما قرروه بأن النفوس البشرية باقية واعتقاداتها وصفاتها لازمة لها لا تفارقها وإن ندمت عليها، لما رأت العذاب فلم تندم عليها لقبحها أو كراهة ربها لها، بل لو فارقها العذاب رجعت كما كانت أولا قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾.

فهؤلاء قد ذاقوا العذاب وباشروه ولم يزل سببه ومقتضيه من نفوسهم بل خبثها وكفرها قائم بها لم يفارقها بحيث لو ردوا لعادوا كفاراً كما كانوا وهذا يدل على أن دوام تعذيبهم يقضي به العقل كما جاء السمع، قال أصحاب الفناء الكلام على هذه الطرق يبين الصواب في هذه المسألة.

رد دعوى الإجماع في المسألة:

فأما الطريق الأول فالإجماع الذي ادعيتموه غير معلوم، وإنما يظن الإجماع في هذه المسألة من لم يعرف النزاع، وقد عرف النزاع فيها قديماً وحديثاً بل لو كلف مدّعي الاجماع أن ينقل عن عشرة من الصحابة فما دونهم إلى الواحد أنه قال: إن النار لا تفني أبداً، لم يجد إلى ذلك سبيلا.

ونحن قد نقلنا عنهم التصريح بخلاف ذلك فما وجدنا عن واحد منهم خلاف ذلك بل التابعون حكوا عنهم هذا وهذا، قالوا: والاجماع المعتد به نوعان، متفق عليهما، ونوع ثالث مختلف فيه، ولم يوجد واحد منها في هذه

المسألة النوع الأول ما يكون معلوما من ضرورة الدين كوجوب أركان الإسلام وتحريم المحرمات الظاهرة.

الثاني: ينقل عن أهل الاجتهاد التصريح بحكمه.

الثالث: أن يقول بعضهم القول وينشر في الأمة ولا ينكره أحد، فأين معكم واحد من هذه الأنواع، ولو أن قائلاً ادعى الإجماع من هذه الطرق واحتج أن الصحابة صح عنهم ولم ينكر أحد منهم عليه لكان أسعد بالإجماع منكم.

قالوا: وأما الطريق الثاني وهو دلالة القرآن على بقاء النار وعدم فنائها، فأين في القرآن دليل واحد يدل على ذلك؟ نعم، الذي دل عليه القرآن أن الكفار خالدين في النار أبداً، وأنهم غير خارجين منها وأنه لا يفتر عنهم عذابها وأنهم لا يموتون فيها وأن عذابهم فيما مقيم، وأنه غرام لازم لهم وهذا كله مما لا نزاع فيه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وليس هذا مورد النزاع وإنما النزاع في أمر آخر وهو أنه هل النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء؟ وأما كون الكفار لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم عن عذابها ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فلم يختلف في ذلك الصحابة ولا التابعون ولا أهل السنة وانما خالف في ذلك من قد حكينا أقوالهم من اليهود والاتحادية وبعض أهل البدع. وهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية ولا يخرجون منها مع بقائها البتة كما يخرج أهل التوحيد منها مع بقائها فالفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

قالوا: وأما الطريق الثالث: وهو مجيء السنة المستفيضة بخروج أهل الكبائر من النار دون أهل الشرك فهي حق لا شك فيه وهي انما تدل على ما قلناه من خروج الموحدين منها وهي دار العذاب لم تفن ويبقى المشركون فيها ما دامت باقية والنصوص دلت على هذا وعلى هذا.

قالوا: وأما الطريق الرابع: وهو أن رسول الله ﷺ وقفنا على ذلك

ضرورة فلا ريب أنه من المعلوم من دينه بالضرورة أن الكفار باقون فيها ما دامت باقية هذا معلوم من دينه بالضرورة، وأما كونها أبدية لا انتهاء لها ولا تفنى كالجنة، فأين في القرآن والسنة دليل واحد يدل على ذلك.

قالوا: وأما الطريق الخامس وهو أن عقائد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان أبداً. فلا ريب أن القول بفنائهما قول أهل البدع من الجهمية والمعتزلة. وهذا القول لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين وأما فناء النار وحدها فقد أوجدنا لكم من قال به من الصحابة وتفريقهم بين الجنة والنار فكيف يكون القول به أقوال أهل البدع مع أنه لا يعرف عن أحد من أهل البدع التفريق بين الدارين، فقولكم إنه من أقوال أهل البدع كلام من لا خبرة له بمقالات بني آدم وآرائهم واختلافهم.

قالوا: والقول الذي بعد من أقوال أهل البدع ما خالف كتاب الله وسنة رسوله واجماع الأمة، أما الصحابة أو من بعدهم، وأما قول يوافق الكتاب والسنة وأقوال الصحابة فلا يعد من أقوال أهل البدع وإن دانوا به واعتقدوا فالحق يجب قبوله ممن قاله. والباطل يجب رده على من قاله وكان معاذ بن جبل يقول: "الله حكم قسط هلك المرتابون إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يقرؤه المؤمن والمنافق والمرأة والصبي والأسود والأحمر فيوشك أحدهم أن يقول: قد قرأت القرآن فما اظن أن يتبعوني حتى أبتدع فإن كل بدعة ضلالة واياكم وزيغة الحكيم؟ فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة، وان المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عمن جاء به فإن على الحق نوراً، قالوا: وكيف زيغة الحكيم، قال: هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ما هذه؟ فاحذروا زيغته ولا تصدنكم عنه فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق، وأن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة".

والذي أخبر به أهل السنة في عقائدهم هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف أن الجنة والنار مخلوقتان، وأن أهل النار لا يخرجون

منها ولا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم وأنهم خالدون فيها، ومن ذكر منهم أن النار لا تفنى أبداً فانما قاله لظنه أن بعض أهل البدع قال بفنائها، ولم يبلغه تلك الآثار التي تقدم ذكرها قالوا: واما حكم العقل بتخليد أهل النار فيها، فإخبار عن العقل بما ليس عنده، فإن المسألة من المسائل التي لا تعلم الا بخبر الصادق.

وأما أصل الثواب والعقاب: فهل يعلم بالعقل مع السمع أو لا يعلم الا بالسمع وحده؟ ففيه قولان لنظار المسلمين من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، والصحيح أن العقل دل على المعاد والثواب والعقاب إجمالاً وأما تفصيله فلا يعلم الا بالسمع ودوام الثواب والعقاب ما لا يدل عليه العقل بمجرده، وانما علم بالسمع وقد دل السمع دلالة قاطعة على دوام ثواب المطيعين، وأما عقاب العصاة فقد دل السمع أيضاً دلالة قاطعة على انقطاعه في حق الموحدين، وأما دوامه وانقطاعه في حق الكفار فهذا معترك النزال فمن كان السمع من جانبه فهو أسعد بالصواب. وبالله التوفيق.

الفرق بين دوام الجنة والنار شرعاً وعقلاً:

ونحن نذكر الفرق بين دوام الجنة والنار شرعاً وعقلاً وذلك يظهر من وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى أخبر ببقاء نعيم الجنة ودوامه وأنه لا نفاد له ولا انقطاع وأن غير مجذوذ، وأما النار فلم يخبر عنها بأكثر من خلود أهلها فيها وعدم خروجهم منها وأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأنها مؤصدة عليهم وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها وأن عذابها لازم لهم وأنه مقيم عليهم لا يفتر عنهم والفرق بين الخبرين ظاهر.

الوجه الثاني: أن النار قد أخبر سبحانه وتعالى في ثلاث آيات عنها بما يدل على عدم أبديتها. الأولى: قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] الثانية: قوله

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (سورة هود آية ١٠٧).

الثالثة: قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النَّبَإِ: الآية ٢٣] ولولا الأدلة القطعية الدالة على أبدية الجنة ودوامها لكان حكم الاستثناءين في الموضعين واحداً كيف وفي الآيتين من السياق ما يفرق بين الاستثناءين فإنه قال في أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] فعلمنا أنه سبحانه وتعالى يريد أن يفعل فعلا لم يخبرنا به، وقال في أهل الجنة: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هُود: الآية ١٠٨] فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبداً. فالعذاب مؤقت والنعيم ليس بمؤقت ولا معلق.

الوجه الثالث: أنه قد ثبت أن الجنة لم يدخلها من لم يعمل خيراً قط من المعذبين الذين يخرجهم الله من النار، وأما النار فلم يدخلها من لم يعمل سواءاً قط ولا يعذب إلا من عصاه.

الوجه الرابع: أنه قد ثبت أن الله سبحانه وتعالى ينشىء للجنة خلقاً آخر يوم القيامة يسكنهم إياها ولا يفعل ذلك بالنار، وأما الحديث الذي قد ورد في صحيح البخاري من قوله: "وأما النار فينشىء الله لها خلقاً آخرين" فغلط وقع من بعض الرواة انقلب عليه الحديث وانما هو ما ساقه البخاري في الباب بنفسه "وأما الجنة فينشىء الله لها خلقاً آخرين" ذكره البخاري رحمه الله مبيناً أن الحديث انقلب لفظه على من رواه بخلاف هذا وهذا، والمقصود أنه لا تقاس النار بالجنة في التأبيد مع هذه الفروق.

الوجه الخامس: أن الجنة من موجب رحمته ورضاه، والنار من غضبه وسخطه، ورحمته سبحانه تغلب غضبه وتسبقه، كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال: "لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش أن رحمتي تغلب غضبي" واذا كان رضاه قد سبق غضبه وهو بغلبه كان التسوية بين ما هو من موجب رضاه وما هو من موجب غضبه ممتنعا.

الوجه السادس: أن ما كان بالرحمة وللرحمة فهو مقصود لذاته قصد

الغايات وما كان من موجب الغضب والسخط فهو مقصود لغيره قصد الوسائل فهو مسبوق مغلوب مراد لغيره وما كان للحرمة فغالب سابق مراد لنفسه.

الوجه السابع: وهو أنه سبحانه قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وعذابه مفعول منفصل، وهو ناشيء عن غضبه، ورحمته ههنا هي الجنة وهي رحمة مخلوقه ناشئة عن الرحمة التي هي صفة الحرمن فههنا أربعة أمور رحمة هي وصفة سبحانه، وثواب منفصل هو ناشيء عن رحمته، وغضب يقوم به سبحانه، وعقاب منفصل ينشأ عنه فإذا غلبت صفة الرحمة صفة الغضب فلأن يغلب ما كان بالرحمة لما كان بالغضب أولى وأحرى، فلا تقاوم النار التي نشأت عن الغضب الجنة التي نشأت عن الرحمة.

الوجه الثامن: أن النار خلقت تخويفاً للمؤمنين وتطهيراً للخاطئين والمجرمين، فهي طهرة من الخبث الذي اكتسبته النفس في هذا العالم فإن تطهرت ههنا بالتوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة لم يحتج إلى تطهير هناك وقيل لها مع جملة الطيبين سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين. وإن لم تتطهر في هذه الدار ووافت الدار الأخرى بدونها ونجاستها وخبثها ادخلت النار طهرة لها ويكون مكثها في النار بحسب زوال ذلك الدرن والخبث والنجاسة التي لا يغسلها الماء، فإذا تطهرت الطهر التام أخرجت من النار والله سبحانه خلق عباده حنفاء وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فلو خلوا وفطرهم لما نشؤوا الا على التوحيد ولكن عرض لأكثر الفطر ما غيرها، ولهذا كان نصيب النار أكثر من نصيب الجنة وكان هذا التغيير مراتب لا يحصيها إلا الله فأرسل الله رسوله، وأنزل كتبه يذكر عباده بفطرته التي فطرهم عليها، فعرف الموفقون الذين سبقت لهم من الله الحسنى صحة ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب بالفطرة الأولى فتوافق عندهم شرع الله ودينه الذي أرسل به رسله وفطرته التي فطرهم عليها فمنعتهم الشرعة المنزلة والفطرة المكملة، أن تكتسب نفوسهم خبثاً ونجاسة ودرناً يعلق بها ولا يفارقها، بل

كلما ألم بهم شيء من ذلك ومسهم طائف من الشيطان أغاروا عليه بالشرعة والفطرة فأزالوا موجبه وأثره، وكمل لهم الرب تعالى ذلك بأقضية يقضيها لهم مم يحبون أو يكرهون، تمحص عنهم تلك الآثار التي شوشت الفطرة فجاء مقتضى الرحمة فصادف مكاناً قابلا مستعدا لها ليس فيه شيء يدافعه فقال هنا أمرت وليس لله سبحانه غرض. في تعذيب عباده بغير موجب كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (سورة النساء آية ١٤٧) واستمر الأشقياء مع تغيير الفطرة ونقلها مما خلقت عليه إلى ضده حتى استحكم الفساد وتم التغيير، فاحتاجوا إلى ازالة ذلك إلى تغيير آخر وتطهير ينقلهم إلى الصحة حيث لم تنقلهم آيات الله المتلوة والمخلوقة وأقداره المحبوبة والمكروهة في هذه الدار، فأتاح لهم آيات أخر وأقضية، وعقوبات فوق التي كانت في الدنيا تستخرج ذلك الخبث والنجاسة التي لا تزول بغير النار، فإذا زال موجب العذاب وسببه زال العذاب وبقي مقتضى الرحمة لا معارض له، فإن قيل هذا حق ولكن سبب التعذيب لا يزول الا اذا كان السبب عارضاً كمعاصي الموحدين، أما إذا كان لازماً كالكفر والشرك فإن أثره لا يزول كما يزول السبب، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في مواضع من كتابه منها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨] فهذا إخبار بأن نفوسهم وطبائعهم لا تقتضي غير الكفر والشرك، وأنها غير قابلة للايمان أصلا. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٢] فأخبر سبحانه أن ضلالهم وعماهم عن الهدى دائم لا يزول حتى مع معاينة الحقائق التي أخبر يقتضي الرحمة ولو كان فيهم خير ما ضيع عليهم أثره، ويدل على أنهم لا خير بها الرسل، وإذا كان العمى والضلال لا يفارقهم فإن موجبه وأثره ومقتضاه لا يفارقهم. ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنفال آية ٢٣) وهذا يدل على أنه ليس فيهم خير فيهم هناك أيضاً قوله: "أخرجوا من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من خير" ولو كان عند هؤلاء أدنى مقال ذرة من خير لخرجوا منها مع الخارجين.

قيل: لعمر الله ان هذا لمن أقوى ما يتمسك به من المسألة، وان الامر لكما قلتم، وإن العذاب يدوم بدوام موجبه وسببه، ولا ريب أنهم في الآخرة في عمى وضلال كما كانوا في الدنيا بواطنهم خبيثة كما كانت في الدنيا، والعذاب مستمر عليهم دائم ما داموا كذلك: ولكن هل هذا الكفر والتكذيب والخبث أمر ذاتي لهم زواله مستحيل أم هو أمر عارض طارئ على الفطرة قابل للزوال؟ هذا حرف المسألة وليس بأيديكم ما يدل على استحالة زواله وأنه أمر ذاتي وقد أخبر سبحانه أنه فطر عباده على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم عنها فلم يفطرهم سبحانه على الكفر والتكذيب، كما فطر الحيوان البهيم على طبيعته وانما فطرهم على الإقرار بخالقهم ومحبته وتوحده.

فاذا كان هذا الحق الذي قد فطروا عليه وخلقوا عليه قد أمكن زواله بالكفر والشرك الباطل فإمكان زوال الكفر والشرك والباطل بضده من الحق أولى وأحرى، ولا ريب أنهم لو ردوا على تلك الحال التي هم عليها لعادوا لما نهوا عنه ولكن من أين لكم أن تلك الحال لا تزول ولا تتبدل بنشأة أخرى ينشئهم فيها تبارك وتعالى اذا أخذت النار مأخذها منهم، وحصلت الحكمة المطلوبة من عذابهم، فإن العذاب لم يكن سدى وانما كان لحكمة مطلوبة. فاذا حصلت تلك الحكمة لم يبق في التعذيب أمر يطلب ولا غرض يقصد والله سبحانه ليس يشتفى بعذاب عباده كما يشتفى المظلوم من ظالمه وهو لا يعذب عبده لهذا الغرض، وانما يعذبه طهرة له ورحمه به فعذابه مصلحة له، وان تألم به غاية الألم كما أن عذابه بالحدود في الدنيا مصلحة لأربابها.

وقد سمى الله سبحانه الحد عذاباً وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل لكل داء دواء يناسبه، ودواء الداء العضال يكون من أشق الأدوية، والطبيب الشفيق يكوي المريضَ بالنار كياً بعد كي ليخرج منه المادة الرديئة الطارئة على الطبيعة المستقيمة وان رأى قطع العضو أصلح للعليل قطعه وأدامه أشد الألم فهذا قضاء الرب وقدره في ازالة مادة غريبة طرأت على الطبيعة المستقيمة بغير اختيار العبد، فكيف اذا طرأ على الفطرة السلمية مواد فاسدة باختيار العبد وإرادته؟

واذا تأمل اللبيب شرع الرب تعالى وقدره في الدني وثوابه وعقابه في الآخرة وجه ذلك في غاية التناسب والتوافق وارتباط ذلك بعضه ببعض فإن مصدر الجميع عن علم تام وحكمة بالغة ورحمة وهو سبحانه الملك الحق المبين وملكه ملك رحمة وإحسان وعدل.

الوجه التاسع: أن عقوبته بعد ليست لحاجته إلى عقوبته لا لمنفعة تعود اليه ولا لدفع مضرة وألم يزول عنه بالعقوبة. بل يتعالى عن ذلك ويتنزه كما يتعالى عن سائر العيوب والنقائص، ولا هي عبث محض خال عن الحكمة والغاية الحميدة فإنه أيضاً يتنزه عن ذلك ويتعالى عنه، فإما أن يكون من تمام أوليائه وأحبابه، وإما أن يكون من مصلحة الأشقياء ومداواتهم، أو لهذا ولهذا.

وعلى التقادير الثالث، فالتعذيب أمر مقصود لغيره قصد الوسائل لا قصد الغايات والمراد من الوسيلة إذا حصل على الوجه المطلوب زال حكمها، ونعيم أوليائه، ليس متوقفاً في أصله ولا في كماله على استمرار عذاب أعدائه، وهوامه ومصلحة الأشقياء ليست في الدوام والاستمرار، وإن كان في أصل التعذيب مصلحة لهم.

الوجه العاشر: أن رضا الرب تبارك وتعالى ورحمته صفتان ذاتيتان له، فلا منتهى لرضاه بل كما قال أعلم الخلق به: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته. فاذا كانت رحمته غلبت فإن رضا نفسه أعلى وأعظم، فإن رضوانه أكثر من الجنات ونعيمها وكل ما فيها وقد أخبر أهل الجنة أنه يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، وأما غضبه تبارك وتعالى وسخطه فليس من صفاته الذاتية التي يستحيل انفكاكه عنها بحيث لم يزل ولا يزال غضبان والناس لهم في صفة الغضب قولان:

أحدهما: أنه من صفاته الفعلية القائمة به كسائر أفعاله.

الثاني: أنه صفة فعل منفصل عنه غير قائم به. وعلى القولين فليس كالحياة والعلم والقدرة التي يستحيل مفارقتها له والعذاب انما ينشأ من صفة غضبه وما سعرت النار الا بغضبه، وقد جاء في أثر مرفوع "ان لله خلق خلقاً

من غضبه وأسكنه بالمشرق وينتقم بهم ممن عصاه" فمخلوقاته سبحانه نوعان من نوع مخلوق من الرحمة وبالرحمة. ونوع مخلوق من الغضب وبالغضب.

فانه سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي يتنزه عن تقدير خلافه ومنه أنه يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل وينتقم ويعفو. بل هذا موجب ملكه الحق وهو حقيقة الملك المقرون بالحكمة والرحمة والحمد. إذا زال غضبه سبحانه وتبدل برضاه زالت عقوبته وتبدلت برحمته فانقلبت العقوبة رحمة بل لم تزل رحمة وإن تنوعت صفتها وصورتها كما كان عقوبة العصاة رحمة وإخراجهم من النار رحمة، فتقلبوا في رحمته في الدنيا وتقلبوا فيها في الآخرة، لكن تلك رحمة يحبونها وتوافق طبائعهم وهذه رحمة يكرهونها وتشق عليهم كرحمة الطبيب الذي يبضع لحم المريض ويلقى عليه المكاوى ليستخرج من المواد الردية الفاسدة.

فإن قيل: هذا اعتبار غير صحيح فإن الطبيب يفعل ذلك بالعليل وهو يحبه وهو راض عنه ولم ينشأ فعله به عن غضبه عليه ولهذا لا يسمى عقوبة، وأما عذاب هؤلاء فإنه إنما حصل بغضبه سبحانه عليهم وهو عقوبة محضة.

قيل: هذا حق ولكن لا ينافي كونه رحمة بهم، وإن كان عقوبة لهم وهذا كإقامة الحدود عليهم في الدنيا فإنه عقوبة ورحمة وتخفيف وطهرة، فالحدود طهرة لأهلها وعقوبة، وهم لما أغضبوا الرب تعالى وقابلوه بما لا يطيق أن يقابل به وعاملوه أقبح المعاملة وكذبوه وكذبوا رسله وجعلوا أقل خلقه وأخبثهم وأمقتهم له نداً له، وآلهة معه وآثروا رضاهم على رضاه وطاعتهم على طاعته، وهو ولي الإنعام عليهم وهو خالقهم ورازقهم ومولاهم، الحق بالذي اشتد مقته لهم وغضبه عليهم وذلك بوجب كماله اسمائه وصفاته يستحيل عليه تقدير خلافاتها ويستحيل عليه تخلف آثارها ومقتضاها عنها بل ذلك تعطل لأحكامها، كما ان نفيها عنه تعطيل لحقائها وكلا التعطيلين محال عليه سبحانه.

فالمعطلون نوعان أحدهما: عطل صفاته والثاني عطل أحكامها

وموجباتها.وكان هذا العذاب عقوبة لهم من هذا الوجه ودواء لهم من جهة الرحمة السابقة للغضب فاجتمع فيه الأمران، فإذا زال الغضب بزوال سببه وزالت المادة الفاسدة بتير الطبيعة المقتضية لها في الجحيم بمرور الأحقاب عليها، وحصلت الحكمة التي اوجبت العقوبة عملت الرحمة عملها وطلبت أثرها من غير معارض.

الوجه الحادي عشر: وهو أن العفو أحب إليه سبحانه من الانتقام، والرحمة أحب اليه من العقوبة والرضا أحب اليه من الغضب. والفضل أحب إليه من العدل. ولهذا ظهرت آثار المحبة في شرعه وقدره ويظهر كل الظهور لعباده في ثوابه وعقابه، وغذا كان ذلك أحب الأمرين اليه وله خلق الخلق وانزل الكتب وشرع الشرائع وقدرته سبحانه صالحة لكل شيء لا قصور فيها بوجه ما، وتلك المواد الرديئة الفاسدة مرض من الأمراض وبيده سبحانه الشفاء التام والأدوية الموافقة لكل داء، وله القدرة التامة والرحمة البالغة والغنى المطلق، وبالعبد أعظم حاجة الى من يداوي علته التي بلغت غاية الضرر والمشقة، وقد عرف العبد أنه عليل وأن دواءه بيد الغني الحميد، فتضرع اليه ودخل به عليه واستكان له وانكسر قلبه بين يديه وذل لعزته وعرف أن الحمد كله له، وأن الخلق كله وأنه هو المظلوم الجهول وأن ربه تبارك وتعالى عامله بكل عدله لا يبغض عدله، وأن له غاية الحمد فيما فعل به، وأن حمده هو الذي أمامه، في هذا المقام وأوصله ليه وأنه لا خير عنده من نفسه بوجه من الوجوه، بل ذلك محض فضل الله وصدقه وأنه لا نجاة له مما هو فيه بمجرد العفو والتجاوز عن حقه فنفسه أولى بكل ذم وعيب ونقص، وربه تعالى أولى بكل حمد وكمال ومدح.

فلو أن أهل الجحيم شدهوا نعمته سبحانه ورحمته وكماله وحمده الذي أوجب لهم ذلك فطلبوا مرضاته ولو بدوامهم في تلك الحال. وقالوا ان كان ما نحن فيه رضاك فرضاك الذي نرى وما وما أوصلنا الى هذه الحال الا طلب ما لا يرضيك فأما اذا أرضاك، هذا فرضاك اية ما نقصده (وما لجرح اذا أرضاك

من ألم) وأنت أرحم بنا من أنفسنا وأعلم بمصالحنا ولك الحمد كله، عاقبت أو عفوت، لانقلبت النار عليهم برداً وسلاماً.

وقد روى الامام أحمد من مسنده من حديث الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: "يأتي اربعة يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الاصم فيقول: رب لقد جاء الاسلام وما اسمع شيئاً. وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر. وأما الهرم فيقول: ربي لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً. وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك من رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم أن ادخلوا النار، قال فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً".

وفي المسند أيضاً: من حديث قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مثله وقال: "فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها يسحب اليها" فهؤلاء لما رضوا بتعذيبهم وبادروا اليه لما علموا أن فيه رضى ربهم وموافقة أمره ومحبته انقلب في حقهم نعيماً.

ومثل هذا، وما وراه عبد الله بن المبارك حدثني رشدين قال حدثني ابن أنعم عن أبي عثمان أنه حدثه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "ان رجلين ممن دخلا النار يشتد صياحهما. فقال الرب جلا جلاله: أخرجوهما فإذا أخرجا فقال لهما: لأي شيء اشتد صياحكما؟ قالا: فعلنا ذلك لترحمنا، قال رحمتى لكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار. قال فينطلقان فيلقى أحدهما نفسه فيجعلها الله سبحانه عليه برداً وسلاماً، ويقوم الآخر فلا يلقى فيقول له الرب: ما منعك أن تلقى نفسك كما ألقى صاحبك؟ فيقول: رب إني أرجوك أن لا تعيدني فيها بعد ما أخرجتني منها، فيقول الرب تعالى لك رجاؤك، فيدخلان الجنة جميعاً برحمة الله".

وذكر الأوزاعي عن بلاد بن سعد قال: "يؤمر باخراج رجلين من النار فإذا أخرجا ووقفا قال الله لهما كيف وجدتما مقيلكما وسوء مصيركما؟

فيقولان: شر مقيل، وأسوأ مصير، ثار اليه العباد، فيقول لهما: بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، قال: فيؤمر بصرفهما إلى النار فأما أحدهما فيغدو في أغلاله وسلاله حتى يقتحمها: وأما الآخر فيتلكأ فيؤمر بردهما فيقول للذي غدا في أغلاله وسلاله حتى اقتحمها: ما حملك على ما صنعت وقد خرج منها؟ فيقول اني خبرت من وبال معصيتك ما لم أكن أتعرض لسخطك ثانياً. ويقول الذي تلكأ: ما حملك على ما صنعت؟؟ فيقول: حسن ظني بك حين اخرجتني منها أن لا تردني إليها فيرحمهما جميعاً ويأمر بهما إلى الجنة".

الوجه الثاني عشر: أن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبره وكرمه ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه. وأما العذاب والعقوبة فانما هو من مخلوقاته، لذلك لا يسمى بالعقاب والمعذب بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (سورة الحجر الأيتان ٤٩ و٥٠) وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المَائدة: الآية ٩٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٦٧] ومثلها في آخر الأنعام، فما كان من مقتضى أسمائه وصفاته فإنه يدوم بدوامها ولا سيما اذا كان محبوباً له وهو غاية مطلوبة في نفسها وأما الشر الذي هو العذاب في أسمائه وصفاته، وإن دخل في مفعلاته لحكمه اذا حصلت زال وفنى بخلاف الخير، فانه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبداً وهو قديم الإحسان أبدي الاحسان، فلم يزل ولا يزال محسناً على الدوام. وليس من موجب أسمائه وصفاته أنه لا يزال معاقباً على الدوام غضبان على الدوام منتقماً على الدوام، فتأمل هذا الوجه تأمل فقيه في باب أسماء الله وصفاته، يفتح لك باباً من أبواب معرفته ومحبته:

الوجه الثالث عشر: وهو قول أعلم خلقه به، وأعرفهم بأسمائهم وصفاته "والشر ليس اليك" ولم يقف على المعنى المقصود من قال الشر لا يتقرب به اليك، بل الشر لا يضاف اليه سبحانه بوجه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في

أفعاله ولا أسمائه، فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه، وصفاته كلها صفات كال يحمد عليها ويثنى عليه بها، وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل، وحكمة لا شر فيها بوجه ما، وأسماؤه كلها حسنى، فكيف يضاف الشر إليه بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته وهو منفصل عنه، اذ فعله غير مفعوله ففعله خير كله، وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر.

وإذا كان الشر مخلوقاً منفصلاً غير قائم بالرب سبحانه فهو لا يضاف اليه وهو ﷺ لم يقل: أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله، وانما نفي إضافته اليه وصفة وفعلا وأسماء، واذا عرف هذا فالشر ليس الا الذنوب وموجباتها.

وأما الخير فهو الايمان الطاعات وموجباتها، والإيمان والطاعات متعلقة به سبحانه، ولأجلها خلق خلقه وأرسل رسله وأنزل كتبه، وهي ثناء على الرب وإجلاله وتعظيمه وعبوديته، وهذه لها اثار تطلبها وتقتضيها فتدوم آثارها بدوام متعلقها.

وأما الشرور فليس مقصودة لذاتها. ولا هي الغاية التي خلق لها الخلق فهي مفعولات قدرت لأمر محبوب وجعلت وسيلة إليه فإذا حصل ما قدرت له اضمحلت وتلاشت وعاد الأمر الى الخير المحض.

الوجه الرابع عشر: أنه سبحانه قد أخبر أن رحمته وسعت كل شيء. فليس شيء من الأشياء الا وفيه رحمته ولا ينافى هذا أن يرحم العبد بما يشق عليه ويؤلمه وتشتد كراهته له فإن ذلك من رحمته أيضاً كما تقدم.

وقد ذكرنا حديث أبي هريرة آنفاً وقوله تعالى لذينك الرجلين: رحمتي لكما ان تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار. وقد جاء في بعض الآثار أن العبد اذا دعا لمبتلى قد استد بلاؤه وقال: الله ارحمه: يقول الرب تبارك وتعالى: كيف أرحمه من شيء به أرحمه. فالابتلاء رحمه منه لعباده "وفي أثر كرامتي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ان تابوا فأنا حبيبهم وان لم يتوبوا طبيبهم أبتليهم بالمصايب لأطهرهم من

المعايب" : فالبلاء والعقوبة أدوية قدرت لإزالة أدواء لا تزول إلا بها والنار هي الدواء الأكبر فمن تداوى في الدنيا أغناه ذلك عن الدواء في الآخرة، والا فلا بد له من الدواء بحسب دائه ومن عرف الرب تبارك وتعالى بصفات جلاله ونعوت كماله من حكمته ورحمته وبره واحسانه وغناه وجوده وتحببه الى عباده وارادة الانعام عليهم وسبق رحمته لهم لم يبادر الى انكار ذلك ان لم يبادر الى قبوله.

الوجه الخامس عشر: أن افعاله سبحانه لا تخرج عن الحكمة والرحمة والمصلحة والعدل، فلا يفعل عبثاً ولا جوراً ولا باطلا بل هو المنزه عن ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص. واذا ثبت ذلك فتعذيبهم ان كان رحمة بهم حتى يزول ذلك الخبث وتكمل الطهارة فظاهر، وان كان لحكمة فاذا حصلت تلك الحكمة المطلوبة زال العذاب وليس في الحكمة دوام العذاب ابد الآباد بحيث يكون دائماً بدوام الرب تبارك وتعالى وان كان لمصلحة فان كان يرجع اليهم، فليست مصلحتهم في بقائهم في العذاب السرمد.

فان قلتم: ان ذلك هو موجب الرحمة والحكمة والمصلحة قلتم ما لا يعقل، وان قلتم ان ذلك عائد الى محض المشيئة ولا تطلب له حكمة ولا غاية فجوابه من وجهين.

أحدهما: ان ذلك محال على أحكم الحاكمين وأعلم العالمين أن تكون أفعاله معطلة عن الحكم والمصالح والغايات المحمودة والقرآن والسنة وأدلة العقول والفطر والآيات المشهودة شاهدة ببطلان ذلك.

والثاني: أنه لو كان الامر كذلك لكان ابقاؤهم في العذاب وانقطاعه عنهم بالنسبة الى مشيئته سواء ولم يكن في انقضائه ما ينافي كماله وهو سبحانه لم يخبر بأبدية العذاب وأنه لا نهاية له.

وغاية الامر على هذا التقدير: أن يكون من الجائزات الممكنات الموقوف حكمها على خبر الصادق.

فإن سلكت طريق التعليل بالحكمة والرحمة والمصلحة لم يقتض الدوام،

وان سلكت طريق المشيئة المحضة التي لا تعلل لم تقتضه أيضاً

وان وقف الأمر على مجرد السمع فليس فيه ما يقتضيه.

السادس عشر: أن رحمته سبحانه سبقت غضبه في المعذبين فانه انشأهم في رحمته، ورباهم برحمته رزقهم وعافاهم برحمته وأرسل اليهم الرسل برحمته وأسباب النقمة والعذاب متأخرة عن أسباب الرحمة طارئة عليهم فرحمته سبقت غضبه فيها وخلقهم على خلقه، تكون رحمته اليهم أقرب من غضبه وعقوبته.

ولهذا ترى أطفال الكفار قد القى عليهم رحمته فيمن رآهم رحمهم، ولهذا نهى عن قتلهم فرحمته سبقت غضبه فيهم، فكانت في السابقة اليهم ففي كل حال هم في رحمته في حال معافاتهم وابتلائهم.

واذا كانت الرحمة هي السابقة فيهم لم يبطل أثرها بالكلية وان عارضها أثر الغضب والسخط فذلك لسبب منهم، وما أثر الرحمة فسببه منه سبحانه فما منه يقتضي رحمتهم. وما منهم يقتضي عقوبتهم والذي منه سابق غالب، واذا كانت رحمته تغلب غضبه فلان يغلب أثر الرحمة أثر الغضب أولى وأحرى.

الوجه السابع عشر: أنه سبحانه يخبر عن العذاب أنه عذاب يوم عقيم وعذاب يوم عظيم، وعذاب يوم أليم، ولا يخبر عن النعيم يوم ولا في موضع واحد .

وقد ثبت في الصحيح: تقدير يوم القيامة بخمسين الف سنة والمعذبون متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، والله سبحانه جعل العذاب على ما كان من الدنيا وأسبابها، وما أريد به الدنيا ولم يرد به وجه الله فالعذاب على ذلك.

وأما ما كان للآخرة وأريد به وجه الله فلا عذاب عليه، والدنيا قيد جعل لها اجل تنتهي اليه فيما انتقل منها الى تلك الدار مما ليس لله فهو المعذب به.

وأما ما أريد به وجه الله والدار الآخرة فقد أريد به مالا يفني ولا يزول،

فيدوم بدوام المراد، به فان الغاية المطلوبة اذا كانت دائمة لا تزول لم يزل ما تعلق بها بخلاف الغاية المضمحلة الفانية، فما أريد به غير الله يضمحل ويزول بزوال مراده ومطلوبه وما اريد به وجه الله يبقى ببقاء المطلوب المراد فاذا اضحلت الدنيا وانقطعت أسبابها وانتقل ما كان فيها لغير الله من الأعمال والذوات وانقلت عذاباً وآلاماً لم يكن له متعلق يدوم بدوامه بخلاف النعيم.

الوجه الثامن عشر: أنه ليس في حكمه أحكم الحاكمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لها نهاية له ولا انقطاع أبداً، ولقد دلت الأدلة السمعية والعقلية والفطرية على أنه سبحانه حكيم، وأنه أحكم الحاكمين فاذا عذب خلقه عذبهم بحكمه كما يوجب التعذيب والعقوبة في الدنيا في شرعه وقدره، فان فيه من الحكم والمصالح وتطهير العبد ومداواته واخراج المواد الردية عنه بتلك الآلام ما تشهده العقول الصحيحة، وفي ذلك من تزكية النفوس وصلاحها وزجرها وردع نظائرها وتوقيفها على فقرها وضرورتها الى ربها وغير ذلك من الحكم والغايات الحميدة ما لا يعلمه الا الله.

ولا ريب أن الجنة طيبة لا يدخلها الا طيب ولهذا يحاسبون اذا قطعوا الصراط على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

ومعلوم أن النفوس الشريرة الخبيثة المظلمة التي لو ردت إلى الدنيا قبل العذاب لعادت لما نهيت عنه، لا يصلح أن تسكن دار السلام في جوار رب العالمين، فاذا عذبوا بالنار عذاباً تخلص نفوسفهم من ذلك الخبث والوسخ والدرن، كان ذلك من حكمة أحكم الحاكمين ورحمته ولا ينافي الحكمة خلق نفوس فيها شر يزول بالبلاء الطويل والنار، كما يزول بها خبث الذهب والفضة والحديد فهذا معقول في الحكمة وهو من لوازم العالم المخلوق على هذه الصفة.

أما خلق نفوس لا يزول شرها أبداً وعذابها لا انتهاء له، فلا يظهر في الحكمة والرحمة، وفي وجود مثل هذا النوع نزاع بين العقلاء أعني ذواتاً، هي

شر من كل وجه ليس فيها شيء من خير أصلاً.

وعلى تقدير دخوله في الوجود، فالرب تبارك وتعالى قادر على قلب الأعيان وإحالتها واحالة صفاتها.

فاذا وجدت الحكمة المطلوبة من خلق هذه النفوس والحكمة المطلوبة من تعذيبها، فالله سبحانه قادر أن ينشئها نشأة أخرى غير تلك النشأة، ويرحمها في النشأة الثانية نوعاً آخر من الرحمة.

الوجه التاسع عشر: وهو أنه قد ثبت أن الله سبحانه ينشيء للجنة خلقاً آخر، يسكنهم اياها، ولم يعملوا خيراً تكون الجنة جزاء لهم عليه، فاذا اخذ العذاب من هذه النفوس وبلت العقوبة مبلها فانكسرت تلك النفوس وخضعت وذلت واعترفت لربها وفاطرها بالحمد، وأنه عدل فيها كل العدل، وأنها في هذه الحال كانت في تخفيف منه ولو شاء أن يكون عذابهم أشد من ذلك لفعل.

وشاء كتب العقوبة طلباً لموافقة رضاه ومحبته وعلم أن العذاب أولى بها وأنه لا يليق بها سواه ولا تصلح الا له فذابت منها تلك الخبائث كلها وتلاشت، وتبدلت بذل وانكسار وحمد وثناء على الرب تبارك وتعالى، ولم يكن في حكمته أن يستمر بها في العذاب بعد ذلك، اذ قد تبدل شرها بخيرها، وشركها بتوحيدها وكبرها بخضوعها وذلها.

ولا ينتقض هذا بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨] فان هذا قبل مباشرة العذاب الذي يزيل تلك الخبائث، وانما هو عند المعاينة قبل الدخول فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام الآيتان ٢٧ و٢٨).

فهذا انما قالوه قبل أن يستخرج العذاب منهم تلك الخبائث، فأما اذا لبثوا في العذاب أحقاباً، والحقب كما رواه الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال "الحقب خمسون الف سنة"

فانه من الممتنع أن يبقى ذلك الكبر والشرك والخبث بعد هذه المدد المتطاولة في العذاب.

الوجه العشرون: أنه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري في حديث الشفاعة "فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل.

فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه".

فهؤلاء أحرقتهم النار جميعهم فلم يبق في بدن أحدهم موضع لم تمسه النار، بحيث صاروا حما، وهو الفحم المحترق بالنار. وظاهر السياق أنه لم يكن في قلوبهم مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً، فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وش فع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا أرحم الراحمين فيقبض الله قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط".

فهذا السياق يدل على أن هؤلاء لم يكن في قلوبهم مثقال ذرة من خير، ومع هذا أخرجتهم الرحمة ومن هذا رحمته سبحانه سبحانه للذي أوصى أهله أن يحرقوه بالنار ويذروه في البر والبحر زعماً منه بأنه يفوت الله سبحانه، فهذا قد شك في المعاد القدرة ولم يعمل خيراً قط.

ومع هذا فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك وأنت أعلم، فما تلافاه أن رحمه الله فالله سبحانه في خلقه حكم لا تبله عقول البشر:

وقد ثبت في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله عز وجل: أخرجو من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام" قالوا: ومن ذا الذي في مدة عمره كلها من أولها الى آخرها لم يذكر ربه يوماً واحداً

ولا خافه ساعة واحدة، ولا ريب أن رحمته سبحانه اذا أخرجت من النارِ من ذكره وقتاً او خافه في مقام ما، فغير بدع أن تفنى النار ولكن هؤلاء خرجوا منها وهي نار.

الوجه الحادي والعشرون: ان اعتراف العبد بذنبه حقيقة الاعتراف المتضمن لنسبة السوء والظلم واللوم إليه من كل وجه ونسبة العدل والحمد والرحمة والكمال المطلق الى ربه من كل وجه، ويستعطف ربه تبارك وتعالى عليه، ويستدعي رحمته له.

واذا اراد أن يرحم عبده القى ذلك في قلبه والرحمة معه، ولا سيما اذا اقترن بذلك جزم العبد على ترك المعاودة لما يسخط ربه عليه، وعلم الله أن ذلك داخل قلبه وسويدائه، فانه لا تتخلف عنه الرحمة مع ذلك.

وفي معجم الطبراني من حديث يزيد بن سنان الرهاوي عن سليمان بن عامر عن أبي امامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ان آخر رجل يدخل الجنة رجل يتقلب على الصراط ظهراً لبطن، كالغلام يضربه أبوه وهو يفر منه، يعجز عنه عمله أن يسعى فيقول: يا رب بلغ بي الجنة ونجني من النار، فيوحى الله تبارك وتعالى اليه: عبدي ان أنا نجيتك من النار وأدخلتك الجنة أتعترف لي بذنوبك وخطاياك؟ فيقول العبد: نعم يا رب، وعزتك وجلالك ان نجيتني من النار لاعترفن لك بذنوبي وخطاياي فيجوز الجسر، ويقول العبد فيما بينه وبين نفسه: لئن اعترفت له بذنوبي وخطاياي ليردني الى النار، فيوحى الله اليه: عبدي اعترف لي بذنوبك وخطاياك أغفرها لك وأدخلك الجنة فيقول العبد: لا وعزتك وجلالك، ما أذنبت ذنباً قط ولا أخطأت خطيئة قط فيوحى الله اليه: عبدي إن لي عليك بينة، فيلتفت العبد يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً، فيقول: يا رب أرني بينتك فيستنطق الله تعالى جلده بالمحقرات، فإذا رأى ذلك العبد فيقول: يا رب عندي وعزتك العظائم فيوحي الله اليه عبدي أنا اعرف بها منك اعترف لي بها أغفرها لك وأدخلك الجنة فيعترف العبد بذنوبه فيدخل الجنة، ثم ضحك رسول الله ﷺ حتى بدت

نواجذه يقول: هذا أدنى أهل الجنة منزلة فكيف بالذي فوقه؟".

فالرب تعالى يريد من عبده الاعتراف والانكسار بين يديه والخضوع والذلة له والعزم على مضاته، فما دام أهل النار فاقدين لهذا الروح فهم فاقدون لروح الرحمة فاذا اراد عز وجل أن يرحمهم أو من يشاء منهم جعل في قلبه ذلك فتدركه الرحمة، وقدرة الرب تبارك وتعالى غير قاصرة على ذلك، وليس فيه ما يناقض موجب أسمائه وصفاته، وقد أخبر أنه فعال لما يريد.

الوجه الثاني والعشرون: أنه سبحانه قد أوجب الخلود على معاصي من الكبائر وقيده بالتأبيد ولم يناف ذلك انقطاعه وانتهاءه: فمنها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٣].

ومنها: قول النبي ﷺ: "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً" وهو حديث صحيح.

وكذلك قوله في الحديث الآخر في قاتل نفسه "فيقول الله تبارك وتعالى بادرني عبدي بنفسي حرمت عليه الجنة" وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجنّ: الآية ٢٣] فهذا وعيد مقيد بالخلود والتأبيد، مع انقطاعه قطعاً بسبب من العبد وهو التوحيد، فكذلك الوعيد العام لأهل النار لا يمتنع انقطاعه، بسبب ممن كتب على نفسه الرحمة وغلبت رحمته غضبه، فلو يعلم الكافر بكل ما عنده من الرحمة لما يئس من رحمته كما في صحيح البخاري عنه ﷺ: "خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، وقال في آخره فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولم يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار".

الوجه الثالث والعشرون: أنه لو جاء الخبر منه سبحانه صريحاً بأن عذاب النار لا انتهاء له، وأنه أبدي لا انقطاع له، لكان ذلك وعيداً منه سبحانه والله

تعالى لا يخلف وعده، وأما الوعيد فمذهب أهل السنة كلهم أن أخلاقه كرم وعفو وتجاوز يمدح الرب تبارك وتعالى به ويثني عليه به فإنه حق له ان شاء تركه، وان شاء استوفاه، والكريم لا يستوفي حقه فكيف بأكرم الأكرمين؟!

وقد صرح سبحانه في كتابه في غير موضع بأنه لا يخلف وعده، ولم يقل في موضع واحد لا يخلف وعيده.

وقد روى أبو يعلى الموصلي ثنا هديه بن خالد ثنا سهيل بن أبي حزم ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار".

وقال أبو الشيخ الأصبهاني حدثنا محمد بن حمزة حدثنا أحمد بن خليل حدثنا الأصمعي قال: "جاء عمرو بن عبيد الى أبي عمرو بن العلاء فقال: يا أبا عمرو، يخلف الله ما وعده؟ قال: لا، قال أفرأيت من أوعده الله على عمله عقاباً ايخلف الله وعده عليه؟ فقال أبو عمرو بن العلاء من العجمة أتيت يا أبا عثمان ان الوعد غير الوعيد ان العرب لا تعد عاراً ولا خلقا أن تعد شراً، ثم لا تفعله ترى ذلك كرما وفضلا، وانما الخلف ان تعد خيراً ثم لا تفعله، قال: فأوجدني هذا في كلام العرب، قال: نعم، أما سمعت الى قول الأول

ولا يرهب ابن العم ما عشت سطوتي ولا أختشي من صولة المتهدد
وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادي ومنجز موعدي

قال أبو الشيخ وقال يحيى بن معاذ: الوعد والوعيد حق، فالوعد حق العباد على الله ضمن لهم إذا فعلوه كذا أن يعطيهم وكذا، ومن أولى بالوفاء من الله، والوعيد حقه على العباد قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم، ففعلوا فإن شاء عفا، وإن شاء أخذ لأنه حقه وأولاهما بربنا تبارك وتعالى، العفو والكرم أنه غفور رحيم، ومما يدل على ذلك ويؤيده خبر كعب بن زهير حين أوعده رسول الله ﷺ فقال:

نبئت أن رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فاذا كان هذا في وعيد مطلق، فكيف بوعيد مقرون، باستثناء معقب بقوله ﴿ان ربك فعال لما يريد﴾ وهذا اخبار منه أن يفعل ما يريد عقيب قوله الا ما شاء ربك فهو عائد اليه ولا بد، ولا يجوز أن يرجع الى المستثنى منه وحده، بل اما ان يختص بالمستثنى أو يعود اليهما وغير خاف أن تعلقه بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] أولى من تعلقه بقوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٢] وذلك ظاهر للمتأمل وهو الذي فهمه الصحابة، فقالوا: أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن، ولم يريدوا بذلك الاستثناء وحده، فإن الاستثناء مذكور في الأنعام أيضاً، وانما ارادوا عقب الاستثناء بقوله: ﴿ان ربك فعال لما يريد﴾ وهذا التعقيب نظير قوله في الأنعام ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنعام آية ١٢٨) فأخبر أن عذابهم في جميع الأوقات ورفعه عنهم في وقت يشاؤه صادر عن كمال علمه وحكمته لا عن مشيئة مجردة عن الحكمة والمصلحة والرحمة والعدل، وإذ يستحيل تجرد مشيئته عن ذلك.

الوجه الرابع والعشرون: أن جانب الرحمة أغلب في هذه الدار الباطلة الفانية الزائلة عن قرب من جانب العقوبة والغضب ولولا ذلك لما عمرت ولا قام لها وجود، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ (سورة النحل آية ٦١) وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فَاطِر: الآية ٤٥] فلولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم، ومع هذا فالذي أظهره من الرحمة في هذه الدار، وأنزله بين الخلائق جزء من مائة جزء من الرحمة، فاذا كان جانب الرحمة قد غلب في هذه الدار ونالت البر والفاجر والمؤمن والكافر، مع قيام مقتضى العقوبة به ومباشرته له وتمكنه من اغضاب ربه والسعي في مساخطته، فكيف لا يغلب جانب الرحمة في دار تكون الرحمة فيها مضاعفة، على ما في هذه الدار تسعاً وتسعين ضعفاً، وقد أخذا العذاب من الكفار مأخذه، وانكسرت تلك النفوس وأنهكها العذاب، واذاب منها خبثاً وشراً لم يكن يحول بينها

وبين رحمته لها في الدنيا، بل كان يرحمها مع قيام مقتضى العقوبة والغضب بها فكيف اذا زال مقتضى الغضب والعقوبة، وقوى جانب الرحمة أضعاف أضعاف الرحمة في هذه الدار واضمحل الشر والخبث الذي فيها فأذابته النار وأكلته.

وسر الأمر أن أسماء الرحمة والإحسان أغلب وأظهر، وأكثر من أسماء الانتقام، وفعل الرحمة أكثر من فعل الانتقام وظهور آثار الرحمة أعظم من ظهور آثار الانتقام، والرحمة أحب اليه من الانتقام، وبالرحمة خلق خلقه ولها خلقهم، وهي التي سبقت غضبه وغلبته وكتبها على نفسه، ووسعت كل شيء، وما خلق بها فمطلوب لذاته، وما خلق بالغضب فمراد لغيره، كما تقدم تقرير ذلك والعقوبة تأديب وتطهير. والرحمة إحسان وكرم وجود والعقوبة مداواة، والرحمة عطاء وبذل.

الوجه الخامس والعشرون: أنه سبحانه لا بد أن يظهر لخلقه جميعهم يوم القيامة صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم كاذبين المفترين، ويظهر لهم حكمه الذي هو أعدل حكم في أعدائه وأنه حكم فيها حكما يحمدونه هم عليه فضلا عن أوليائه وملائكته ورسله بحث ينطق الكون كله بالحمد لله رب العالمين ولذلك قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة الزمر آية ٧٥) فحذف فاعل القول لإرادة الإطلاق وأن ذلك جار على لسان كل ناطق وقلبه. قال الحسن لقد دخلوا النار، وأن قلوبهم لممتلئة من حمده ما وجدوا عليه سبيلا. وهذا هو الذي حسن حذف الفاعل من قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٢] حتى كان الكون جميعه قائل ذلك لهم إذ هو حكمه العدل فيهم ومقتضى حكمته وحمده.

وأما أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٣] فهم لم يستحقوها بأعمالهم وانما استحقوها بعفوه ورحمته وفضله، فاذا أشهد سبحانه ملائكته وخلقه كلهم حكمه العدل وحكمته الباهرة.

ووضعه العقوبة حيث تشهد العقول والفطر والخليفة أنه أولى المواضع وأحقها بها، وأن ذلك من كمال حمده الذي هو مقتضى أسمائه وصفاته وأن هذه النفوس الخبيثة الظالمة الفاجرة، لا يليق بها غير ذلك ولا يحسن بها سواه بحيث تعترف هي من ذواتها بأنها أهل ذلك وأنها أولى به حصلت الحكمة التي لأجلها، وجد الشر وموجباته في هذه الدار وتلك الدار.

وليس في الحكمة الإلهية أن الشرور تبقى دائما لا نهاية لها ولا انقطاع أبداً، فتكون هي والخيرات في ذلك على حد سواء، فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة، ولعلك لا تظفر به في غير هذا الكتاب.

فإن قيل: فإلى أين أنتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن، التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟

قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] إلى هذا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء، وقال. ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء.

بل وإلى ههنا انتهت أقدام الخلائق وما ذكرنا في هذه المسألة بل في الكتاب كله من صواب فمن الله سبحانه، وهو المعان به وما كان من خطأ فمني، ومن الشيطان والله ورسوله بريء منه، وهو عند لسان كل قائل وقلبه وقصده والله أعلم.

خاتمة

هذا ما استطعت جمعه من فضائل شيخنا وإمامنا وقدوتنا شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله - جمعناها رداً على الذي زعم بجهله او بحقده - ان هذا الامام قد كفره العلماء قبل موته، بل تطاول وقال وأنه لو قدر له أن يقوم من قبره لنفذ فيه حكم الردة ليعلم كل من تعصب لهذا الرجل ونصره رغم باطله انه قد عمل في هدم الدين، واساء أعظم اساءة الى امام عظيم من أئمة المسلمين لا زال فضله بعد الله على أهل الاسلام منذ عصره والى يومنا هذا، ولا زال علمه وكتبه مرجع الباحثين، وقبله طلاب العلم الشرعي الحقيقي أجمعين.

ولا شك ان كثرة التعرض لعرض شيخ الاسلام ابن تيمية انما هو دليل فضله كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سمعت ان اناسا يسبون أبا بكر ويتهمونه قالت: أبى الله أن ينقطع عمله.. فمن سب مؤمنا كان له بهذا الأجر عند الله، واما الظالم الشاتم فله الخزي والعار في الدنيا والآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الاحزاب ٥٨) والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم، ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم.

كتاب

توجيهات تربوية مستقبلية لبناء الإنسان الصالح في الوطن العربي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على المصطفى للهداية والإرشاد وإخراج خير أمة أخرجت للناس: نبينا محمد المعلم، ﷺ وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

وبعد، ،

فإنني كنت قد ألقيت هذه المحاضرة في المؤتمر التربوي الثامن عشر الذين تقيمه جمعية المعلمين أمام جمع من المعلمين والمربين من كل البلاد العربية تقريباً، وقد كانت مفاجأة لي أن وجدت شبه اتفاق من الحاضرين على موضوع هذه المحاضرة، بالرغم مما فيها من نقد صريح ومن محاولة لوضع اليد على مكمن الألم وموضع الداء في تربيتنا المعاصرة.

وكان مما شد أزري، وقوى من عزيمتي أن كثيراً من الإخوة الأساتذة والمربين الذين حضروا إلقاء هذه الورقة تحمسوا لنقلها إلى دولهم، ومحاولة نشر أفكارها، وتطبيق مقترحاتها بكل سبيل وقد كنت أظن قبل أن ألقيها أنها لن تجد إلا تجاوباً محدوداً، وعاصفة من الرد والاستهجان ومحاولة للدفاع عن الأوضاع التربوية الخاطئة التي نعيشها، والتي أفرزت كل هذا الضياع الذي نعانيه،.. ولكنني وجدت غير ذلك تماماً. اللهم إلا بعض من يرى أنه ليس في الإمكان أبدع مما هو كائن الآن على الأرض العربية الإسلامية.

وقد رأى الإخوة القائمون على أمر جمعية المعلمين وفقهم الله وبارك فيهم. إعادة طبع هذه الورقة ونشرها تعميماً لفائدتها المرجوة إن شاء الله وقد كنت أرجو أن أتوسع في شرح بعض ما أجملته في هذه الورقة، وإضافة مجموعة جديدة من الأفكار، ولكنني لم أجد متسعاً من الوقت لذلك، وأرجو أن أتمكن من ذلك في طبعة أخرى.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملي له خالصاً، وأن يوفقنا إلى الأخذ بأسباب الفوز في الدنيا والآخرة هو السميع العليم.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت: ١٨ محرم ١٤٠٩هـ

الموافق ٣ أغسطس ١٩٨٨م

مدخل:

لا شك أن أعظم أهداف التربية قديماً وحديثاً، هو إيجاد الفرد الصالح أو المواطن الصالح، أو الإنسان الصالح النافع لنفسه وأمته، على الإختلاف الهائل جداً حول مفهوم الصلاح والفساد تبعاً للاختلاف في العقائد والقيم، وفلسفة الحياة، والهدف من الوجود.

وأجدني مضطراً وأنا أقدم هذه الورقة حول (**النموذج المقترح للتربية المستقبلية في وطننا العربي الإسلامي**). أن أقدم مجموعة من المقدمات الضرورية، التي لا أرى غنى عن الاتفاق عليها قبل تقديم هذا النموذج. وذلك أنه بالرغم من أننا ننتمي إلى عصر واحد نعيشه الآن، وأمة واحدة، ولغة واحدة، ألا إن الصورة المثلى للإنسان الصالح تختلف في تصورنا وتصور كل من يهتم بشأن التربية في وطننا العربي - اختلافاً بيناً جداً. وذلك أننا نتاج مناهج تربوية مختلفة، ومؤثرات تربوية متباينة، بل وتيارات فكرية مختلفة، وعقائدية متضادة. وبالتالي فموروثنا الفكري والعقائدي، والثقافي الذي يؤثر في تفكيرنا وسلوكنا موروث مختلف. وأنا أعتقد جازماً أنه لو أعطي لكل مهتم بالتربية والتعليم ومستقبل الأمة العربية ورقاً وقلماً، وقيل له اكتب لنا تصورك عن (نموذج الإنسان العربي) لخرجنا بصور ونماذج مختلفة متباينة جداً.

ومن أجل ذلك فإنني أرى أنه لا بد من الاتفاق أولاً على هذه المقدمات

الضرورية حتى نستطيع الاتفاق، أو الاقتناع بالنتيجة النهائية أو (النموذج المقترح للتربية المستقبلية في وطننا العربي).

١- التربية عملية فطرية وليست اكتشافاً عصرياً:

أحب أولاً أن أقرر هذه البديهية، وهي أن التربية عملية فطرية صاحبت الإنسان منذ وجد على هذه الأرض، وليست هي نتاج وثمرة للعلم الحديث: فالإنسان منذ وجد على سطح هذه الأرض، وهو يسعى للتغلب على ما يعترضه من مشكلات، ويستفيد بما يمر عليه من تجارب، ويربي صغاره من أجل الحياة، وينقل تراث آبائه وأجداده، إلى أبنائه وأحفاده، ويحتفظ بما يراه قيمة عليا..

فهذا نوح عليه السلام يشكوه إلى ربه الفساد التربوي الذي ينشأ عليه الأجيال في قومه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: الآيتان ٢٦-٢٧] ولا شك أن نوحاً لا يعني أن أولاد قومه يولدون كافرين فجاراً، وإنما يعني أنه ينشئون -من آبائهم- على الكفر والفجور. كما قال رسولنا محمد ﷺ: [كل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه] وهذا الشاعر العربي يقول:

ويشأ ناشئ الفتيان فينا   على ما كان علمه أبوه

ويقول آخر معتزاً بمنهج قومه في التربية والتعليم، وكرم الأصل:

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه   وتغرس إلا منابتها النخل

نعم قد ساهم الغلم الحديث في تطور الوسيلة، والأسلوب، فبعد أن كان العلم بالمؤدب الخاص، ووصايا الوالدين، والخطبة، والدرس المحدود.. أصبح بالمناهج الموحدة، والجامعات التي تضم عشرات الآلاف، والوسائل الهائلة من صحافة وتلفزيون، وتقنيات متقدمة.. الخ. ولكن الأهداف من التربية بقيت كما هي: في العز والسيادة والرفاهية، والتغلب على مشكلات الحياة،

والتنمية، والمواطنة الصالحة، وتحقيق الذات.. الخ. على اختلاف البشر كما أسلفنا في نظرتهم للحياة والكون بالتالي اختلافهم في الخير والشر والصلاح والفساد، والهدى والضلال والاستقامة والانحراف.

٢- لا تربية بغير سياسة عليا وتحديد للأهداف:

أحب أن أقرر ثانياً أنه لا تربية في أمة من الأمم بغير سياسة عليا وتحديد واضح للأهداف.. لقد كان وما زال من أعظم المعوقات لأمتنا عن بلوغ أهدافها، من التربية سواء في تنمية مجتمعاتنا أو ما يقال ويوصف (باللحاق بركب الحضارة). أو نقل تراثنا عبر الأجيال، أو التمسك بوحدة الأمة وشعور أبنائها بالعزة والإباء أو إيجاد الفرد الصالح والمجتمع الصالح أو التخلص من المشكلات المستعصية التي تعرضنا. أقول لا شك أن مجتمعنا العربي الإسلامي لم يبلغ شيئاً من هذه الأهداف كما ينبغي لعدم وجود سياسة عليا، وتحديد واضح للأهداف.

فما زالت النظم التربوية في بلادنا العربية -في مجملها- تقوم على الفصل بين عقيدة الأمة، وواقعها.. أو بعبارة أخرى بين الدين والدنيا، فهناك تعليم ديني يخرج أناساً يختلفون شكلاً وموضوعاً وأحياناً عقيدة وسلوكاً عن خريجي التعليم الدنيوي، ولا يوجد لليوم ربط صحيح بين الفرد والخريج وبين وظيفته في المجتمع، وبذلك أصبح -في الأعم والأغلب- العلم هدفاً من أجل العلم أو الشهادة، وليس من أجل هدف آخر، وبذلك لم نستفد من ثمرات التعليم وبركاته، بل أصبحت كثرة الخريجين عبئاً إضافياً على الأمة لما لم تستفد الأمة من علومهم وتحصيلهم وإنما أضافتهم إلى قطاع الموظفين الحكوميين الذي يتقاضون رواتب من مال الأمة ولا تسترد الأمة منهم مردوداً يوازي هذه الرواتب.

فما الفائدة إذا أنفقت الملايين في تعليم وتربية وتسليح جيش لا يحمي حياض الأمة، ولا يسهم في عزتها، ورد الأذى والعدوان عنها؟ وما الفائدة من إنفاق الملايين على تعليم آلاف المهندسين، وملايين الصناع، ولا توجد

سياسة عليا للإنتاج؟ ولا قنوات صالحة لاستثمار هذا العدد الضخم من الفنيين والمهندسين؟! وما الفائدة من تعليم آلاف الفتيات علوماً لا تنفعهن في دينهن ولا دنياهن ثم رصهن في المكاتب والدوائر يتقاضين رواتب من مال الأمة ولا يسهمن إسهاماً حقيقياً في نفع الأمة وإعلاء شأنها؟ وما الفائدة في تخريج المئات من العلماء والخطباء إذا لم يكن لهم وظيفة حقيقية في المجتمع من أجل التزكية والتعليم والتوجيه.

إن مجرد إحصاء المتعلمين والمتعلمات ليس دليلاً مطلقاً على أن المجتمع قد استفاد من التربية والتعليم وأصبح مجتمعاً صالحاً.

وأنا هنا لا ألوم مناهج التعليم بقدر ما ألوم السياسات العليا للأمة العربية.. وذلك أن الفرد يتكيف -في الأعم والأغلب- بما يسود مجتمعه.. فما الذي يحمل الطالب على أن يصبح صانعاً ماهراً، أو معلماً قديراً، أو طبيباً بارعاً، أو مخترعاً عبقرياً.. ما دام أنه سيخرج إلى مجتمع لا يجد النابهون المخلصون فرصتهم للعطاء والبذل، ولا مكانهم الملائم للعلم. وما دام أنه سيجد الوظيفة المريحة بالشهادة الجامعية التي يمكن أن يحصل عليها بوسائل كثيرة مريحة أيضاً دون عناء الكد والمذاكرة، والبحث والاستقصاء؟

والخلاصة أن الفلسفة العليا، والعقيدة السائدة، والمثل المحترمة المطبقة في المجتمع هي التي تخلق الأفراد، وتوجه سياسة التربية والتعليم وليس العكس..

فالأمة اليابانية مثلاً لو لم يكن النظام فيها قائماً على تقديس التراث واحترام الأمة بل وتقديسها، واعتقاد أن أرض اليابان هي أرض الشمس المقدسة، وأن كل عامل يجب أن يعمل للأمة تقديساً وحقاً، ثم لنفسه وأن يستفيد من ثمرات كده وجهده، في إطار نظام اقتصادي حر يقوم على المنافسة والكسب بغير حدود.. لو لم تكن هذه السياسة العليا والعقيدة التي يحترمها الجميع موجودة لما كان لليابان هذا الدور الاقتصادي القائم حالياً.

وللأسف أقول إن عامة الأمم في الأرض تملك سياسات عليا محددة،

وبالتالي أهدافاً تربوية واضحة، ومن ثم مناهج تعليمية وتربوية تنسجم مع السياسة العليا والأهداف. ولذلك يكون النتاج والثمرة شعوباً تحمل قدراً كبيراً من الانسجام والترابط والوحدة، **وأما في أمتنا العربية الإسلامية:**

فإما أننا نملك أهدافاً سليمة ولكنها تبقى في إطار النظرية والبعد عن التطبيق، وإما أنه توجد أهداف تضاد عقيدة الأمة، وروحها وتراثها ويراد تطبيقها قسراً وقهراً، وبذلك يصبح التعليم والتربية عملية إرهابية إجبارية لا تفرز إلا المقت والكراهية، وإما أنه لا توجد سياسات عليا أصلاً والأمر متروك للاجتهادات والتيارات المختلفة والمدارس الفكرية المتباينة؛ لأجل ذلك كله فإن النتاج العام للتربية والتعليم في وطننا العربي الإسلامي ناتج مشوه، مختلف.

ولست هنا ألوم التعددية الفكرية والثقافية، بل إن هذا أحد عوامل النهوض والإبداع. وإنما اللوم منصب على أن القاسم المشترك، والخطوط العريضة العليا للتعليم هي كما أسلفت القول فيها: إما إنه غير موجودة، أو أنها موجودة بصورة مغايرة لروح الأمة وعقيدتها وتوجهاتها، أو موجودة بصورة سليمة ولكنها بعيدة عن التطبيق الواقع.

٣- ما الأهداف التي نتوخاها من التربية والتعليم؟

وهذا سؤال معروف لماذا نتعلم؟ وما الذي نريده بعملية التربية والتعليم على مستوى الفرد أو الجماعة؟

والجواب أننا نتعلم لمجموعة من الأهداف والمقاصد. منها: أن التعلم هو وسيلتنا لفهم الكون والحياة والخلق. فلا بد للإنسان أن يعلم لماذا هو موجود على هذا الكون وإلى أين يسير؟ وما الغاية من وجوده؟ لأنه بغير ذلك تبقى الحياة تافهة لا معنى لها، أو عبثية لا غاية منها. ونتعلم كذلك لنحيا حياة طيبة؟ ونتعلم لنتغلب على المشكلات والكوارث والأخطار التي تعترضنا، وكل ذلك لا يتم بصورة صحيحة إلا بالعلم والتربية، واختراع الوسيلة المناسبة. ويتعلم الناس كذلك للحفاظ على تراث أممهم ولغتهم

ووحدتهم الفكرية والثقافية، ولغتهم القومية.. الخ.

وبالتالي فالتربية والتعليم هي الطريق إلى الإيمان والمعتقد، وكذلك الرقي المادي بل إن التعليم والتربية هي السبيل للبقاء فلا بقاء لأمة في زحمة الحياة وطوفان البشر ومزاحمة الأمم بعضها بعضاً إلا بعلم وتربية يحفظ عليها كيانها بل بقاءها ووجودها.

ثانياً: السياسات التربوية العليا
للأمة العربية الإسلامية
لا بد من إقرارها وفق الحقائق الآتية:

١- لا بديل للعرب عن الإسلام:

ارتبط العرب بالإسلام ارتباطاً عضوياً وتشربت روحهم عقيدة الإسلام، وتاريخ العرب الحق هو تاريخ الإسلام فلا بطولات عربية إلا البطولات الإسلامية، ولا تاريخ يذكر للعرب إلا يوم كانوا مسلمين.. وكل المحاولات التي أرادت الفصل بين العرب والإسلام قديماً وحديثاً باءت بالفشل. وكل محاولات الغزو الفكري والثقافي التي أرادت سلخ هذه الأمة العربية عن دينها وعقيدتها وقرآنها وتاريخها وتراثها باءت بالفشل الذريع رغم ما أنفق فيها وعليها ورغم أنه كانت وراءها أحياناً ميزانيات دول، وأساطيل جيوش ومخططات خارجية، ومناهج تربوية وتعليمية ومع ذلك فإن الأمة العربية ظلت متمسكة به..

وليس أدل على ذلك من هذا البعث الإسلامي في كل مكان من أرض العرب الأساسية ومن كل الأراضي التي عربها العرب الفاتحون وحولوا شعوبها إلى العربية والإسلام فهذا الشعب الفلسطيني يخرج بالقرآن وهتاف الله أكبر، ويجد في الدين والانتماء إلى أمة الإسلام دافعه وقوته للتصدي للغزو اليهودي. ومن قبل ذلك كله لم تحرر الأرض العربية الإسلامية في مصر والجزائر وليبيا وبلاد الشام من الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والإيطالي إلا بالجهاد الإسلامي، وإذا رجعنا إلى ما قبل ذلك لعلمنا أن الأمة العربية لم تنج

من الغزو المغولي الذي كاد أن يمحو وجودها وبقاءها.. إلى جانب عقيدتها وتراثها... لم تنج الأمة من هذه الكوارث إلا بالإسلام.

وفي هذا كله الذي أسلفناه دليل لكل ذي عينين أن هذه الأمة العربية لا بقاء لها ولا حياة إلا بالإسلام الذي امتزجت به امتزاج الروح بالجسد. وأن محاولة فصل هذه الأمة على الإسلام لا يعني إلا قتلها.. ولكن ما دام في الأمة عرق ينبض فإن هذا العرق لن ينبض إلا بالإسلام. الذي هو روحها وحشاشتها.

٢- لا بديل للعرب عن الوحدة:

الحقيقة الثانية التي يجب في ضوئها أن نقرر مناهج التربية والتعليم في وطننا العربي أنه لا بديل للعرب عن الوحدة، إن أرادوا البقاء كأمة لها تراث وتاريخ وموقع بين الأمم، وذلك أن العالم العربي بدوله الاثنتين والعشرين القائمة حالياً لا تستطيع واحدة منها أن تصمد للعواصف والأطماع العالمية إلا إذا احتمت في أخواتها، وتقوت بشقيقاتها بل ولا تستطيع دولة واحدة من دول أن تحقق مستوى لائقاً من العيش إلا بالوحدة فالدول العربية: إما دولة كثيرة السكان فقيرة الإمكانيات تعيش عالة على المساعدات الخارجية والهبات من الشرق والغرب، وإما دولة عظيمة الموارد والإمكانيات قليلة السكان تعيش طفرة اقتصادية مؤقتة، وإما دولة قد تملك هذا وهذا ولكنها في أتون حرب مستمرة تأكل الأخضر واليابس.

وفي مثل هذا المناخ والواقع السياسي والاقتصادي. حيث يحيط بنا الأعداء من كل جانب، بل وتقوم إسرائيل كدولة غريبة عقيدة وشعباً وفكراً وتوجهاً وتعلم أنه لا بقاء لها إلا بتفكيك أوصال هذه الأمة العربية، والحيلولة دون حيازتها لأي نوع من أنواع القوة.. أقول في مثل هذا الواقع والمناخ يستحيل بقاء أي دولة عربية إذا انفردت عن شقيقاتها. اللهم إلا أن تعيش مجرد تابع ذليل، أو شعب حقير بلا عقيدة ولا تراث ولا هدف، وإلا أن يكون هذا الشعب عاملاً في مستعمرات اليهود ومصانعهم أو مستجدياً مستهلكاً لهبات

الأمريكيين وبضائعهم، أو مقتاتاً مستجدياً لتسلط الروس وخرافاتهم.

تقول أحدث دراسة عن الواقع العربي المعاصر:

(والوطن العربي بانوراما للتناقضات، لا يوجد قطر عربي واحد بقادر على حل مشكلاته لوحده عبر عقود ثلاثة مقبلة -دون الاستفادة بإمكانات أقطار عربية أخرى. وحتى لو تحققت فهي غير كافية لحل مشكلتين أساسيتين: الغذاء والأمن القومي، بكل ما لذلك من تداعيات على الاستقرار الاجتماعي، ولا توجد استراتيجية شاملة للوطن العربي أو لأي أقطاره. وليس كل شيء يمكن شراؤه من السوق العالمي. وهناك خوف على الهوية والخصوصية) (من بحث المؤتمر العربي الأول للحاسبات الصغيرة (القبس ١٣-١-١٩٨٨م)).

٣- لا بديل للعرب عن الرقي المادي والاستفادة بتجارب الأمم:

الحقيقة الثالثة التي يجب أن توضع نصب أعيننا ونحن نخط الأهداف العليا للتربية في وطننا العربي، أنه لا بديل لنا عن الرقي المادي، والعلم الدنيوي الذي نحقق بواسطته مستوى لائقاً من العيش، وتيسيراً لسبل الحياة، ونحافظ بواسطته على كياننا ووجودنا، ونستثمر بواسطته ثرواتنا، وإمكانياتنا، ولا نعيش عالة على غيرنا كما هو الحال الآن الذي بلغنا فيه من الانحطاط أن نعتمد على غيرنا ليس فقط في طعامنا وشرابنا ولباسنا ومسكننا ومركبنا وتعليمنا وتخطيط مدننا بل وكذلك في تنظيف مطاراتنا ودوائرنا الرسمية، وتدريب فرقنا الرياضية، وفي أصغر شئوننا..

ونحمد الله سبحانه أنه لا يوجد في ديننا وعقيدتنا ما يحول بيننا وبين هذا الرقي المادي بل العكس تماماً فالدين الإسلامي قرآناً وسنة، واجتهاداً لعلماء الأمة كله يدعو إلى الأخذ بالقوة والحكمة، ومغالبة الأعداء، والانتصار على الشدائد، ومصارعة الأمراض والآفات، وليس أدل على ذلك من أن علماء أصول الفقه في مقام فروض الكفايات قرروا أنه يجب على الأمة إذا حاز

العدو سلاحاً أن يحوزوا مثله، وإذا دهمهم خطر أو مرض أن يتعلموا كيف يصرفوه عنهم، وإلا كانوا آثمين قاعدين عن الفرض والواجب..

ولكننا للأسف ابتلينا بمن يتخذ الدعوة للرقي المادي وتحصيل العلم الدنيوي ذريعة لفصل الأمة عن دينها وعقيدتها قائلاً: كيف يمكن التمسك بالإسلام في عصر الصاروخ والذرة.. وكأن الإسلام عدو أو مضاد للصاروخ والذرة.

والحال أنه ليس في الإسلام، لا في عقائده ولا في شرائعه ولا في أخلاقه ما يحول بين المسلم وبين الأخذ بأي سبب من أسباب القوة المادية، ولكن الذين يكرهون الإسلام ويعادون الأمة وجدوا في حيازة الغرب الكافر القوة المادية والرقي الحضاري ذريعتهم في صرف الأمة عن دينها زعماً أنه لا قوة ولا رقي إلا بالإنسلاخ من الدين والعقيدة.. وقد فاتهم بل أحرجهم أن أمماً كثيرة وشعوباً كثيرة قد أخذت بالرقي المادي مع تناقضاتها الفكرية والعقائدية بل مع إيمانها بالخرافات والخزعبلات كعبادة بوذا، والميكادو، وتقديس الصليب، وإنكار الصانع..

والخلاصة أنه يجب على الأمة العربية أن تخطط مناهجها التربوية على أساس من حيازة أسباب القوة جميعها حيث تعتمد على نفسها في سلاحها وطعامها وشرابها ومسكنها، وفي كل شئون حياتها مستفيدة بتجارب الآخرين وعلوم الأمم.

٤- وجوب الابتعاد عن مفاسد الحضارة المادية:

الحقيقة الرابعة التي يجب أن نعيها جيداً أن الحضارة المادية المعاصرة تحمل بين طياتها جراثيم دمارها ونهايتها وإننا إن لم نحتط أشد الحيطة لهذه الجراثيم فإن طوفان الدمار سيأخذنا معه.

فالحرية بغير حدود وقيود، والنفعية المادية التي قامت عليها فلسفة الحضارة المادية الغربية شجعت ألوان الفساد كله، ودمرت نفسية الإنسان

الغربي وحياته، وجعلته يعيش عيشة الحيوان بل أحط فالشذوذ الجنسي قد بلغ معدلات وبائية، وما هو أحط من ذلك وهو اغتصاب الأطفال من ذويهم، وتعاطي المخدرات الذي بلغ إلى الأطفال في سن التاسعة، وملايين المدمنين والذين دمرتهم الخمر، وارتباط الإنسان بعجلة الإنتاج ودوامة الربا والدين، وعبودية الإنسان للمادة والآلة وامتلاكها له. وليس بالعكس، والركض اللاهث خلف سراب السعادة والمنفعة واللذة دون إحساس بهدف الحياة وغاية الخلق، ونهاية المطاف؛ كل ذلك خلف الانهيار النفسي والعاطفي، وخلق هروباً جماعياً إلى الأديان الخرافية، والإيمان بالخزعبلات والترهات. وكل هذا وغيره سيسرع بانهيار هذه الحضارة الزائفة. وأحب أن أذكر بالحادثة الشهيرة التي حدثت في نيويورك عام ١٩٧٠ يوم أطفئت الكهرباء عن المدينة ليلة واحدة فقط فكان حصيلة ذلك أن خرج من في المدينة للسلب والنهب، حتى إنه نهبت مخازن تجارية إلى آخر شيء فيها. والعجب أنه تبين أن جميع الأعمار رجالاً ونساءاً قد اشتركوا في ذلك. وأن خمساً وعشرين ألف شرطي كانوا مكلفين بحراسة المدينة لم يداوم منهم أحد واشتركوا في النهب..

إن هذه الحادثة تفيدنا أن إنسان هذه الحضارة إنسان متوحش مهزوم من داخله وأن الذي يقيمه هو قوة القانون لا قوة الأخلاق. ومثل هذا المجتمع الذي يفترس فيه الأب صغاره عندما يكون في أمان من القانون واستناد إلى حاجة الابن الصغير والبنت الصغيرة إلى المأوى والطعام والشراب.. مثل هذا المجتمع لا شك أنه سينهار ويدمر نفسه عند انقطاع أول خط من الخيوط التي تربط بين عناصره.

والخلاصة أن هذه الحضارة الغربية المادية النفعية العمياء حضارة غارقة، ولا يجوز أن نربط سفينتنا بها والواجب علينا أن يكون أخذنا من هذه الحضارة انتقائياً حكيماً، وأن نستقل بأنفسنا في سفينتنا الخاصة وإلا فإننا سنغرق حتماً إن ركبنا في سفينة الغرب الهاوية.

٥- لا بديل عن منهج الإسلام الحق في التربية:

الحقيقة الخامسة التي يجب أن نعيها جيداً، ونحن نسعى إلى إرساء أسس جديدة للتربية في الوطن العربي أنه لا بديل لنا عن منهج الإسلام في التربية وذلك أن قادة العمل التربوي في الوطن العربي قد ربوا وفق النموذج الغربي، ودرسوا واقتنعوا بالنظريات الغربية في التربية بل إن مادة التربية التي تدرس في عامة جامعاتنا العربية لا تعرف من التربية إلا علماء الغرب ومفكريهم قديماً وحديثاً ووثنيات الشرق وفلاسفته، فمن سقراط وأرسطو (الذي يسمونه المعلم الأول) وأفلاطون، إلى لوثر، وفرنسيس بيكون وجون لوك، إلى جان جاك روسو، وبستالوزي إلى هاربرت سبنسر ثم جون ديوي الذي يجعلونه أباً للمدرسة الحديثة، إلى برتراند راسل وفي الشرق من كونفوشيوس إلى بوذا، وزرادشت.

هؤلاء هم قادة التربية في العالم شرقية وغربية وهذه هي المثل التي تدرس لأبنائنا على أنهم قمم التربية ومؤسسو الحضارة، ومعلمو البشرية ومربو الشعوب.

ومن العجيب حقاً أن قادة التربية في الوطن العربي والذين نقلوا إلينا فقط ما درسوه في جامعات الغرب وأمريكا، إذا قيل لهم ألا يوجد في التاريخ الإسلامي مثال واحد أو معلم أو فيلسوف يمكن أن يستفاد منه، ونفخر بأن العرب أو المسلمين من يماثل مفكري الغرب؟ كان رد الحاذق منهم والذي له بعض إلمام بحضارة الإسلام أن يذكر نعم يوجد في الإسلام الفارابي وابن رشد وابن سينا والغزالي!! وقد فات هؤلاء المتغربين أن الفارابي وابن رشد وابن سينا كانوا فلاسفة ينكرون الوحي والنبوات، ويفضلون الفيلسوف على النبي، وعامة ما عندهم منقول من فلاسفة الإغريق ولذلك قالوا عن الفارابي أنه عقل أرسطو، وقلبه.. وكان ابن رشد ممن يقول بقدم العالم وأنه مقارن لوجود الخالق، وأما الغزالي فهو -رحمه الله- ولو أنه بدأ حياته فيلسوفاً إلا أنه عاد وأكفرهم وبين تهافتهم، ثم عاد عن الفلسفة إلى التصوف وكانت آخر

حياته أن هجر الحاضرة وسكن البادية هائماً على وجهه، عليه مرقعة، وفي كتفه ركوة، وقد خلَّى للناس دنياهم وهجر حياتهم.. والغزالي رحمه الله وإن كان نموذجاً للزهد والانصراف عن الدنيا إلا أنه مع ذلك ليس نموذجاً للإسلام الصحيح، ولا للإنسان الصالح الذي نريد أن نعمر به الدنيا، ونبني الأجيال على غراره..

والخلاصة أن علم التربية الذي يدرس الآن في معاهدنا وجامعاتنا كثير منه علم فاسد، مثله ما قدمناه من أهل الضلالة الذين لا يتسع المقام لبيان فساد عقائدهم ومناهجهم ونظرياتهم.. وقد غاب عن حملة هذا العلم في بلادنا العربية النماذج الحقة للتربية. غاب عنهم الرسول ﷺ أعظم مصلح ومرب عرفته البشرية، غاب عنهم المدرسة الفكرية والتربوية لابن عباس وابن مسعود الذي علم أمة كاملة في العراق، غاب عنهم المدرسة الفقهية العلمية التربوية للإمام أبي حنيفة والمثال العظيم في الزهد. غاب عنهم مدرسة الإمام مالك التي كان يأتيها طلاب العلم شهراً راجلين من بلاد المغرب والأندلس.. غاب عنهم مدرسة الإمام الشافعي العالم المتنقل الذي أسس علم أصول الفقه وتصدى للانحراف الفكري والعقائدي الذي نشأ في وقته، وقوم أجيالاً كاملة وخلف بعده رجالاً وتراثاً وعلم ما زال يسطع نوره في الخافقين حتى قال عنه صنوه وتلميذه أحمد بن حنبل (كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس).

غاب عنهم مدرسة الإمام أحمد بن حنبل الذي كان يلتف حول درسه مئات الألوف. ولما سجنه المهدي ليقول أن القرآن مخلوق التف حول سجنه أكثر من مائة ألف طالب وبأيديهم الأوراق والأقلام ينتظرون ماذا يتكلم به حتى يكتبون..

غاب عن هؤلاء ولم يدرسوا المدرسة الكبرى للإمام ابن تيمية والتي أخرجت عشرات العلماء في كل علم؛ كابن كثير وابن القيم والإمام الذهبي والحافظ المزي، وكل واحد من هؤلاء كان قمة في العلم، غاب عنهم أن ابن تيمية هذا ترك وحده في علم المنطق والإلهيات والأخلاق والديانات

والشرائع، ما لو جمعت كل حكمة فلاسفة الشرق والغرب ما بلغت ورقة منه، وأنه لا وجه للمقارنة بين ما تركه ابن تيمية وما تركه هؤلاء إلا كوجه المقارنة بين التبر والتراب.

ومن أجل ذلك فإن أمامنا طريق طويل ليتخرج عندنا علماء تربية يؤمنون بالإسلام ويعرفون تاريخه، لأنه لا يمكن لمن نشأ على غير الإسلام أن يُنشئ الأجيال عليه.

ثالثاً: النموذج المقترح للتربية المستقبلية في الوطن العربي:

الأهداف: ينبغي أن تكون الأهداف العليا للتربية والتعليم ما يأتي:

على مستوى الأمة:

إيجاد الأمة الصالحة القائمة بأمر الله سبحانه وتعالى والمستخلفة لهداية الناس وقيادة الدنيا عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠].

ولا تكون هذه الأمة المقصودة خير أمة إلا إذا تحقق لها ما يأتي:

١- الإيمان بالله، وصدق الانتماء إلى الإسلام والأخذ بتعاليمه في كل شئون الحياة.

٢- الموالاة في الله والتآخي والتعاطف والتراحم حتى تكون الأمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

٣- وحدة الصف النابع عن وحدة المعتقد، ووحدة المشاعر ووحدة المصير والاتفاق في طريقة التفكير، ومناهج الاجتهاد والاستنباط.

٤- التخلص من العصبيات الجاهلية، والطائفية والمذهبية وكل ما من شأنه أن يمزق الأمة ويضعف بناءها.

٥- حيازة الأمة لكل أسباب القوة والمنعة المادية ولكل ما يغنيها عن أعدائها ويجعلها عفيفة مرهوبة الجانب.

على مستوى الفرد:

٦- إيجاد الفرد الصالح الذي هو لبنة هذه الأمة وثمرة التعلم والتربية ولا يكون هذا الفرد صالحاً إلا إذا اتصف بما يأتي:

أ- صدق الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبرسالاته وتكريس النفس لعبادته وتوحيده عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٢]. وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦].

ب- صدق الانتماء إلى أمة الإسلام الذي يحمل الفرد على الاعتزاز بهذه التسمية والجهر بها، والعمل والجهاد لتكون أمته أعز الأمم، وأقواها، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].

ج- صدق الموالاة في الله والمعاداة فيه بأن يكون المسلم أخاً للمسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، ولا يسلمه.

٨- بناء الفرد الكامل -حسب الاستطاعة والقدرة والاستعداد- في دينه وخلقه وجسمه، وعاطفته، ومهاراته، وإحسانه لعمله كله.

على مستوى المجتمع:

٩- بناء الأسرة الكريمة المترابطة والحفاظ عليها بما يكفل استمرارها وبقاءها وقدسيتها على النحو الذي أراده الله، وجاء به التشريع الإسلامي وتهيئتها لتكون المدرسة الأولى، والمحضن الأفضل للتربية والتعليم، وتنشئة الجيل الصالح.

١٠- الحفاظ على الولاء القبلي في ظل الإسلام، والبعد عن العصبية.

١١- الحفاظ على المواطنة الصالحة، البعيدة عن العصبيات الجاهلية.

الخلاصة أننا نهدف من وراء العمل التربوي كله في جميع مجالاته أن نبني الأمة الصالحة، والفرد الصالح، والمجتمع الصالح كما جاء إجمالاً في هذه

الورقة، وتفصيلاً في كتاب الله وسنة رسوله. لنكون بحق مستخلفين في الأرض تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥] .وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

رابعاً: السياسات التربوية التي يجب اتباعها وصولاً إلى الأهداف السابقة:

١- التعليم المستمر:

لا غنى لأمة تريد أن تحقق تلك الأهداف العظيمة في واقع الحياة إلا أن تتبع سياسة التعليم المستمر: التعليم مدى الحياة، وذلك أن العمر الإنساني بوجه عام قصير والإبداع العلمي والمعرفي لأي فرع من فروع العلم والمعرفة لا يمكن أن يتحقق في سن الدراسة بالمراحل الثلاث (الابتدائية، والثانوية، والجامعة) فخريج الجامعة لا يتخرج في أحسن أحواله إلا وقد حاز مفاتح العلم الذي تخصص فيه، وما لم يبدأ بعد ذلك بالدراسة الجادة، والخبرة العملية، والتعليم المستمر، فإنه لا يغدو إلا موظفاً محدود الإدراك ضحل المعلومات التي يمكن أن يتجاوزها الزمن بسرعته الهائلة واكتشافاته المذهلة، وتغيره الدائم.

فالمعلم الذي تتوقف معرفته بنهاية دراسته الجامعية معلم بائس فاشل، وكذلك العالم الذي لم يحز من علم الدين والشريعة إلا ما حازه في الجامعة لا يكفيه هذا ليحل مشكلات نفسه ويحسن عقيدته وعبادته، فضلاً عن أن يفيد غيره، وكذلك الشأن في الطبيب والمهندس والعامل الذي تنقطع دراسته وتحصيله ومعرفته بتخرجه.

وحياة المسلمين الزاهرة في صدر الإسلام شاهدة على المدى العظيم الذي بلغته الأمة الإسلامية باتباعها لسياسة التعليم المستمر.

ولكن التعليم المستمر لن يكون سياسة متبعة إلا إذا اقترن بالثواب

والعقاب. أعني أن تكون هناك ثمرات مادية للاستمرار في التعليم، وذلك حتى لا يصبح التعليم واجباً إضافياً دون المردود المادي أو المعنوي.

٢- التعليم للكافة: (ديمقراطية التعليم).

سبق الإسلام كل النظم التربوية التعليمية بأن جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم وأوجب على الأمة تعلم كل ما يفيدها، ويصرف الأخطار عنها، وجعل هذا من فروض الكفايات الذي إذا قام بها بعض الأمة سقط عن الباقين، وإذا لم يقم به البعض كان الجميع آثمين.

وبهذا فليس هناك في الإسلام طبقية في التعليم، ولا علوماً تعلم لبعض الناس وتحجب عن الآخرين.. وفتح مجال التنافس والتسابق على أشده بلوغاً إلى خيري الدنيا والآخرة.

ولا شك أنه من أجل نهضة الأمة، وتحقيقاً للأهداف السابقة فلا بد من مشاعية التعليم وإلزامية بعضه للذكور والإناث، والأغنياء والفقراء. والبعض الذي يجب أن يكون إلزامياً هو القدر من العلم الذي لا غنى للمسلم عنه في دينه ودنياه، ليكون مسلماً صالحاً وهو ما يعرف بفروض العلم.. وليس هنا مجال تفصيله وإنما القصد هو أنه يجب تحديد (كمية العلم) التي يجب تعليمها لكل فرد في الأمة، ثم فتح المجال للاستزادة لكل أحد بحسب طاقته وقدرته واستعداده، وإزالة كل عقبة يمكن أن تعترض هذا السبيل. وبالرغم من أن التعليم وخاصة الجامعي مكلف إلا أنه أعظم استثمار للمال في الدنيا والآخرة وهو يعطي أعظم مردود لأن الإنسان مكرم لذاته، ولا يكرم إلا بالعلم النافع.. وكذلك لأن الإنسان هو أداة الاستثمار الأولي ووسيلة التنمية العظمى إذا أحسن تعليمه وتربيته..

ومن أجل ذلك فإنه لا يجوز البخل بتاتاً، ولا تحديد الإنفاق الحكومي على التعليم. بل يجب أن تكون وزارات التربية هي الوزارات التي تنفق بلا حساب والتي لا يجوز أن يكون لها حد إلا حد الكفاية والاستعداد والاستطاعة للدولة..

وإنها لجريمة كبرى أن نحرم أبناء الأمة من التعليم الجامعي وما فوق الجامعي بحجة تقليل النفقات.. ثم نذهب لتبذير المال ونهدره في التفاهات والحقارات والشئون الثانوية الهامشية.

٣- التخصص والتكامل:

الأمر الثالث الذي يجب أن تسير عليه سياستنا التعليمية هي التخصص والتكامل، والتخصص لازم لأنه لا يمكن الإجادة في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا بالتخصص فيه فالمعرفة البشرية قد تراكمت بشأن هائل جداً، ومتابعة هذه المعرفة في عدد من التخصصات متعذر بل مستحيل.

وأما التكامل فلأن دراسة بعض التخصصات المتناثرة التي لا تشكل وحدة لأمر ما لا معنى لها، بل هو عمل عبثي يهدر الطاقات والجهود.. فما لم يكن التعلم متكاملاً يؤدي كل تخصص فيه إلى نتيجة واحدة مشتركة فإن علمنا وتعليمنا سيبقى بلا معنى ولا ثمرة.

وإن من ثمرات التخصص العظيمة أنه سيجعلنا نستفيد من كل فرد في الأمة مهما كان تحصيله ومستواه. وذلك أنه بالتخصص المبكر يمكن أن ينصرف كل فرد إلى ما يحسنه وما يستطيع أن يهضمه ويستوعبه، ولا يكون هذا الحشد الهائل من العلوم المختلفة والمعارف المتفرقة حائلاً دون مواصلة كثير من طلابنا لدراساتهم، وإحسانهم لتخصص يناسبهم. فقد رأيت كثيراً من الطلاب تركوا التعليم لأنهم لم يستوعبوا مادة واحدة من المواد الدراسية وبذلك أصابهم الاحباط وتوقفوا في أوائل السلم التعليمي وخرجوا للحياة العامة بلا شيء تقريباً.. وكان يمكن لهم أن يحسنوا شيئاً واحداً أحبوه وهضموه. بل إنني رأيت كثيراً من الطلاب الذين فشلوا في الدراسة النظامية التي تحشد المواد حشداً - نجحوا بعد ذلك أيما نجاح. عندما توجهوا إلى التعليم الذاتي فأجادوا وأفادوه فيما شقوه هم لأنفسهم في مجرى الحياة بعيداً عن التعليم الرسمي.

٤- العلم بثمرته وليس بذاته:

لا قيمة لعلم ما إلا بمقدار النفع الحقيقي الذي يؤدي إليه. وكلمة النفع هنا كلمة واسعة أعني نفعاً في الدين أو الدنيا.

وهذه السياسة لو اتبعناها فإنها ستوفر علينا كثيراً من الجهود الشاقة والأموال الكثيرة التي نبذلها في سبيل تعليم بعض العلوم والمعارف ولكن المحصلة من ورائها تافهة أو معدومة، ومن أجل ذلك فإن السياسة العامة للتعليم يجب أن تكون في جعل العلم في خدمة الهدف والغاية، وإخضاع العلوم كلها للتجارب الميدانية، والدراسات التفصيلية لمعرفة أثرها على الفرد والمجتمع والأمة وثمارها الحقيقية.

٥- إعطاء مفاتيح العلم لا تفصيلاته:

السياسة التعليمية الحكيمة يجب أن تعتمد على إعطاء مفاتيح العلم للمتعلم وتتركه بنفسه هو بعد ذلك ليكتشف ويبحث، ويحصل ويصل إلى النتائج بمفرده. وهذه السياسة ستوفر كثيراً من الجهود المهدورة في حشو الأذهان وستقلل من تضخم المناهج الدراسية، الذي يثقل كاهل الطالب، وتؤدي إلى كراهية الدراسة، وعدم الفهم والاستيعاب وتيه المتعلم وسط التفريعات والهوامش والحواشي والجزئيات. وستجعل المتعلم مدركاً لكنه العلم الذي تعلمه وحدوده وأبعاده، وستعلمه طرق البحث ومراجع الدراسة وتنمي موهبته وقدراته. وبذلك نخرج من مأزق الخريج الذي لا يعرف إلا ما عرف ولا يستطيع بنفسه أن يصل إلى شيء جديد لأنه درس بعض جزئيات العلم، ولم يعرف مراجعه، ولا مفاتحه، ولا كيفية البحث فيه، ولا طرق الاستنباط منه.

إننا نعاني من هذا الخريج العاجز المحدود وذلك في كل فروع المعرفة الدينية والدنيوية.

٦- إيجاد التناسق والتفاهم، وإزالة التناقض بين الوسائل التربوية المختلفة:

من أعظم ما يعاني منه المجتمع العربي الإسلامي في مجال التربية اختلاف بل تناقض المؤثرات التربوية على الفرد. فما يسمعه ويتعلمه الفرد في الأسرة يختلف في كثير أو قليل مع ما يتلقاه في المدرسة، وكذلك ما يسمعه في المسجد، وما يراه في التلفاز، وما يقرأه في الصحيفة، وما يربى عليه في إطار المجموعات العقائدية والسياسية والتيارات المختلفة بل إن الطالب يتلقى في المدرسة الواحدة، وفي الصف الواحد معلومات متناقضة لا يفصل بينها أحياناً إلا أنه يخرج هذا المدرس ويدخل الآخر لينسخ أو يلغي ما قرره سابقه، بهذا يظل الطالب في بلبلة وتناقض.

وإنه لا سياسة تعليمية صحيحة إلا بوجود وحدة فكرية أساسية بين ما يتلقاه المتعلم ويسمعه ولا شك أن هذا يحتاج إلى وضع سياسة تعليمية وتربوية وإعلامية عليا على مستوى الأمة، وهو ما تهدف هذه الورقة إليه، وهو الأمل الذي يحدو كل مخلص في الأمة وكل منتم إليها انتماءً حقيقياً. وقد قدمنا أن من أهم أسباب الفشل العملية التربوية من الوطن العربي أنه لا توجد سياسة عليا للتربية، ولا شك أن العقبة الكبرى أمام وضع هذه السياسة أن عالمنا العربي ما زال يتجاذبه تياران أساسيان:

التيار الأول: التيار الإسلامي الديني الذي يعتقد ويؤمن أنه لا حياة للأمة العربية إلا بالإسلام عقيدة وشريعة، والتيار الثاني: (اللاديني) الالحادي الذي يريد أن يقطع صلة هذه الأمة بالدين فيرى أنه لا رقي لها ولا مدنية ولا حضارة إلا أن تعيش بعيدة عن دين الإسلام وأن تأخذ من حضارة الغرب والشرق ما تشتهي..

ولا شك أن كلاً من هذين التيارين موجود والصراع بينهما قائم.. وهذا هو أكبر معوق عن وضع سياسة عليا موحدة للتربية والتعليم والإعلام.

وعلى كل حال فإن هذه القضية ستحسم حتماً لصالح الفريق الأول أهل

الإيمان والإسلام لما أسلفناه من مقدمات ولأن هذا هو وعد الله وموعوده، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

ومن عجيب أن الصراع بين الفريقين قائم على أشده في جامعات الوطن العربي كلها تقريباً، والتنافس قائم على قدم وساق بين الفريقين لاجتذاب واستقطاب أكبر عدد من الطلبة والطالبات، وما يقرر في قسم من الأقسام يقرر نقيضه في قسم آخر.

٧- التصدي للمشكلات وعدم الهروب منها:

التربية لا تؤتي ثمارها إذا ارتبطت بالواقع المعاصر وأما إذا كانت التربية تعليماً فلسفياً كلامياً بعيداً عن الواقع، أو اجتراراً معاداً للأخبار والعظات الماضية فإنها أعني العملية التربوية لا يكون لها أثر يذكر، ولا تحقق الأهداف المنوطة بها. وبالتالي فلا بد للتربية الناجحة أن تتصدى للمشكلات والعقبات التي تعترض مسيرة الأمة والمجتمع والفرد، وتحاول علاجها والخروج منها بطريقة علمية ونظر صحيح.

وأمتنا اليوم تجابه مجموعة كبيرة من المشكلات منها على سبيل المثال لا الحصر التحدي اليهودي الغاشم في فلسطين والذي يستهدف إخضاع الأمة لهيلمانه وسلطانه، وسلخ الأمة عن تراثها وعقيدتها وإسلامها، ومنها الغزو الفكري والثقافي للأمة وهذا الغزو يستهدف صرف هذه الأمة عن رسالتها الربانية في أن تكون خير أمة أخرجت للناس ومنها الفرقة والاختلاف وظهور العصبيات ونبش الأحقاد، ومنها الحرب العراقية الإيرانية وخلفياتها الفكرية والعقائدية، ومنها التخلف المادي، والاستعمار الاقتصادي والهدر في طاقات الأمة وجهودها وإمكانياتها، ومنها ذل الأمة والعيش تحت رحمة المعونة الأمريكية، والمساعدات الأمنية.. سلسلة طويلة من المشكلات والتحديات.

وفي سبيل تنفيذ سياسة تربوية ناجحة لا بد وأن يكون من برنامج العمل،

وخطة التعليم التصدي العملي لهذه المشكلات بالبحث والشرح والتحليل والمتابعة واقتراح الحلول ومعرفة أبعاد المشكلة، وأما السياسة الحالية المتبعة في أكثر دولنا العربية والتي تجعل الطالب في كل مراحل التعليم مغيباً بعيداً عن مشكلات أمته ووطنه، جاهلاً بمجريات الأمور حوله. فإنها لا تخرج إلا أفراداً عاجزين مشلولين جاهلين بالحياة من حولهم. وبالطبع مثل هذه الأجيال إذا خرجت إلى الحياة العملية فإنها لا تستطيع أن تصنع شيئاً وعليها أن تستقدم وتستعين بخبراء من الشرق والغرب لحل هذه المشكلات وبالتالي نعلق حل المشكلة في رقاب من خلقوها باختصار سياسة تربوية ناجحة تعني ربط المتعلم بمجريات الأمور.. وذلك بالطبع على قدر طاقته وجهده واستيعابه.

خامساً: المناهج:

في ضوء المقدمات والحقائق والأهداف والسياسات السابقة نستطيع توضيح الخطوط العريضة للمناهج الدراسية بما يلي:

العلوم الأساسية والقدر اللازم لكل فرد:

هناك قدر وكمية من التعليم لازمة لكل فرد في الأمة وذلك لإيجاد القاسم المشترك الواحد بين جميع أفرادها، ولتحقيق وحدة الأمة وتماسكها، وانسجام أفرادها وملاءمة كل فرد منهم للواقع وليحيا حياة طيبة وهذا القدر يجب أن يتضمن ما يلي:

١- في علم الدين:

القدر اللازم من علم الدين الذين يكون به الفرد مسلماً منتمياً انتماءً صحيحاً سليماً لأمة الإسلام، مؤدياً أداء صحيحاً لواجبات الدين وفرائضه، وممتنعاً عن بصيرة عما حرمه - ومستبصراً بصورة حسنة بالفروق الأساسية بين دين الإسلام وعقائد الشرك والوثنية والخرافة. وهذا القدر جيب أن يفرض في كل مراحل التعليم بما يناسب كل مرحلة وأن يقتصر على ما هو من باب الفرائض واللازم والذي لا يجوز أن يجهله المسلم من أمر الدين.

٢- اللغة العربية:

اللغة العربية هي وسيلة الاتصال بين أفراد الأمة وهي أعظم رابط بين أفرادها بعد العقيدة، وهي أغلى تراث بعد القرآن والسنة، وهي جمال الأمة

وزينتها، ورمز عزها وسيادتها، وهي الغنية بما تحمله من العلوم والآداب عبر تاريخها الناصع. والمحافظة عليها يجب أن يكون صنوع الإيمان والعقيدة، فلا بقاء للدين إذا زالت اللغة، ولا بقاء للأمة، دونها.

ولذلك فيجب الاعتناء بتعليمها طيلة مراحل التعليم نطقاً وكتابة وحديثاً. حتى تتحول إلى سليقة وممارسة ويقضي تدريجياً على اللحن واللهجات الشاذة. وبالتالي فيجب تيسير سبل تعلمها وإلزام المعلمين والموجهين والكتاب ألا ينطقوا ولا يكتبوا إلا بها. وترجمة كل العلوم التي ندرسها إليها، وتقدير الحد اللازم من تعليمها في كل مرحلة من مراحل التعليم. وجعل هذا القدر واجباً أساسياً لا نجاح ولا انتقال من مرحلة إلى أخرى إلا بإحسانه وإتقانه.

٣- التربية والسلوك والأخلاق:

لا بد لكل فرد من الأمة أن يلم بقواعد التربية الأساسية لأنه ينتظر لكل من يعيش إلى مرحلة الشباب والكهولة أن يكون زوجاً وبالتالي لا بد وأن يطلب منه أن يكون مربياً ومعلماً.. وما لم يكن للأب والأم علم بقواعد التربية وأصول الأخلاق فإن تربيتنا تظل متعثرة، وسلوكنا ينحط وأخلاقنا تندثر.. خاصة والأسرة هي المحضن الأساسي الذي يتلقى فيه كل فرد مبادئ الخلق وآداب السلوك وأولويات المعاملة والآداب. وما دام الأمر كذلك فلا غنى لأحد في المجتمع عن تعلم الأصول الأساسية للتربية ويجب أن يكون هذا مقرراً إجبارياً بالقدر اللازم في كل مراحل التعليم.

٤- تاريخ الأمة الإسلامية:

لن يتحقق الانتماء إلى الأمة الإسلامية إلا بدراسة تاريخ هذه الأمة دراسة تربي العاطفة، وتحقق الارتباط والمحبة، وتجعل الفرد يعيش آلام أمته وآمالها، والفرد الذي يجهل تاريخ أمته يعيش مبتوتاً مقطوعاً عنها.

ومن أجل ذلك فلا بد من قدر لازم ومقرر مشترك يشمل أهم أحداث

التاريخ الإسلامي مع الاهتمام بسيرة الرسول ﷺ بوجه خاص ثم سيرة الخلفاء الراشدين ثم الأحداث العظمى والكبرى فيما عدا ذلك في دولة بني أمية وبني العباس ودول الطوائف وبني عثمان والغزو القديم والجديد والذي تعرض له العالم الإسلامي، بدءاً بالحملات المغولية والصليبية ونهاية بالاستعمار الأوروبي والشيوعي الحديث. إن الإلمام بتاريخ الأمة لو على وجه الإجمال سيعطي كل فرد في الأمة تصوراً عاماً لأيام الأمة: حلوها ومرها وسيربط الفرد عاطفياً، وعقلياً، وعلمياً، وانتماءً بأمته الإسلامية العظيمة العريقة.

هذه هي المواد الإجبارية التي يجب تدريسها لكل فرد في الأمة مهما كان نوع العمل والتخصص الذي يسير فيه بعد ذلك: الدين، واللغة العربية، وأصول التربية والأخلاق ومجمل تاريخ الأمة الإسلامية..

لو وضعت المناهج السليمة المناسبة لكل الأعمار في المواد السابقة فإننا سنضمن في النهاية جيلاً موحد الفكر والعاطفة، متفقاً على الهدف والغاية، مترابطاً منتمياً بعيش بآمال أمته وآلامها.

الثابت والمتحرك:

لا يوجد علم من العلوم دينياً أو دنيوياً إلا وفيه قضايا ثابتة لا تتغير، ويوجد فيه كذلك قضايا متجددة..

فالثابت في الدين مثلاً مسائل الإيمان، وأصول الأخلاق وقواعد التشريع، وأصول الفقه، وأما المتجدد فهو كل ما يدخل في باب الاجتهاد، كالنوازل، والمعاملات المتجددة، وقضايا العصر.

وكذلك الحال في كل العلوم المادية الدنيوية فيها حقائق ثابتة، وفيها كذلك مكتشفات جديدة، ونظريات معاصرة، وتبدل في النظرة والوسيلة.

وما لم يكن المنهج الدراسي يحمل بين الأصيل الثابت، والجديد المتغير فإنه سيبقى منهجاً جامداً متخلفاً لا يؤدي الدور المطلوب منه.

فتدريس ثوابت الدين فقط بعيداً عن الواقع المتجدد وحاجات الناس

سيخلق الهوة بين المثال والواقع وسيوجد الحيرة في كيفية العيش بالدين في الوقت الراهن. وتدريس اللغة العربية آدابها القديمة فقط دون النتاج الأدبي المعاصر سيقطع الفرد عن ملاحقة التطور الجمالي، والفكري أيضاً. ودراسة العلوم، نظرياتها الذي عفى عليها الزمان وتجاوزتها الأحداث والمكتشفات سيكرس التخلف والتبعية.

وكذلك العكس. دراسة الجديد في كل علم دون معرفة أصوله ومنطلقاته، وثوابته سيجعل الدارس مبتوتاً حائراً لا يرتكز على أساس.. وبالتالي فالمنهج الدراسي لا بد أن يقوم على الأصالة والتجديد المستمر، والمتابعة الدائمة لما يجد في الساحة من معطيات.

سادساً - المعلم:

العملية التربوية الناجحة يجب أن تكون سلسلة متكاملة الحلقات بدءاً بالأهداف العليا، ثم السياسات العامة، ثم المناهج، ثم المعلم، ثم الإدارة التربوية، ثم ما يتبع ذلك من الكتاب، والمقر.. والأمور المساعدة الأخرى. ويقولون: إن السلسلة تقدر قوتها بأضعف حلقاتها فلو كانت كل حلقات السلسلة قوية متين، ولكن كانت حلقة واحدة من حلقاتها ضعيفة فالسلسلة ولا شك تغدو ضعيفة هشة.

فما الفائدة أن تنفق الأموال الطائلة والجهود العظيمة في وضع المناهج الجيدة والأهداف الممتازة، والأبنية الفارهة، المريحة المناسبة المزودة بكل المعدات والآلات ولكن الإدارة التربوية تكون فاسدة، تثيب المنافق المشايع لها، وتعرقل المدرس الجاد وتهدر الإمكانيات فيما لا يفيد، وتنشغل بالتافه من الأمور، وتهمل الأساسيات والضروريات. لا شك أن كل الجهود السابقة تصبح هدراً قليلة أو عديمة الفائدة..

ويقولون: إن المدرس هو حجر الزاوية في العملية التربوية وهذا قول حق فالمدرس هو الحلقة الأساسية في العملية التربوية لأنه أداة التنفيذ، للعملية بأسرها.

وللأسف فالمدرس في بلادنا العربية بوجه عام هو أضعف الحلقات التربوية، وهذا الضعف له أسبابه الكثيرة:

لقد أصبح الشرف في مجتمعاتنا منوطاً بالمركز المالي للشخص وأعني

بالشرف المكانة في المجتمع؛ ولأن السياسات العليا للتربية في وطننا العربي تنظر إلى التعليم على أنه عملية ثانوية، أو إلهائية، أو شكلية فإنه وضعت المدرس في مقام دوني في السلم الاجتماعي.. فقدمت عليه الطبيب والمهندس، والصانع، والموظف الإداري.

فالتربية والتعليم عمل غير منظور، وجهد جبار ولكنه يؤثر تأثيراً بطيئاً جداً لا تراه العين وهو معنوي أكثر منه حسي مشاهد، فشتان بين الطبيب الذي تذهب إليه بطفلك المريض وقد اشتدت درجة حرارته، وعلا صراخه وأنت مشفق عليه من الموت فيلمسه الطبيب بيديه، ويصرف له الدواء المناسب. ويعطيه ما يخفف آلامه.. فلا تفتأ أن يعود إلى الطفل ابتسامته وعافيته فلو أنك أخرجت كل ما في جيبك وأعطيته للطبيب لما كنت حزيناً على ذلك ولا آسفاً عليه..

وأما المدرس فإنك تدفع إليه بابنك ليغرس فيه الأخلاق الطيبة، ويقوم عوجه النفسي والعقلي ويزرع فيه العلوم النافعة وهذا التقويم والتربية والتعليم لا يظهر على ابنك في يوم ولا يومين ولا شهر ولا شهرين.. إنها عملية بطيئة معنوية غير مرئية..

وبالرغم من أن العملية التربوية كذلك عملية خطيرة جداً؛ فالمعلم قد يزرع الطهر والعفاف والشجاعة وقد يزرع الخسة والدناءة والشر والانحراف.. إلا أنه لا يدرك هذا إلا القليل من الناس ممن لهم خبرة بمعنى التربية والتعليم و الفضيلة والرذيلة والاستقامة والانحراف.

والخلاصة أن العملية التربوية عملية خطيرة جداً لأنها تتعلق بالنفوس والعقول. ومعرفة النفس والعقل وأمراضهما، وعللهما أكبر بكثير من معرفة الجسم وأصعب لأنك في الحقيقة تتعامل مع المجهول، ومع المعاني وليس مع المحسوس المعلوم. ولكن يبقى أمام الناس أن عمل الطبيب ظاهر واضح وعمل المهندس والصانع ظاهر واضح لأنه يتعامل مع المحسوس الظاهر، وأما عمل المدرس فلأنه يتعامل مع المعاني والمدركات فإن عمله خفي بطيء

ولما كان الأمر كذلك فإن المدرس وضع في مرتبة دونية في المجتمع من حيث الأجر والراتب أولاً ثم بالضرورة من حيث نظرة عموم الناس إليه، ثم انعكس هذا وللأسف على القائمين بالتربية أنفسهم فأصبحت نظرة المدرس لعمله منطلقة من هذه النظرة السائدة في المجتمع فأصبح يحتقر مهنته ويزري بوضعه ووظيفته. وقلما نجد مدرساً يدرك خطورة ما يصنع، وأهمية ما يقوم به..

بل لقد استتبع هذا كله بالضرورة أن يتحول إلى مهنة التعليم من فشلوا في إيجاد عمل آخر ومهنة أخرى فيدخل إلى التعليم كراهية واضطراراً. وساعد في ذلك أيضاً الترتيب الجاهل للدخول إلى الجامعات. فوضعت النسب العليا للعلوم المادية، الطب والهندسة وخصت النسب الدنيا بالكليات التي تعلم العلوم الإنسانية وأهمها التربية.. فاستتبع هذا بالضرورة وجود المستويات الثقافية المتدنية في الجهاز التربوي والتعليمي..

وللأسف ليس لهذه الحال مثيل قط في كل نظم التعليم في العالم. فالدول العقائدية التي تقدر مهمة المعلم في غرس المعتقد كروسيا جعلت المعلم في قمة السلم الوظيفي والاجتماعي، والدول المادية التي تقدر الإنتاج كأمريكا جعلت المعلم كذلك في قمة السلم الوظيفي والاجتماعي لما تعلم من الدور العظيم للمعلم في التنمية والحفاظ على كيان الأمة.

وأما في دولنا العربية المبتلاة والتي لا تقدر دنيا ولا ديناً، لا تعرف خطورة التربية وأهميتها فإنها جعلت المدرس أضحوكة المجتمع ومثال تنذره، وجعلته البائس الفقير.. الذي يستحق من المجتمع في أحسن الأحوال الرثاء لا العزة والإكبار.

ومستحيل أن تنهض العملية التربوية مستقبلاً في الوطن العربي إلا بتغيير جذري لوضع المعلم. حيث تقصر هذه المهنة على أهلها الأكفاء حقاً، وتبدأ أولاً بجعل النسب العليا لكليات التربية والعلوم الإنسانية التي تخرج المعلمين، وأن يوضع المدرس في أعلى درجات السلم الوظيفي، ويبعد عن

المهنة كل من ليس من أهلها، وتجعل الإدارة التربوية خادمة للمدرس وليس العكس، وعند ذلك فقط تكون قد أصلحنا أهم حلقة من حلقات السلسلة التربوية.

وأعود فأقول: إن لا تربية ناجحة إلا بإتقان حلقات السلسلة جميعها، والمدرس هو الحلقة الأساسية، فلا بد من التوجه لإصلاحه أولاً.

خلاصة البحث

والآن نأتي إلى خاتمة البحث وخلاصته:

لا شك أن التربية في عالمنا العربي الإسلامي تعاني تخلفاً وفشلاً كبيراً فعالمنا العربي يعاني من التفرق والاختلاف، والاستعمار والصهيونية، والتخلف والتبعية والعيش عالة على المعونات الأجنبية والثقافة والفكر الغربي المادي..

وكل ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى فشل التربية لأن التربية هي الوسيلة التي يستطيع بها مجتمع ما أن يتجاوز مشكلاته، وبالتالي فنحن أحوج ما نكون اليوم إلى خطة تربوية شمولية تستطيع الأمة بواسطتها أن تحقق أهدافها في أن تكون بحق كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتعلي كلمته في الأرض، وتنقذ البشرية من التيه والضياع إلى صراط الله المستقيم.

ولن يتحقق هذا المنهج التربوي لبناء الإنسان العربي، والمجتمع العربي الصالح إلا باتباع ما يأتي:

(١) أن تكون مواصفات الإنسان العربي الصالح هي مواصفات الكتاب والسنة للمسلم: من الإيمان بالله وتقواه، والدعوة إلى دينه والالتزام بشريعته، والجهاد في سبيله بكل أنواع الجهاد نفساً وكلمة ومالاً وسيفاً، والذي يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، والذي يتخلق بكل الأخلاق الطيبة التي يحبها الله ويرضاها والذي هو بحق غاية الوجود والذي من أجله خلقت السماوات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٦] .. [الزوال

السموات والأرض أهون عند الله من إراقة دم عبد مؤمن].

(٢) أن تكون مواصفات المجتمع العربي المسلم الذي نسعى إلى تحقيقه في واقع الأمر هو المجتمع القائم على دعوة التوحيد ورسالة الإسلام متآخياً في الدين، متحاباً في الله ساعياً لنشر رسالة الإسلام في الأرض، وتحقيقه في الكون؛ يمتلك القوة بكل معانيها معتزاً بدينه وتاريخه وتراثه، لا يعيش على معونات أو هبات من أعدائه، مستقلاً استقلالاً حقيقياً مستغنياً بالهداية التي هداه الله بها، منفتحاً على العالم كله، مستبصراً في النقل عن الآخرين مجاهداً في سبيل الله. محققاً السعادة الحقيقية لكل من يعيش في ظلاله.

(٣) ستبقى هذه الأهداف مجرد أمان وطموحات ما لم توضع موضع التنفيذ بدءاً بالسياسات العليا للدول العربية، ومروراً بكل الجهات التربوية والإعلامية والتنفيذية.

(٤) كل الدعوات التي تدعو لفصل العرب عن الإسلام ستبوء بالفشل وبالتالي فكل الأموال والجهود التي تبذل في هذا السبيل ستذهب من مال الأمة هدراً، ولن يستفيد الساعون لذلك إلا مزيداً من هدر الجهود والأوقات وتعطيلاً مؤقتاً لمسيرة الأمة بهذا الدين.

فالدعوة إلى أن يكون التعليم والتربية عربياً غير إسلامي إنما هي محاولة إحياء جسد بلا روح، وحضارة بلا تقوى وأخلاق، وقد جرب هذا مراراً فكانت حصيلته مزيداً من الخسار والدمار. والدعوة إلى أن يكون التعليم والتربية في الوطن العربي الإسلامي إنسانياً دون انتماء عربي وإسلامي إنما هي دعوة إلى تغريب الأمة وتضيعها وتوهنها وبالتالي لتصبح الأمة وأبناؤها فريسة لكل أصحاب الأفكار والمبادئ الهدامة، ونهباً مشاعاً لكل من أراد تجنيد هذه الأمة في سبيل أهدافه الخبيثة ومآربه الشريرة، بل تجنيد أبناء الأمة أنفسهم لهدم أمتهم وعقيدتهم وتراثهم.. الذي به قوتهم ووحدتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

(٥) لن يستقيم حال الأمة ما لم يوضع المعلم والمربي في منزلته الحقيقية

على رأس السلم الوظيفي، وما لم يطهر الجهاز التربوي والتعليمي من الذين وضعتهم الظروف السيئة والترتيب السيء في هذه المهمة وما لم يكن اختيارنا للمدرس والمربي اختياراً سليماً وفق معايير الأهداف التي نرمي إلى تحقيقها.

هذا والحمد لله أولاً وأخيراً،،

كتاب

مِنْ خُطَبِ المِنْبَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

إلى شيخنا وأستاذنا الفاضل:

عبدالرحمن عبدالخالق

أهدي هذه الأبيات:

يا من إليه قوافل الركبان ... تبغي العلوم قوية الإيمان
لله درك يا ابن (عبد الرحمن) ... فيك التقى والعلم يلتقيان
هذي علومك قد أتيت ببعضها ... صيداً لعمرك صائد المرجان
وجمعتها خطباً تنبه سامعاً ... ضل الطريق وتاه في الوديان
يا شيخنا لا تلتفت لمشنع ... ومضلل ومشكك فتَّان
جاهد وذكر واصطبر لا تلتفت ... البحر أنت ورافد الخلجان
أنت الذي ورث العلوم من الذرى ... منهم (تقي الدين) و(الألباني)
أشجار خيرٍ أثمرت أمثالكم ... يا حبذا الأثمار بالأغصان
ثمراتكم تبقى ويذهب حاسد ... كم من حسودٍ غار في الأزمان

أبو الحارث الخراز

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:الآية١] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الاحزاب:الآيتان ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد،

إليك أيها القارىء الكريم هذه الكلمات العميقة والعبارات البديعة التي القاها شيخنا وأستاذنا عبد الرحمن ابن عبد الخالق - حفظه الله - من على المنبر وهو يخاطب بها طلبة العلم والجماهير.

وهي هتافات جزلة، ومضمون عميق، وفكر بسيط استخرجها من معينه الثر المستمد من الكتاب والسنة، وهي خطب مرتجلة، ولكنها بليغة المضمون؛ رفيعة المعنى؛ من إمام نصح؛ وما زال ينصح أمته؛ ويرشدها إلى الطريق الصحيح.

فبادرت إلى كتابتها ليعم نفعها، وليعلم القارىء أني قمت بضبط أحاديثها وتخريجها دون إطالة مملة ولا نتف مخلة بإذن الله تعالى، ولعل هذه المجموعة تكون بداية الطريق في تدوين ونشر خطب الشيخ - حفظه الله - علماً أني غالباً ما أقتصر على الخطبة الأولى، وأما الخطبة الثانية فتارة أبقيها لما فيها من زيادة علم وفائدة.

وأسأل الله سبحانه أن ينفع بها الجميع، وأن يتقبلها بقبول حسن، وأن يجزي شيخنا خير الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين

وكتب:

أبو الحارث الخراز

السبت ٢٢ جمادي الأولى ١٤١٤هـ

الدعاة: بناء لا هدم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أكرمنا الله تعالى بالانتساب إلى خير الأمم، أمة محمد ﷺ الأمة التي شاء الله تبارك وتعالى أن تكون آخر الأمم، تحمل رسالة الله تبارك وتعالى إلى آخر الدنيا.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: الآية ٢٨].

ويقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠].

ويقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: الآية ٥٥].

هذه الآيات وغيرها كثير تبين أن اختيار الله للأمة المحمدية لتكون هذه الأمة العزيز القائمة بأمر الله تبارك وتعالى في كل العصور إلى آخر الدنيا، وأن الله تبارك وتعالى لا بد أن يمكن لها دينها الذي ارتضاها لها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] ، فالملة والدين والطريق الذي ارتضاه الله عز وجل لهذه الأمة قد أخبر الله تبارك وتعالى أنه سيمكن له في الأرض وأنه سيبقى إلى قيام الساعة، كما قال ﷺ: [لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون] (أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٢) والبخاري (٦/ ٦٣٢ - ١٣/ ٢٩٣، ٤٤٢ الفتح) ومسلم (١٩٢١) عن المغيرة بن شعبة).

هذه الأمة العظيمة، لا شك أنها لم تقم إلا بجهود عظيمة، جهود النبي ﷺ والعصبة المؤمنة التي التفت حوله، ودعت إلى الله تبارك وتعالى وقاتلت في سبيله، ثم هذه الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل من العلماء، والوعاظ، والعباد، والدعاة، والمجاهدين في سبيل الله، فالأمة الإسلامية بحمد الله قد بقي فيها الدين، وبقي فيها الجهاد، وبقي فيها ما شاء الله عز وجل أن يبقى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا توجد أمة في الأرض من أمم الأنبياء كان لها ما لهذه الأمة من جهاد وبذل، وتضحية وإعلاء لكلمة الله عز وجل، فلو نظرنا في تاريخ اليهود، وهي أمة أكرمها الله عز وجل يوماً من أيامها، وجعلها خير أمم الأرض في وقتها، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٤٧] .

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدّخان: الآية ٣٢] .

وهذا في بني إسرائيل، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ [الدّخان: الآية ٣٣] .

لو نظرنا، وقارنا بين الصالحين والقائمين بحدود الله وأمر الله في هذه الأمة، أمة محمد ﷺ وأمة موسى عليه السلام وجدنا الأمر شتان.

شتان بين تلك الأمة وهذه الأمة، في قيامها بأمر الله عز وجل وكثرة

الصالحين والمصلحين، ووجود جيل بعد جيل يدعو إلى الله تبارك وتعالى، ويجاهد في سبيل الله.

وكذلك أمة عيسى عليه السلام في كتاب الله أمة عظيمة داعية إلى الله، ولكن شتان بين من بقي على الدين والتوحيد من قوم عيسى عليه السلام وقام بأمر الله عز وجل حق القيام، وبين هذه الأمة الإسلامية التي ركزت واستقرت فيها عقيدة التوحيد، واستقر فيها كثير من أعمال الصلاح والتقوى، كالصلاة والصوم والزكاة والحج والهجرة والجهاد، وكثير من شعب الإيمان، فإذا نظرنا إلى شعب الإيمان التي قال فيها النبي ﷺ: [الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان] (أخرجه مسلم وغيره، وانظر تخريجه في الصحيحة للألباني (١٧٦٩)).

أقول: لو نظرنا إلى شعب الإيمان التي تشمل بالطبع على التوحيد والصلاة والصوم والزكاة والحج والهجرة وغير ذلك مما أمر الله عز وجل به من وجوه الإحسان، أقول: لو نظرنا إلى شعب الإيمان كلها لما وجدنا أمة من الأمم طبقت هذه لشعب كأمة محمد ﷺ، فما زال فيها عبر أجيالها المتعاقبة فئام (الفئام هي المجموعة الكثيرة من الناس) وأعداد كبيرة متزايدة من الناس تطبق كثيراً من شعب الإيمان، ولا مقارنة بينها وبين بقايا اليهود والنصارى.

ولا شك كذلك أن أمتنا قد اعتراها من الوهن ومن الضعف، ومن الفساد، ومن فشو المنكرات ما أصاب الأمم، قبلها، ولكن لا مقارنة بين أنواع الفساد التي دبت في هذه الأمة، وبين ما اعترى تلك الأمم من فساد، فأمة موسى وأمة عيسى صلوات الله وسلامه عليهم، لا شك أنهما من الأمم المهتدية ولكنهما انحرفتا انحرافاً كاملاً ولم يبق فيهما على الصلاح قبل بعثة الرسول ﷺ إلا قليل، ولا مقارنة بين تلك الأمم، وبين أمم الكفر والضلال، فأمم الكفر والضلال ممن انتحلوا آلهة غير الله عز وجل وكذبوا بالرسل أجمعين، وعبدوا ما عبدوا من أصناف الآلهة المزعومة.. لا شك أنه لا

مقارنة بين أمم الهداية وبين أمم الضلال والكفر، فلا مقارنة بين الصلاح الذي في هؤلاء والصلاح الذي في أولئك.

أقول هذا حتى يستقر في نفوسنا حقيقة أولية، وهي أن هذه الأمة الإسلامية برغم ما فيها من ضعف وتفكك وانحلال إلا أنها أعظم قياماً بأمر الله تبارك وتعالى من حيث الجملة، وتنفيذاً لكثير من شعائر الدين ومن شعب الإيمان هذه الأمة لا ينبغي بتاتاً أن ينظر إليها على أنها ليست أمتنا كما يقول البعض بل هي أمتنا؛ نحن ننتمي إليها، ولا شك أن الحساب عند الله تبارك وتعالى إنما هو بالتفاضل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨).

فالإيمان درجات، والصلاح درجات، وكذلك الكفر درجات، والفسق درجات، ففي إطار هذه الأمة، أولاً.. ينبغي أن نعتقد أنها أمتنا وأننا ننتمي إليها، وأنها خير أمم الأرض بالرغم ما فيها من علل وأمراض وأنه لا يجوز أن يخرج من هذه الأمة إلا من أخرجه القرآن.

أعني من كفر وارتد، وأما من ظلم وفسق وفجر فلا يخرج من هذه الأمة، ولا شك أن الله تبارك وتعالى يختم بالصالحات لهذه الأمة، فإنه قد جاء في حديث الشفاعة أن أهل الجنة بعد أن يجوزوا الصراط، يشفعون في إخوانهم الذين سقطوا عن الصراط، فيقولون: «ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا» فيقول لهم تبارك وتعالى: «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه» فيخرجون من النار، ثم يرتدون هكذا، الله يقول لهم: «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه» ثم في النهاية يقول: «فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه..» (قطعة من حديث الصراط والشفاعة أخرجه البخاري (١٣/ ٤٢٠، ٤٢١ الفتح) ومسلم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري).

ثم بعد ذلك يقولون: «يا ربنا لم يبق في النار إلا من حبسه القرآن» أي الكافر الخارج من الملة فقط، فالقرآن حبس من قال الله عز وجل في حقه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨] .

فهؤلاء الذين حبسهم القرآن، وأما من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ولا بد كما قال النبي ﷺ: [ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة] فقال أبو ذر: يا رسول الله وإن زنى وإن سرق؟ قال: [وإن زنى وإن سرق] قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: [وإن زنى وإن سرق] قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: [وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر] (أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٧) مختصراً، وأخرجه البخاري (١٠/ ٢٨٣ الفتح) ومسلم (١/ ٩٥) عن أبي ذر)، فمن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة يقول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: [يا أبا هريرة اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة] (أخرجه مسلم (٣١)).

فمن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه لا بد وأن يدخل الجنة يوماً من عمره، وإن عذب في الدنيا بما عذب، وإن عذب في الآخرة بما عذب حتى لو دخل النار إلا أن مصيره في النهاية إلى الجنة، فهو جزء من هذه الأمة، حتى وإن سلف منه زنى وسرقة، وإن سلف منه بعض المنكرات، وبعض الفواحش في حق الله عز وجل لكن بانتمائه إلى هذه الأمة وبشهادته أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله خالصاً من قلبه، فإنه من الجملة من أهل الجنة، وبالتالي هو في الجملة من هذه الأمة المرحومة، التي رحمها الله عز وجل، هذا ينبغي أن تكون النظرة الأولى إلى هذه الأمة، أنها أمتنا ما يصيبها يصيبنا، فلو كان الله تبارك وتعالى قد من عليك بشيء من الصلاح، وبشيء من التقوى، وبشيء من مخافته سبحانه وتعالى، فإن مستلزمات هذا الصلاح، ومن مستلزمات هذه التقوى، أن تشعر بأنك عضو في هذ الأمة، وأن كل مسلم يشهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله هو جزء من هذه الأمة، كما قال النبي ﷺ للذي قال له: اتق الله، قال: [أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟] قال ثم ولى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟

قال: [لا، لعله أن يكون يصلي] فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله ﷺ: [إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم] (أخرجه البخاري (٦/ ٣٧٦ - ٨/ ٦٧، ٣٣٠ - ١٣/ ٤١٥ الفتح) ومسلم (١٠٦٤) وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري).

فالبرغم أنهم شهدوا عليه بظاهر من ظواهر الفسق والفجور، إلا أن النبي ﷺ نهاهم أن يحكموا عليه بأنه منافق: [إني لم أؤمر، أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم].

انظروا إلى هذا، لنعلم أولاً أن هذه الأمة التي تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، هي أمتنا ما يصيبها يصيبنا، وبالتالي ما الموقف الواجب تجاه هذه الأمة؟

الموقف الواجب للدعاة إلى الله هو البناء لا الهدم.

أقصد بالبناء أن كل فرد يقول: لا إله إلا الله فعنده أساس الدين، عنده الكلمة الأولى والخطوة الأولى، وهو في داخل الدائرة، وفرد من أفراد الأمة، وبالتالي.. لا يجوز هدمه بل يجب بناؤه، فما كان من نقص نحاول استكماله، فإن كان لا يصلي فلنأمره بالصلاة قائلين: صل فإن رسول الله ﷺ يقول: [بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة] (أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٩) ومسلم (١/ ٨٨) والترمذي (٢٦٢٠) والنسائي عن جابر وقال الترمذي: حسن صحيح).

ولا يمكن أن تكون مسلماً على الحقيقة، إلا بالصلاة ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة. وإن كان لا يخرج زكاته قل له: لا فرق بين الزكاة والصلاة كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال).

قل له: الصلاة فريضة واجبة، والزكاة كذلك، فإن كان هذا المسلم ظالماً نمنعه عن الظلم كما قال النبي ﷺ: [أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً] فقال رجل: يا رسول الله انصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟

قال: [تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره] (أخرجه أحمد (٣/ ٩٩) والبخاري (٥/ ٩٨ - ١٢/ ٣٢٣ الفتح) والترمذي (٢٢٥٥) عن أنس وقال الترمذي: حسن صحيح).

امنعه عن الظلم الذي هو فيه، سواء كان ظلماً لنفسه بزنى أو بشرب خمر أو بفسق أو بفجور، عليك أن تمنعه إذا كان لك ولاية عليه كأن تكون أنت أباه أو أخاه الأكبر امنعه بالقوة، إن كان في يدك، وإن لم يكن لك ولاية عليه فعليك بالكلمة الحسنة، والموعظة الحسنة، عظه في هذا، وإن كان يشرب الخمر قل له بأن النبي ﷺ قال: [من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب] (أخرجه مسلم (٤/ ١٥٨٨) وابن ماجه (٣٣٧٣) عن ابن عمر) حرمت نفسك من فضل عظيم، ومن شيء عظيم، وأن من شربها في الدنيا عذب فيها، وأن الخمر وبال، وأنها أم الخبائث ونحو هذا مما يرقق القلوب، ويجعله يدع ما فيه، قل له أنت من أهل لا إله إلا الله وهذه كلمة عظيمة من محبة الله ومخافته تبارك وتعالى والفرار إلى الله عز وجل، بهذه الطريقة بالدعوة إلى الله، بالحكمة والموعظة الحسنة يكون البناء.

أما الهدم فإنه للأسف نشأ ممن ينظر إلى كل من عمل منكراً من المنكرات أو معصية من المعاصي أو عملاً من الأعمال التي حكم النبي ﷺ على فاعلها بالكفر أو بالفسق وهو من أهل لا إله إلا الله، ينظر إلى هذا أنه قد كفر، بل ينظر إلى عموم الأمة أنهم كفار، وأنهم ملاحدة، وأنه يجب البراءة منهم جميعاً من أولهم لآخرهم لا شك أن هذه نظرة خاطئة، وأنها بداية للهدم.

فهذه الأمة التي بنيت عبر هذه القرون بنيت بجهود العلماء.

بجهود علمائها، ومجتهديها، وعبادها، وزهادها، والمحسنين فيها، نأتي إلى هذا كله فنقول: الأمة كلها خراب في خراب!! لا صالح في الأمة!!

لأن هذه الأمة انتشرت فيها المعاصي، وانتشر فيها الحكم بغير ما أنزل الله.

أقول: لا شك أن أمتنا فيها أمراض كثيرة، وقد انتشرت فيها بلايا عظيمة، وعملت فيها عوامل الهدم طويلاً، فالفرق الباطنية الضالة، والمنافقون، والمنحرفون قد عملوا الهدم في بنيان هذه الأمة من زمن طويل، وكذلك غزاها أعدائها من خارجها ونالوا منها ما نالوا، ولو أن هذه الأمة هي أمة الله، وأن الله يدافع عنها لما بقي شيء من دينها، ولكن بحمد الله تواصلت أجيال الأمة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وينتمون إلى الإسلام ويطبقون بعضاً من شرائع الدين، وواجبنا اليوم هو البناء لا الهدم والإزالة..

فالداعي مهمته في داخل الأمة الإسلامية البناء لا الهدم، فإذا وجدت نقصاً في مسلم فلا تهدمه، حاول بناءه اذهب إلى هذه اللبنة الناقصة، وحاول أن تسدها إذا قصرت في شيء فابن ولا تهدم.

هب أني مقصر أعمل جهدي ولكني قصرت في بعض الأمور ارتكبت معصية أو كبيرة بغفلتي وبجهلي وبنسياني.

ما الواجب عليك؟

الواجب عليك أن تكملني «المؤمن مرآة أخيه» واجبك أن تنصح لي.

ألم يقل النبي ﷺ: [الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة] قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: [لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم] (أخرجه أحمد (٢٤/ ١٠٢ - ١٠٣) ومسلم (٥٥) وأبو داود (٤٩٤٤) والنسائي (٤١٩٧ - ٤١٩٨) عن تميم الداري).

فهذا هو الدين، حقيقة الدين أن تكون مخلصاً لله، مخلصاً لكتاب الله، مخلصاً لرسوله، مخلصاً لأئمة المسلمين، مخلصاً لعامة المسلمين، ومعنى الإخلاص هو الصفاء والنقاء.

تقول العرب: نصحت العسل أي صفيته مما هو فيه، فالنصيحة سلامة القلب، وإخلاص النية، فلا تحمل في قلبك غلا لمسلم، ولا حسداً ولا بغضاً له، وإن أبغضته فبقدر معصيته فقط.

وأحبه كذلك بقدر طاعته، وبقدر إيمانه وبقدر قربه من الله، وابنك الذي من لحمك ودمك تحبه لأنه ابنك ولكن قد تبغضه لتقصيره وبعض تصرفاته، ولكن هذا البغض لا ينفي المحبة، لا ينفي رحمتك وحبك له، تبغضه لتقصيره وتحبه لأنه ابنك ولأن فيه جوانب من جوانب الخير، وكذلك المؤمن، المؤمن أخوك من نفسك فقد جعل الله الأخ المسلم بمنزلة النفس كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١١] .

أي لا تلمزوا إخوانكم، فإذا قصر فلا تهدمه ولا تدمره.

ابن فيه هذا النقص.

باختصار الدعاة الحقيقيون بناؤون لا هدامون ومعنى أنهم بناؤون أنهم يبحثون عن مواضع الخلل، ومواضع الزلل، فيكملونها، يكملون النقص في هذه الأمة، فإذا وقع إنسان انتشلوه، وإذا جهل علموه، وإذا انحرف أدبوه وهذبوه، ولكن للأسف يوجد من الذين يزعمون الدعوة وحالهم كحال من يأتي بناء قائم، فيعمل فيه الهدم والتخريب لماذا؟ لأن في البناء ثلماً أو نقصاً أو خدشاً يعملون الهدم في البناء زاعمين أنه لا بناء لا بعد استكمال الهدم وتدمير القائم!!

هل هذه دعوة؟

هل من الدعوة إلى الله تبارك وتعالى أن نهدم القائم الآن؟

هل من الدعوة أن نقول: كل هذه الأمة على ضلال وعلى فساد وكل ما على الأرض تراب في تراب؟

هل هذه دعوة إلى الله؟ بل هذا هدم وتخريب، وإنما الواجب أن نأتي إلى هذه الأمة فنضع الأمور في نصابها، الحق نشهد له بأنه حق، والتقصير نحكم عليه بأنه تقصير، وأن نحاول قدر الإمكان بجهدنا إصلاح هذا الخلل.

لما هزم المسلمون في أحد، وأصيب النبي ﷺ بما أصيب به، واستبعد النبي ﷺ أن يهدي الله الكفرة الذين فعلوا ما فعلوا وقال: [كيف يفلح قوم

شجوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله] (أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٣ - ٢٨٨) ومسلم (١٧٩١) عن أنس).

فأنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٨].

فالهداية والضلال بيد الله تبارك وتعالى، والشاهد أنه لا دعوة إلى الله صحيحة إلا من اعتقد أن هذه الأمة التي تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله هي أمتنا، وأن يكون حريصاً عليها محباً لها، وهذا الحب يتفاوت كلما ازداد إيماناً يجب عليك أن تزداد له محبة في الله تبارك وتعالى، وهذه الأمة فيها خلل، نعم.. لا ينكر أحد أن في الأمة خللاً عظيماً لكن ما الواجب نحو هذا الخلل؟ إصلاح الخلل.

والمثال: أنت أمام بناية عظيمة صار لها (١٤٠٠) سنة بناية عظيمة جداً بنيت بجهود جبارة، ولكن المخربين كثيرون، اللصوص والأعداء لهذا البناء كثيرون، كل منهم يخرب في ناحية.

إذا جئت إلى هذا البناء وأنت رجل حكيم، ما الذي ينبغي أن تفعل؟ إذا جئت وقلت هذه البناية (أقصد الأمة الإسلامية) نهدمها كلها من جذورها لنبني أمة من جديد! فهل أنت النبي الخاتم محمد بن عبد الله!.

هل أنت النبي الجديد الذي سيبدأ من الصفر؟!

ليس هناك بداية من الصفر، وإنما نحن قد أتينا والأمة قائمة، قائمة برجالها، ومفكريها، وعلمائها، ومساجدها، والذين يبذلون فيها.

هذه الأمة قائمة وفيها خير عظيم، ما واجبك إذا وجدت نقصاً؟

كمله، أما أن تخرب هذا البناء كله، وأن تقول هذه الأمة أمة ضالة، وأمة كافرة!، وينبغي أن ننسفها من الأساس، وأن نقيم نحن الأمة الجديدة..، لا شك أنك تكون بهذا خارجاً عن هذه الأمة، ولا تنتمي إليها، لست منتمٍ إن ظننت هذا الظن.

إن ظننت أنك ينبغي أن تبدأ من الصفر، وأن كل هذه الأمة جهل في جهل، وكفر في كفر هكذا تخرج عن هذه الأمة، وهذا كفر بالله تبارك وتعالى بل هذه الأمة قائمة، وهي خير الأمم، ولا شك، وستظل خير الأمم إلى قيام الساعة، فيها تقصير، وفيها جهل وفيها كفر نعم فيها كفر هذا لا ينكر لكن ينبغي أن يصلح، والكفر درجات.. إذا كان الله قد ميز بين الكافر الزنديق والكافر المجوسي، وبين أهل الكتاب.. اليهود والنصارى، وجعل لهذا أحكام ولهذا أحكام، كذلك معنى هذا أن الكفر ليس درجة واحدة بل الكفار قد يكونوا من فصيل واحد، ولا يكونوا درجة واحدة.

هذه قريش يوم كانت كافرة وتحارب النبي ﷺ، هل كان كل رجالها أمام النبي ﷺ بمنزلة واحدة؟ لا، الرسول ﷺ كان في بعض الأحيان يأمر بقتل بعض الناس ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر فلما نزعه جاءه رجل فقال له: يا رسول الله ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال رسول الله ﷺ: [اقتلوه] (أخرجه مالك (٤٢٣) وأحمد (٣/ ١٠٩، ١٦٤، ١٨٦، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٠) والبخاري (٤/ ٥٩ - ٦/ ١٦٥ - ٨/ ١٥ - ١٠/ ١٥ الفتح) ومسلم (١٣٥٧) وغيرهم كثير)، وشخص آخر كان في صف الكفار موجود، الرسول ﷺ لم يأمر بقتله كما لم يأمر بقتل عمه العباس.

والعباس كان كافراً، وخرج في صف الكفار، لكن النبي ﷺ عامله معاملة تختلف عن غيره.

هذا يختلف عن هذا، وهذا المطعم بن عدي أحد الكفار بعد معركة بدر ولما قتل من قتل وأسر من أسر قال النبي ﷺ: [لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له] (أخرجه احمد (٤/ ٨٠) والبخاري (٦/ ٢٤٣ - ٧/ ٣٢٣ الفتح) وأبو داود (٢٦٨٩) عن جبير بن مطعم).

يقول لو كان المطعم موجوداً حياً الآن، وكلمني في هؤلاء السبعين الأسرى أن أعف عنهم كنت وهبتهم له علماً أن المطعم كان كافراً ومات

كافراً؛ ولكن كان له موقف آخر مع النبي ﷺ. (هذا الموقف واليد المذكورة هنا هو ما وقع من المطعم حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جواره، وقيل المراد باليد المذكورة أنه كان من أشد ما قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصارهم في الشعب، انظر الفتح (٧/ ٣٢٤)).

والنبي ﷺ ما ترك هذا له، ما نسي هذا قال: لو كان موجوداً لشرفته الآن وأعطيتهم له، ليس الكفار بمنزلة واحدة.

هذا أبو طالب عاش كافراً ومات كافراً، لكنه كان بمنزلة أخرى مع النبي ما عامله النبي كغيره.

الكفار ليسوا درجة واحدة، والنظر إلى الدنيا أنها أبيض أو أسود فقط، كل من كان معي هو أبيض، وكل من هو ضدي أسود هذا ليس بصحيح، وليست هذه سياسة شرعية، فحتى الكفار أقسام، والكفار إذا كانوا من فصيل واحدا ليسوا كلهم بحكم واحد، ينبغي أن يعطي كل إنسان منهم الحكم الذي يستحق، هناك كافر وفي قلبه رحمة على المؤمنين، وهناك كافر يريد أن يستأصل الدين، ويبحث عنه أينما كان حتى يقتله ويدمره يختلف هذا عن هذا، وكذلك هذه الأمة ليست كلها واحدة هذه الأمة التي تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ليس كلهم واحد، فيهم قريب إلى الحق، وفيهم بعيد عن الحق.

الدعاة إلى الله بناة لا أهل هدم وأهل تدمير.

أنت بانٍ في هذه الأمة ينبغي أن تبني فيها؟ أين الخطأ؟ ينبغي أن تصلحه بقدر الإمكان، أما أن تأتي إلى البناء القائم، وإلى الدعوة القائمة، وإلى الإسلام القائم، وإلى المسلمين القيام في مساجدهم وفي مدارسهم وفي عملهم وفي شغلهم وفي جهادهم ونقول: هؤلاء كفار اهدموا هذا جميعاً حتى نبني بناءً من جديد!! هذا أكبر هدم، وهذه ليست دعوة إلى الله تبارك وتعالى، بل هذا خروج من هذه الأمة وتدمير لهذه الأمة.

أذكر بهذا وإذا غضبت فإنما أغضب لحق، هذا حق، وأي داعي إلى الله تبارك وتعالى يعلم ما قيمة الدين وما قيمة الدعوة.

ينبغي أن ينظر إلى هذا بعين الاعتابر ونظر التفكير، وأن هذه أمتنا، نحزن والله لما يصيبها حتى من الفجرة الفسقة، لما يصابوا، ونرى اليهود يضربونهم، أو الروس يضربونهم، أو الأحباش يضربونهم، وإن كان بعضهم لا يصلي، وبعضهم فسقة نحزن والله نتألم وتعتصر قلوبنا لأن هؤلاء من أمتنا، من أهل لا إله إلا الله، حتى وإن كانوا تاركين صلاة لكن عندهم لا إله إلا الله، هم أقرب لنا من الكافر الأصلي، عندهم مشاعر تختلف عن مشاعر الكفار المحاربين لنا، وكذلك نحن لا ننظر إلى الكفار نظرة واحدة، هناك كافر مسالم، وهناك كافر محارب، وهناك زنديق خارج عن هذه الأمة يريد تدميرها، ينبغي أن نفرق بين هذا وذاك، والداعي إلى الله عز وجل لا بد أن يكون حكيماً لا يجوز له أن يدعو إذا لم يكن حكيماً، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٥].

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد سيد الأولين والآخرين الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه فصلوات الله وسلامه عليه.

إخواني، لا طريق لفهم الدعوة إلا بدراسة سيرة النبي ﷺ.

هذا النبي العظيم الكريم الذي امتلأ قلبه بالرحمة والإشفاق، والذي وضع كل أمره في نصابه، خذ جانب قتال النبي ﷺ للمشركين العرب من قومه، ومن أهله، واليهود، وكل الذين ماتوا من المشركين في حياة النبي ليسوا أكثر من خمسمائة شخص، بالرغم من هذه الفتوحات العظيمة كلها في أقل قدر ممكن انتصر النبي ﷺ.

ما أراد النبي ﷺ في يوم من الأيام أن يستأصل قريشاً وهم كفار، الذي يظن أن النبي ﷺ كان ينظر إلى الكفار يريد أن يستأصلهم، وأن يبيدهم عن هذه الأرض مخطىء أكبر الخطأ، بل إن النبي ﷺ كان في كل عمله مصراً على إخراج هؤلاء الناس مما فيه من جهل وغواية وكفر إلى الإيمان الحقيقي، موقف مشهور كلكم تعلمونه، موقفه ﷺ في ذهابه إلى أهل الطائف.

قال محمد بن كعب القرظي: انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، وعمد إلى نفر من ثقيف وهم سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة، عبد ياليل، ومسعود، وحبيب، بنو عمرو من عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة ابن عوف بن ثقيف،

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح.

فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط (أي ينزعها ويرمي بها) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك» (قال الألباني في تخريج فقه السيرة (١٣٢) أخرج هذه القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٠، ٢٦١) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً لكن قوله: «إن أبيتم فاكتموه على ذلك» وقوله: «اللهم إليك أشكو» الخ الدعاء. ذكرهما بدون سند. أ.هـ. والقصة يشهد لها ما رواه موسى بن عقبة عن الزهري مرسلاً، انظر البيهقي (٢/ ٤١٤) والذهبي في السيرة (٢٨٢) وهذا مرسل صحيح، وما رواه أبو نعيم (١٠٢) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة مرسلاً وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف لسوء حفظه، وأبو الأسود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل وهو ثقة).

بهذا النوع من الاستهزاء والسخرية استهزىء بالنبي ﷺ.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: [لقد لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟! إن شئت أن أطبق

عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً] (أخرجه البخاري (٦/ ٣١٣ - ٣١/ ٣٧٣ الفتح) ومسلم (١٧٩٥) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (١٢/ ١٠٦).

هذا موقف للنبي ﷺ لو كانت القضية قضية انتقام، يقول له (خلصني منهم، (أزلهم) من وجه الأرض، دعني أبدأ بالفئة التي معي، لكن النبي ﷺ انتظر الذرية، إذن لا استعجال في الأمر هذه رؤوس يابسة، وإذا أتى الجيل الثاني لعله يكون فيه الخير قال: [أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً].

إذن لا عجلة عند النبي ﷺ؛ النبي ﷺ ما كان يستعجل النتائج، وما كان يستعجل أن العرب هؤلاء يؤمنوا، هذا موقف..

الموقف الثاني في السنة السادسة من هجرة النبي ﷺ ذهب إلى مكة معه ألف وأربعمائة شخص، يريد أن يعتمر، فمنعته قريش وقالت: «والله لا يدخلها علينا عنوة لا يدخل (محمد) علينا بالقوة أبداً، فأرسل إليهم النبي ﷺ واحداً واثنين وثلاثة يقول لهم ما جئنا نحارب، وإنما جئنا نعظم هذا البيت، لكن الكبرياء والأنفة القرشية منعته، وقالت يستحيل أن يدخل علينا هكذا غصباً ويعتمر، إلى أن تم صلح الحديبية..

النبي ﷺ له كلمات في هذا يقول: [يا ويح قريش أكلتهم الحرب، ما ضرهم لو خلوا بيني وبين العرب، وإن ملكت فملكي ملككم، وإن تكن الأخرى فهذه التي تريدون].

يعني إن هلكت فقد استرحتم مني، النبي ﷺ يريد بقاء قريش، ما كان يريد هدمها، لأنه درع الإسلام القادم، وبالفعل كانت هي درع الإسلام وسيف الإسلام، سيوف الإسلام التي فتحت الأرض من أين طلعت؟ من قريش، بعد هذا الكلام أسلم (خالد بن الوليد)، (وعمرو بن العاص)، (وعكرمة بن أبي جهل)، وأسلم الصناديد الذين فتحوا الأرض بعد ذلك.

النبي ﷺ له نظرة مستقبلية يريد بناء، لا يريد هدم الموجود، يريد لهذا الموجود أن يصلح، فيصلح الله به الأرض بعد ذلك، هذه نظرة ملؤها الرحمة، ملؤها الحكمة، لو أراد النبي ﷺ غير ذلك لقال هؤلاء آذوني وطردوني من مكة وشتتوا أصحابي وعبدوا غير الله، وأفسدوا في الأرض.. أهلكهم يا رب، لكن ما قال النبي ﷺ هذا، والنبي ﷺ عاهد اليهود، وغدروا به وفعلوا أخس الأفعال، كما هو ديدنهم وطريقتهم، لكن النبي ﷺ كذلك لم يكن يريد استئصالهم ودعاهم بكل لطف، وحاول معهم بكل وسيلة أن يؤمنون به ويدخلوا الدين وعقد معهم معاهدات وتعب معهم، وغدروا به لكن الغدر نهايته حسم، لأن الله لا يسمح أن يغدر بالمسلم ثم يسكت على هذا الغدر، لأن معنى ذلك هذا تجريء للعدو، فلما غدر بنو قينقاع بالنبي ﷺ حاصرهم ولكن جاء منافق من المنافقين فاستشفع فيهم، فالنبي ﷺ لأجل هذا المنافق شفع فيهم، وسمح لهم بترك المدينة «بنو النضير» كذلك غدروا بالنبي ﷺ وتمالؤوا لقتله فحاصرهم النبي ﷺ ونزلوا على حكمه ولم يستأصلهم، الذين قتلهم النبي ﷺ «بني قريظة» فقط، وليس النبي ﷺ هو الذي حكم فيهم، الذي حكم فيهم هو «سعد بن معاذ» لأنهم نزلوا من حصونهم، وقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وهم الذين غدروا بالنبي ﷺ وألبوا عليه في الخندق وهم الذين حركوا قريش وحركوا غطفان، لكن لما «نزل أهل قريظة على حكم سعد ابن معاذ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد قال للأنصار: [قوموا إلى سيدكم - أو خيركم -] فقال هؤلاء نزلوا على حكمك فقال: تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم قال: [قضيت بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك]» (أخرجه أحمد (٣/ ٢٢، ٧١) والبخاري (٧/ ١٢٣، ٤١١ - ١١/ ٤٩ الفتح) ومسلم (١٧٦٨) وأبو داود مختصراً (٥٢١٥) عن أبي سعيد الخدري).

هذا الشيء الوحيد الذي قبل فيه الرسول القتل مع التمكن في اليهود حتى في خيبر لما فتح النبي ﷺ خيبر في السنة السابعة ما قتلهم، كان قتال ومناوشات، وقتل منهم عدداً قليلاً ونزلوا من الحصون «فسألت اليهود رسول

الله ليقرهم بها أن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر فقال لهم رسول الله ﷺ: [نقركم بها على ذلك ما شئنا] فقروا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء» (أخرجه أحمد (٢/١٤٩) والبخاري (٤/٤٦٢ - ٥/١٠، ١٣، ١٥، ٢١، ١٣٥، ٣٢٢ الفتح) ومسلم (١٥٥١) وأبو داود (٣٤٠٨، ٣٤٠٩) والترمذي (١٣٨٣)، وهو عند البعض مختصر، والحديث عن ابن عمر)..

لم يستأصلهم وهو قادر، كان يقدر أن يستأصلهم لأنها فتحت عنوة (يعني بالقوة)، وإذا فتح بلد ما بالقوة فالله يعطي الحرية للمسلمين بأن بقتلوا المقاتلة كلها، لكن ما قاتلهم النبي ﷺ، وإنما تركهم بوجه عام نرى في قتال النبي ﷺ الرحمة حتى مع الكفار، والعدل والحكمة ووضع الأمور في نصابها وأنه لم يستأصلهم صلوات الله وسلامه عليه، لكن نجد النبي ﷺ في قسم ممن أمر بقتالهم، النبي ﷺ لم يقاتلهم لأنهم ما وجدوا في وقته، وجد أفراد منهم في وقته، وهو الذي جاء إلى النبي ﷺ وقال له: «اتق الله».

هذا واحد من الأمة للأسف ومسلم ومصل وكما وصفه الصحابي الذي يروي الحديث قائلاً: فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار، ورأى أن النبي ﷺ حابى البعض وترك البعض الآخر، لم يعجبه هذا التصرف، وظن أن النبي ﷺ حابى البعض وترك من هو أحق، وهذا اتهام للنبي ﷺ من هذا الجاهل ما اقتضاه؟

مقتضاه أن النبي ﷺ أولاً خائن، لأنه يفعل فعلة لا يرد به وجه الله، يرائي ثم يجابي ثم يفعل لغير الحق، فقال له النبي ﷺ: [ويلك: أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟].

إذاً الشخص الذي اختاره ليكون رسول الله، وليأتمنه على الوحي يكون فيه غدر وخيانة وميل عن الحق، إذاً ليس هناك داع للرسالة!

لكن هذا لا يفهم يريد أن يعلم النبي ﷺ كيف يقسم، ويعلمه كيف يعدل، طبعاً يستحق القتل لكن النبي ﷺ لم يقتله، وقال له خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: [لا].

أي أنه يقتل من يخالفه أو يأمره أو ينهاه من أولئك الذين آمنوا به ثم قال النبي ﷺ: [إنه يخرج من ضئضي هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية] ثم قال النبي ﷺ كلمة هي موضع الشاهد من هذه الخطبة الثانية قال: [لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد] (أخرجه البخاري (٦/ ٣٧٦ - ٨/ ٦٧ - ٣٣٠ - ١٣/ ٤١٥ الفتح) وغيره عن أبي سعيد.

هذا الكلام يخالف السياسة التي اتبعها النبي ﷺ مع قريش ومع اليهود ويقول [لئن أدركت هذه الفئة لأقتلنهم قتل عاد] يعني [استئصال] لماذا؟

لأنه يقول: [يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان] (قطعة من حديث انظر صحيح الجامع (٢٢٢٧ - ٦٦١٨)).

ناس من أهل الصلاة، ومن أهل الصوم، والصحابي يحقر صلاته إلى صلاتهم، وصومه إلى صومهم وهم من أهل الصوم ومن أهل الصلاة لكنهم لا فقه لهم ولا علم لهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يخرج من الحنجرة فقط لا يخرج من القلب لأنه لا يفقهه ولا يفهمه يتكلم بالآية والحديث دون فقه لها ودون فهم لها، النبي ﷺ يقول: [لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد] ويقول: [سيخرج من أمتي ناس ذلقة ألسنتهم بالقرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا لقيتموهم فإنه يؤجر قاتلهم] (أخرجه أحمد (٥/ ٣٦) وابن أبي عاصم في السنة (٩٣٧) عن أبي بكر وصححه الألباني) لماذا الرسول ﷺ يحرص على هذه الفئة؟

لأنها فئة تدميرية، فئة تريد الدعوة فتدمر، تريد أن تحرق الأخضر واليابس، وبالفعل قد أحرقت الأخضر واليابس، وحرقت كثيراً من هذه الأمة.

أفشلوا جهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه هم الذين خرجوا من جيشه، فخرجوا عليه، وخرجوا على الأمة، وكفروا علياً بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وكفروا كل المسلمين الموجودين، وأعمدوا السيف في الجميع، وظنوا أنهم سينشؤون الأمة الحقيقية «أمة محمد»

هي التي عندهم!، وأما هؤلاء جميعاً فهؤلاء ليسوا من أمة محمد، هذا عمل تدميري تماماً ناس تخرج على هذه الأمة، وتريد أن تدمر كل الموجود، هذه ليست دعوة إلى الله تبارك وتعالى، لذلك وجدنا النبي ﷺ يحرص على قتالهم، وهؤلاء أخطر شيء أخطر على الأمة من كل أحد، باختصار يا أخوة الدعوة إلى الله دعوة بناء كل من انتمى إلى هذه الأمة بلا إله إلا الله فهو مسلم ما دام شهد أن لا إله إلا الله فهو مسلم.

لا يجوز أن تخرجه من الدين إلا بمكفر، وإذا فعل مكفراً لا بد أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، والقتل إنما هو لإمام المسلمين.

على كل حال هذا موضوع قد أطلت فيه لما له من أهمية، ومن الحكم التي ينبغي أن نعلمها أن أمة الإسلام أمتنا، وينبغي أن نتحلى معها بالصبر والحلم وطول النفس، وأن نحاول إصلاح ما أفسده المفسدون.

موقف الناس من المعصية

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأخوة الكرام، لا شك أن كل إنسان لا ينفك عن الذنب، قال ﷺ: [كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون] (أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨) والترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١) والحاكم (٤/ ٢٤٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي وقال علي لين. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥) عن أنس).

فقول النبي ﷺ: [كل ابن آدم خطاء] أي أنه يتأنى منه الخطأ، ومصداق ذلك في كلام الله تبارك وتعالى قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۞ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: الآيتان ٣١، ٣٢].

والشاهد في الآية قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [النّجم: الآية ٣٢]، وذلك أنه سبحانه وتعالى أخبر أن أهل الإحسان الذين يتقبل الله عز وجل

عملهم، وأنه بما أن له ملك السموات والأرض، فإنه يجزيهم بإحسانهم، يقول جل وعلا عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النّجم: الآية ٣٢] .

هؤلاء هم أهل الإحسان، ثم علل الله عز وجل فبين أنهم قد يقع منهم اللمم، وذلك أن الإنسان خلقه الله تبارك وتعالى، وهو أعلم بفطرته وطبعه والمادة التي خلق منها، والمكان الذي نشأ فيه،، فقد خلق من طين هذه الأرض، وهو مادة هابطة قاتمة، ثم كان في أخلاط البطن، ومعلوم ما في أخلاط البطن من التخليط ومن القذر، وكان هذا منشأ الإنسان ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذه طبيعتكم ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النّجم: الآية ٣٢] هذا منشؤكم ومن أجل ذلك يصفو الإنسان ويعلو بالدين والهدى ويسفل ويخطىء ويقع بما في طبعه وما في فطرته من السفول والقذر.

[كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون]، وقد خلقنا الله تبارك وتعالى ويعلم أننا نخطىء ولكن الله عز وجل أراد منا عند الخطيئة أن نتوب، وأن نرجع، وأن نستغفر، وهذا يحبه الله تبارك وتعالى، ويحب العذر من عباده، وعلى كل حال، فالناس أو الإنس والجن بحسب الخطيئة على أصناف.

الصنف الأول: هم أهل الإحسان، وهؤلاء الذين يقعون باللمم ولكنهم يذكرون الله تبارك وتعالى، ويستغفرون ويسرعون بالعودة إلى الله عز وجل يكما قال سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٩ - ٢٠١).

فهؤلاء هم أله التقوى يمسهم طائف الشيطان، ولكن سرعان ما يتذكرون ويرجعون إلى الله تبارك وتعالى، وقد وصف الله أهل الإحسان في آية أخرى، فقال: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ* وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ

﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران، الآيات : ١٣٣ - ١٣٦].

فوصف الله هؤلاء بأنهم أهل الإحسان، وأنهم كذلك العاملون بما أمر الله تبارك وتعالى، وما فرضه عليهم، إذاً أول صنف من البشر محبوب عند الله تبارك وتعالى، هذا الصنف هو الصنف الذي يخطىء ويلم، ثم يعود سريعاً إلى الله تبارك وتعالى.

يعود بالتوبة والاستغفار والإنابة والخروج من الذنب وهؤلاء هم أهل الإحسان، وهؤلاء هم الذين يحبهم الله تبارك وتعالى، ويرتضيهم، وليس من لا يقع منهم خطأ، لأنه لا يتصور من إنسان ألا يقع منه خطأ هذا غير متصور وغير ممكن، ولا يكون، وإنما المفروض والمتصور هذا، ولذلك قال النبي ﷺ: [لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم] (أخرجه مسلم (٢٧٤٩) في كتاب التوبة من حديث أبي هريرة وأوله: [والذي نفسي بيده لو لم..].

وذلك أن الله تبارك وتعالى يحب العذر، يحب أن يعتذر إليه العباد، وأن يرجعوا، وأن يستغفروه، وأما من يتصور أنه لا يقع منه إلا الطاعة، فإنه قد يصيبه العجب والكبر، وقد يظن أن له دالة على الله سبحانه وتعالى، وأن له فضل عليه، وأن له حق محقق على الله، وهذا لا شك أن تصوره إثم، يعني تصور هذا في ذاته إثم، لأن الله تبارك وتعالى هو صاحب الفضل كله، وهو صاحب العطاء كله، والعباد لا شك أنهم في موضع الخطأ، وفي موضع التقصير، وفي موضع العيب، وأما الرب تبارك وتعالى، فهو المتفضل على أشرف عباده، فهذا نبينا صلوات الله وسلامه عليه قد ذكره تبارك وتعالى بفضله العظيم عليه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢].

وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤].

وقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

إلى آيات كثيرة من كتاب الله تبارك وتعالى يذكره الله عز وجل نعمته عليه، وفضله وإحسانه إليه، وأنه ما وصل إلى ما وصل إليه من الهدى، والتقى إلا بفضل الله تبارك وتعالى ورحمته، ولذلك كان النبي يذكر هذا دائماً ويقول: [لن يدخل أحد منكم عمله الجنة] قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: [ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة] (رواه مسلم (٢٨١٦) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم عن أبي هريرة) فالفضل كله لله تبارك وتعالى.

الشاهد أن أول صنف من البشر في موفقهم من المعصية هم هؤلاء التوابون، الرجاعون إلى الله تبارك وتعالى المستغفرون، وهؤلاء ممدحون عند الله عز وجل، وهم أفضل الطوائف وأفضل الفرق.

الصنف الثاني: وهم المتمادون السادرون اللاهون، وهؤلاء مذمومون في كتاب الله تبارك وتعالى، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

هؤلاء هم أهل الإحسان.

قال: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٢].

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ إخوان الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يعني يمدهم الشيطان ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾، يسترسلون معهم، كلما دعاه الشيطان إلى فساد يطيعه ويسير معه ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يعني لا يقطعون خط المعصية، ويعودون إلى الله تبارك وتعالى، وإنما يتمادون وهم المتمادون هم على شفة هلكة، إن لم تدركهم رحمة الله تبارك وتعالى، بالتوبة قبل الموت، فقد هلكوا، وقد يصلون إلى الله تبارك وتعالى تقعدهم وتلزمهم النار أحقاباً وأحقاباً، فإن كانوا من أهل لا إله إلا الله خرجوا من النار، ونفعتهم لا إله إلا الله يوماً من عمرهم، وأما إن كانوا من غير ذلك، فهم مخلدون في النار عياذاً بالله، ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٧] .

ولا شك أن كل فاعل للسوء جاهل، لأنه لو كان عالماً على الحقيقة لاستحى من الله ولخاف الله تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ قبل الموت، كل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، كما قال ﷺ: [إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر] أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢) والترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠) والحاكم (٤/ ٢٥٧) عن ابن عمر وقال الترمذي: حسن غريب وحسنه الألباني في صحيح الجامع).

ما لم تبلغه روحه الحلقوم. فالتوبة مفتوحة بابها موجود وباق، فالسادر الغافل عن طاعة الله تبارك وتعالى السائر في معاصيه يخشى عليه أن يفاجئه الموت، وهو على معصيته عياذاً بالله، ولا شك أن من مات على شيء بعث عليه، فمن مات حاجاً بعث ملبياً، ومن مات مجاهداً بعث على جهاده وفي دمه، ومن مات على سكره وفسقه وفجوره بعث على ذلك، بعث على ما مات عليه، فالحذر الحذر أن يفاجئك الموت وأنت على معصية الله تبارك وتعالى، ولذلك كان أهل البصيرة يتمسكون بالإسلام حتى يموتوا، لأنه لا يدري متى يفاجأه الموت وقد قال ﷺ: [الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك] (أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧، ٤١٣) والبخاري (١١/ ٣٢١ الفتح) عن ابن مسعود).

وذلك أن من مات على حاله بعث عليها عياذاً بالله، فمن مات وآخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، ومن مات على سكر أو زنا أو فاحشة كان ذلك أخذ بما مات عليه ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدَّثِّر: الآية ٣٨] .

الصنف الثالث: فهو المتكبر العنيد الألد الخصم هذا يفعل المعصية، ولا يرعوي، وإذا ذكر بالله تبارك وتعالى اشمأزت نفسه، وشمخت أنفه بمعصيته، وهذا قد وصفه الله تبارك وتعالى بأخس الصفات في كتابه، ووصفه النبي بأخس الصفات كذلك.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: الآيات ٢٠٤-٢٠٦].

هذا صنف المتكبر المتعجرف الذي إذا ذكر بأنه على معصية لله تبارك وتعالى وقيل له اتق الله ودع ما أنت فيه من المعصية شمخت أنفه وأنف أن يذكر بالله تبارك وتعالى، وقد يقول للقائل له أنا أعلم بالله منك وأتقى لله منك، ومن أنت حتى تذكرني بالله، وتقول لي كذا وكذا، وقد يتكلم كلاماً طيباً في الدين ولكنه مجادل خصم لدود ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل: قوله في الدنيا يعني قوله في الدين يعني يتكلم كلاماً طيباً في الدين كما هو وصف المنافقين، وصفهم الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾ [المنافقون: الآية ٤] .

تسمع لقولهم لأنهم يقولون كلاماً حسناً كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: الآية ١] .

هذا كلام حسن شهادة حسنة، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون، الآيتان: ١-٢] .

ثم وصفهم الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: الآية ٤] .

فهذا الصنف المنافق الذي قد يتكلم في الدين بكلام حسن، ولكن قلبه مليء بالغيظ والحقد على المسلمين، ولذلك إذا ذكر بأفعاله في الفتنة وفي الكذب وفي البهتان وفي التمالؤ على أهل الإسلام، وفي التفريق بينهم إذا ذكر بهذا أخذته العزة بالإثم كما قال ﷺ: [أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم] (أخرجه أحمد (٦/ ٥٥، ٦٣، ٢٠٥) والبخاري ١٣/ ١٨٠ الفتح) ومسلم (٢٢٦٨) عن عائشة).

الألد: من اللدد وهي شدة الكراهية والخصومة.

الخصم: يعني كثير الخصومة وهذا كما وصف النبي المنافقين: [وإذا خاصم فجر] (مقطع من حديث أخرجه البخاري (٨٩/١ - ١٠٧/٥) ومسلم (٥٨) عن عبد الله بن عمرو).

فإذا خاصمك فجر وكذب عليك وافترى عليك واستعان عليك بشهود الباطل، ولم يراع فيك إلا ولا ذمة ولم يراع أنه موقوف بين يدي الله تبارك وتعالى وسيسأله عن عمله فهذا الذي تأخذه العزة بالمعصية والإثم، وإذا ذكر الله تبارك وتعالى لم يذكر، هو من شرار الخلق حتى وإن تكلم كلاماً حسناً لكنه عند الله تبارك وتعالى من شرار الخلق، لأنه الألد الخصم وهذه خصلة من خصال النفاق، كما قال ﷺ: [أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر] (المصدر السابق).

فالفاجر في خصومته، المتعدي في كل الحدود، الذي يفرح بإثمه، ويزيد فيه وإذا ذكر بالله لا يذكر، هذه خصلة من خصال النفاق، قد تكون في مؤمن، ولكنها خصلة سيئة، وقد يموت بإثمه ومعصيته، عياذاً بالله وقد يتوب من هذا.

على كل حال هذا صنف من الناس وهذا موقفهم إزاء المعصية.

الصنف الرابع: والأخير هو أخس هذه الأصناف كلها، وهو المستحل المتكبر أخو الشيطان، أخو إبليس الذي يستحل معصيته، ويرى أن ما يفعله هو الحق، وأن ما يؤمر به من الدين هو الباطل، فكم فاجر كافر ينسب إلى الإسلام، ويفعل المعاصي، فإذا ذكر بمعصيته استحلها، فيرى أنه ليس في الزنا شيء وليس في شرب الخمر شيء، وأن ترك الصلاة لا إثم فيه، فهو مستحل لما هو عليه، وأقول هذا هو أخو إبليس لأن إبليس أمر بالسجود، فلم يسجد، قال له عز وجل: ﴿اسجد لآدم﴾ ولكنه لم يسجد ثم لما ذكر ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۞ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص: ٧٥، ٧٦].

فبرر عدم سجوده بأن السجود ينافي الحكمة، وينافي العقل، فاتهم الله تبارك وتعالى بأنه لم يأمر بمقتضى الحكمة، وأن مقتضى الحكمة ألا يسجد

الفاضل للمفضول، فزعم نفسه أفضل من آدم، فكيف يسجد له ويكرمه، وهو أعلى منه وأشرف، ولم يعلم هذا المفتون، ومن على شاكلته أن أمر تبارك وتعالى هو مقتضى الحكمة لأن الله هو الحكيم سبحانه وتعالى، وأن أمر الله عز وجل يجب على الخلق أن يطيعوه سواء فهموا الحكمة منه، والمراد منه، أو لم يفهموا فلا شك أن الله تبارك وتعالى يعلم، وأنتم لا تعلمون، فكم من تابع لإبليس منسوب إلى أهل الإسلام يظن أنه من أهل الإسلام، ولكنه يأخذ الدين بعقله، فما وافق هواه فعله وما لم يوافق عقله وفهمه تركه بل قد يزدري هذا الأمر، ولا يظن هذا المأفون المغبون أنه بهذا قد رد كلام الله تبارك وتعالى ورد كلام النبي ولا شك أن الراد على الله، والراد على رسول الله كافر ولا شك هذا هو القسم الرابع وهو أسوأ هذه الأقسام.

الخلاصة مرة ثانية أقول كل ابن آدم خطاء كلنا نخطىء حتى الرسل هذا أبوهم آدم قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

ليعلمنا الله تبارك وتعالى أن أبانا الذي خلقه بيده، ولكنه أمر ألا يأكل من شجرة معينة في الجنة فأكل منها نسياناً كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

لكن علمنا الله تباك وتعالى أيضاً بالمقام الذي قامه آدم كيف نتوب ونرجع إلى الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٧] .

وهذه الكلمات هي ما نص الله عز وجل عليها أنه قال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] .

فلما قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، تاب الله تبارك وتعالى عليهما وقبل دعائهما، وهكذا ينبغي أن يكون كل عبد إذا وقع فيما يسخط الله تبارك وتعالى، أو عصى الله تبارك وتعالى في أمر جهلاً أو نسياناً أو بغلبة هوى فإن عليه أن يسارع بالعودة

وبالرجوع إلى الله تبارك وتعالى، وبالندم على فعله، وبالخروج من ذنبه، ثم بعد ذلك أن يصلح في بقية عمره، وأن يتذكر هذا الإثم أبداً قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: الآية ١١٤] .

وقال ﷺ: [واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن] (حسن وهو قطعة من حديث يبدأ بلفظ [اتق الله حيثما كنت واتبع . .] أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما انظر صحيح الجامع).

فاتباع السيئة بالحسنة محو لها فعلينا بالتوبة وبالرجوع إلى الله تبارك وتعالى، فإذا أذنبت ذنباً فعليك بالتوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه، ثم بالطاعة، ومن أحسن الطاعة التي تغفر الذنب الصدقة كما قال النبي صلوات الله وسلامه عليه: [والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار] (حسن وهو قطعة من حديث كعب بن عجرة أخرجه الترمذي (٦١٤) وحسنه، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (٥٠١)).

والصلاة ولا شك أنها من أعظم ما يقرب العبد إلى الله تبارك وتعالى، كما قال النبي ﷺ: [أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد] (أخرجه أحمد (٢/ ٤٢١) ومسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) والنسائي (٥٧٢) عن أبي هريرة).

ولنحذر يا أخوة، التمادي لأنك لا تدري متى يأتيك الموت، ثم لنحذر الكبر، وأن تأخذنا العزة بالمعصية، وأننا إذا ذكرنا بالله تبارك وتعالى لم نذكر، وأنه إذا قيل لنا اتق الله تأخذنا الأنفة والكبرياء ممن يقول لنا اتق الله، ومن نحن لقد قال الله تبارك وتعالى لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزَاب: الآية ١] .

فإذا كان النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه يقال له اتق الله تبارك وتعالى فكيف بنا نحن، فإذا قال لك عبد من عباد الله: اتق الله قل آمنت بالله تبارك وتعالى وارجع إليه تبارك وتعالى أما المستحل المعصية فمن استحل معصية ولو كانت صغيرة فلا شك أنه كافر خارج من ملة الإسلام أسأل الله تبارك وتعالى أن يردنا إليه رداً جميلاً وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه.

الظلم ظلمات يوم القيامة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

وبعد:

إخواني الكرام ثبت من قول النبي ﷺ أنه قال: [الظلم ظلمات يوم القيامة] (أخرجه أحمد (٢/ ١٥٦، ١٣٧) والبخاري (٥/ ١٠٠ الفتح) وفي الأدب المفرد (٤٨٥) ومسلم (٢٥٧٩) عن ابن عمر).

وقد جاء الإسلام بالعدل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٩٠].

والظلم والبغي واحد وهو ضد العدل، وقد تطلق العرب الظلم على وضع الشيء في غير محله، وقد جاء معنى هذا في الشرك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣].

وذلك أنه وضع للشيء في غير محله، وقد كان الشرك ظلماً عظيماً لأنه

وضع للعبادة التي هي أشرف الأعمال في غير محلها لغير الله سبحانه وتعالى، فلا يستحق العبادة إلا الله جل وعلا، فالتسبيح والتقديس والسجود والركوع والذبح والنذر والخوف والخشية وسائر أنواع العبادة من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح لا تنبغي إلا للإله الواحد سبحانه وتعالى الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، فكل من صرف نوعاً من هذه الأنواع لغير الله تبارك وتعالى فقد وضع العبادة في غير محلها، ولذلك كان الشرك أعظم الظلم، وقد فسر به النبي ﷺ قوله الله تبارك تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] . قال أصحاب رسول الله ﷺ أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذاك، ألا تسمع قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] (أخرجه البخاري (٨/ ٥١٣ الفتح) وغيره عن عبد الله بن مسعود).

هذا لا شك هو أعلى أنواع الظلم، ولكن يدخل في هذا المعنى العام كل اعتداء على حق الآخرين، وكل ما هو ضد العدل، فمن أخذ مالك بغير حق أو سفك دمك بغير حق أو اعتدى على عرضك بغير حق فلا شك أنه قد ظلمك، وهذا من معاني الظلم، وهو معنى قول النبي ﷺ: [الظلم ظلمات يوم القيامة].

ولا شك أن كل من ظلم فهو محاسب بين يدي الله تبارك وتعالى، والظلم بين العباد درجات، فمن أعظم الظلم القتل، قتل المسلم من أعظم العدوان، ولذلك أوجب الله تبارك وتعالى النار على قتل المؤمن عمداً وظلماً كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٩٣] .

وذلك أنه أعظم عدوان، ولا شك أنه يتدرج العدوان بعد ذلك نزولاً حتى تكون مجرد الكلمة والغمزة واللمزة في حق المؤمن ظلم إذا كانت بغير حق فهي ظلم، ولا شك أن كل من ظلم ظلمة فإنه لا تزول قدمه يوم القيامة حتى يؤديها، وإن كان من أهل الإيمان ومن أهل الصلاح كما قال النبي ﷺ:

[أتدرون ما المفلس؟] قالوا: المفلس فينا ما لا درهم له ولا متاع، [إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار]. (أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٢، ٣٣٤، ٣٠٣) ومسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨) عن أبي هريرة وقال الترمذي: حسن صحيح).

وقد أذن الله تبارك وتعالى وشاء أن يقيم العدل يوم القيامة على أكمل وجوهه، حتى إنه يقتص للعجماوات بعضها من بعض وليس للبشر فقط كما قال ﷺ: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء] (أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥،/ ٤١١، ٣١٠) ومسلم (٢٥٨٢) والترمذي (٢٤٢٠) عن أبي هريرة وقال الترمذي: حسن صحيح).

والجلحاء: الشاة التي لا قرون لها.

والقرناء: التي لها قرون.

ومعنى يقتص لها يعني يؤخذ القصاص إذا نطحتها بغير حق فإنه يقتص وكذلك يقتص لها، ويؤخذ حق الحيوان كما قال ﷺ: [عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض] (أخرجه البخاري (٥/ ٤١ ـ ٦/ ٥١٥، ٣٥٦) وفي الأدب المفرد (٣٧٩) ومسلم (٢٢٤٢) عن ابن عمر).

فهذه امرأة دخلت النار في ظلم هرة قطة لما ظلمتها كان مصيرها إلى النار، وهذا يدل على أن الظلم هو إيقاع غير العدل حتى على الحيوان، وحتى على النبات كما قال النبي ﷺ: [قاطع السدر يصوب الله رأسه في النار] (أخرجه البيهقي (٦/ ١٤١) عن معاوية بن حيدة، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦١٥)).

فجعل النبي ﷺ العدوان على شجرة نافعة بدون حق، ليست سادة

للطريق وليس هناك مصلحة من قطعها، وإنما لمجرد الظلم والعدوان والعبث فإن صاحبها يقول النبي ﷺ: [صوب الله رأسه في النار].

هذا كله من معاني الظلم ومن معاني قول النبي ﷺ: [الظلم ظلمات يوم القيامة].

قلنا بأن أعلى درجات، الظلم ظلم المؤمن بسفك دمه، ثم ما دون ذلك، وكذلك ظلم الأرض، وهو أن تأخذ أرض أخيك بغير وجه حق، ولذلك قال النبي ﷺ: [من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين] (أخرجه أحمد (١/ ١٩٠، ١٨٧) والبخاري (٥/ ١٠٣ الفتح) ومسلم (١٦١٠) والترمذي (١٤١٨) وفي رواية: [من سرق الأرض. . .] وكذلك: [من أخذ شبراً من الأرض. .].

ومعنى طوقه: يعني أنه يقطع له هذا الجزء الذي اغتصبه ظلماً من أرض أخيه تصبح طوقاً على رقبته عياذاً بالله إلى سبع أرضين يوم القيامة، يعني جيء به يوم القيامة وهو يحمل مظلمته، ولذلك كان ظلم الأرض من أعظم الظلم، وحذر النبي من هذا بل لعن النبي ﷺ من غير منار الأرض، كما جاء في حديث مسلم: [لعن الله من لعن والده ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من غير منار الأرض] (أخرجه أحمد (١/ ١٢٥، ١١٨، ١٠٨) ومسلم (١٩٧٨) والنسائي (٤٤٢٢) والبخاري في الأدب المفرد (١٧) عن علي بن أبي طالب).

ومنار الأرض: حدودها، فمن غير حدود الأرض بمعنى أنه رفع الحدود، والعلامات التي توضع وأخذ جزءاً من حق جاره فهذا ملعون على لسان رسول الله ﷺ لأن هذا من الظلم.

ولا شك أن أخذ أموال الناس، وجلد أبشارهم أو سبهم أو حبسهم بغير حق ظلم، وهذا يستوي فيه من له ولاية، ومن ليس له ولاية، بل الذي له ولاية هو أشد جرماً عند الله تبارك وتعالى، ومن له ولاية يعني من ولاه الله عز وجل ولاية المسلمين فلا شك أنه إذا ظلمهم كان أعظم وزراً عند الله تبارك وتعالى إذا جلد أبشارهم، أو أخذ أموالهم، أو اغتصب أراضيهم أو

ظلمهم أي شيء بغير حق، لا شك أنه مسؤول على ذلك بين يدي الله تبارك وتعالى، ولا شك أن هذه مسؤولية لا يقدرها إلا من علمها، وأما من يجهلها فإنه قد يفرح بظلمه، أما من يعلمها، فإنه يقدرها حق قدرها كما قيل لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو على سرير الموت قيل له يا أمير المؤمنين: أبشر فلقد صحبت رسول الله ﷺ وأحسنت صحبته ومات يوم مات وهو راض عنك ثم صحبت خليفة رسول الله يعني أبا بكر فأحسنت صحبته فمات يوم مات وهو راض عنك ثم صحبت صحابتهم يعني من صحبوا النبي ومن صحبوا أبا بكر فأحسنت صحبتهم فلئن كان الموت ـ هذا كلام ابن عباس لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لتموتن والأمة راضية عنك فلما سمع عمر بن الخطاب هذا من قول ابن عباس وهو الفقيه رضي الله عنهما، قال: اجلسوني وكان قد طعن فأجلسوه فقال: لئن قلت ما قلت من أني صحبت رسول الله فمات يوم مات وهو راض عني، إنما ذاك من فضل الله ومنه، ثم إني صحبت خليفة رسول الله فمات يوم مات وهو راض عني، إنما ذلك من فضل الله ومنه، ثم إني صحبت صحابتهم وأني يوم أموت أموت وهم راضون عني، فأقول هذا من فضل الله ومنه، وإنما يجزعني مخافتي عليك وعلى أصحابك ـ يعني مخافته على الأمة ـ ثم قال: وددت لو أن هذا كان كفافاً لا لي ولا علي وهذا موضوع الشاهد يقول: «وددت لو أن هذا كان كفافاً لا لي ولا علي».

يعني أتمنى على الله تبارك وتعالى أن أكون ما أديته من أمانة، وما حملته، وما أبليت من صحبة النبي ﷺ وصحبة أبي بكر وصحبة المسلمين كفافاً لا لي ولا علي.

يعني لا شيء لي عند الله، ولا علي شيء أطالب به، ثم قال: «والله لئن عثرت بغلة بالعراق ليسألن عنها عمر يوم القيامة».

يقول إن المسؤولية جسيمة، وإنني إن فرطت في شيء مما وليته سيسألني الله تبارك وتعالى عنه يوم القيامة، ولذلك قال النبي ﷺ في الإمارة: [إنها

أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها] (أخرجه مسلم (١٨٢٥) عن أبي ذر ويبدأ لفظ الحديث: [يا أبا ذر إنك ضعيف. . .]).

وقال فيها النبي ﷺ: [نعمت المرضعة، وبئست الفاطمة] (قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٧، ٤٤٨) والبخاري (١٣/ ١٢٥ الفتح) والنسائي (٥٣٨٥ ، ٤٢١١) عن أبي هريرة).

الأمارة قال: [نعمت المرضعة].

يعني أنها ترضع، ثديها مليء بالحليب، فالإمارة تمكن من يملكها من أموال الناس ومن أبشارهم ومن دمائهم وتملكه من المال ولكن: [بئست الفاطمة] يعني إذا فطم بالموت ثم أتي بعد ذلك لكشف الحساب فبئس الأمر لأنه سيحاسب على كل شيء.

الشاهد من كل هذا أن الظلم ظلمات يوم القيامة أيا كان، ومن أي كان، ولا شك أنه من ذي الولاية أعظم عند الله تبارك وتعالى لمكانته ومنزلته وتمكنه، ولذلك لم تكن النهبة كالغصب علماً أنها كلها أخذ للمال لكن المنتهب غير الغاصب لأنه الغاصب لا يغصب إلا وهو يقدر أما المنتهب جبان يسرق ويهرب، هذا الجبان الذي يسرق ويهرب، لا شك أن جريمته أقل من المغتصب لأن المغتصب متمكن يستطيع أن يأخذ مالك وهو في مكنته، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً ولذلك قال النبي: [من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين].

وذلك أن الأرض تغتصب، ولا تنهب لأنه لا يقدر أن يسرق ويهرب بها إنما لا يفعلها إلا من هو قادر على ذلك. .

فالشاهد من كل هذا أنه لا شك أن ذا الولاية من ولاه الله تبارك وتعالى ولاية من الولايات، لا شك أن ذنبه أعظم ممن لم يكن صاحب ولاية، كل هذا يبين أن الظلم لا شك أنه ظلمات يوم القيامة ولذلك كان الإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، لأنه مع قدرته يمتنع

كما قال النبي ﷺ: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل..] (أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٩) والبخاري (١١/ ٣١٢ ـ ١٢/ ١١٢ الفتح) ومسلم (١٠٣١) والنسائي (٥٣٨٠) عن أبي هريرة).

فبدأ به ﷺ، وذلك لأنه مع تمكنه يعدل بل إن العادلين هم من أقرب الناس من الرحمن يوم القيامة، كما قال النبي ﷺ: [إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا] (أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠) ومسلم (١٨٢٧) والنسائي (٥٣٧٩) عن عبد الله بن عمرو).

فالمقسط هو العادل الذي يقوم بالقسط والقسط هو العدل، ويخبر النبي بأنهم على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن يوم القيامة، ثم فسر النبي المقسطين فقال: هم الذين يعدلون في أهلهم وذوبهم وما ولوا، يعني وما ولاهم الله تبارك وتعالى.

فالعدل ضد الظلم، والمسلم لا شك أن شأنه أن يكون عادلاً، كما أن الكافر من شأنه الظلم كما قال تبارك وتعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون..﴾.

وذلك أن الكافر لا شك أولاً لأنه ظلم نفسه بشركه بالله تبارك وتعالى، وعبادته غير الله، ووضعه للعبادة في غير محلها، وهذا أعظم أنواع الظلم.

كما قال ﷺ لما سأله عبد الله بن مسعود قلت يا رسول أي الذنب أعظم؟ قال: [أن تجعل الله نداً وهو خلقك].

هذا أعظم ظلم لأنه لا ند الله ولا كفؤ له سبحانه وتعالى.

قال: قلت ثم أي: قال: [أن تزاني حليلة جارك].

وهذا كذلك من الظلم من ظلم الجار ومن الخيانة.

قال: قلت ثم أي: قال: [أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك] (أخرجه أحمد (١/ ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢، ٤٦٤) والبخاري (٨/ ١٠، ٤٩٢، ١٦٣/ ١٢، ١٨٧/ ٤٣٣، ١١٤ ـ ١٣/ ٥٠٣ الفتح) ومسلم (٨٦) وأبو داود (٢٣١٠)

والترمذي (٣١٨٢) من طرق عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود).

قتل الولد، وهو عدوان كذلك ولا شك أنه من أعظم الظلم لأنه هذه نفس مخلوقة خلقها الله تبارك وتعالى، ثم لا شك أن الذي خلقها ضمن رزقها كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هُود: الآية ٦].

فالله تبارك وتعالى ما خلق دابة إلا خلق لها رزقها، ولكن يأتي الجوع والفقر من الظلم لولا أن الناس لم يتظالموا، ما بقي جائع ولا عريان، وإلا فإن الله تبارك وتعالى خلق من الأرزاق ومن النعم في هذه الأرض وذخر فيها ما هو فائض. فالأصل هو الفيض وليس الندرة كما يقول كفار علماء الاقتصاد يقولون: الأصل في الاقتصاد هو الندرة، وهذا باطل بل الأصل هو الوفرة ولا شك أن الله تبارك وتعالى خلق من الأرزاق، ومن النعم ما هو موفور لخلقه، ولكن إنما تأتي المجاعة بالتظالم وبالظلم، وأن يأخذ الأغنياء غير ما يستحقون، وأن يحرموا الفقراء من حقوقهم، فالتظالم والتقاطع والتدابر وقطع الطريق والفتن والبلاء هو الذي يقع بسببه هذا النقص، فالشاهد أن الإسلام جاء بالعدل وأمر الله تبارك وتعالى بأن نكون عادلين، ونهانا عن الظلم، وأخبر سبحانه وتعالى بأنه ولو مثقال ذرة لا بد أن يسأل عنها العبد يوم القيامة كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة، الآيات ٧-٨].

ولا شك أن الظلم من أعظم الشرور.

أقول هذا لأن الداء الذي حل بالأمة إنما هو داء العدوان والظلم، كل إنسان يقدر للأسف أن يظلم إلا من شاء الله، وإلا من خاف الله تبارك وتعالى، ثم لا شك أن الظلم من طبائع النفوس، ولذلك كان أول أخوين في الأرض ظلم أحدهما الآخر مع اتساع هذه الأرض، يعني الإنسان يعجب أن أحد ابني آدم، أخوان لا يوجد في الأرض غيرهما لا بشر غيرهم هم

وأبوهم، أبوهم آدم سواء وقعت هذه الحادثة بعد موت آدم أو في حياته ما كان في الأرض غيرهم ومع ذلك تظالموا، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: الآية ٣٢].

من أجل ذلك يعني من أجل أن الأخ يقتل أخاه إذا قدر عليه كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧].

الأمر هذا ليس من فعلي، كون أن الله عز وجل يتقبل مني ولا يتقبل منك هذا من فعل الله عز وجل لم تحاسبني على فعل الله عز وجل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، يعني اتقيت الله عز وجل، فتقبل قرباني، وأنت لم تتق الله تبارك وتعالى فلم يتقبل قربانك، فلم القتل حسداً وبغيا وظلما لذلك.

قال الله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٣٠].

أصبح من الخاسرين لأنه قتل نفساً عدواناً وظلماً، ثم قال الله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿من أجل ذلك..﴾.

يعني من أجل هذا الأمر، وهو أن الأخ والشقيق ممكن أن يقتل أخاه إذا قدر عليه ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المَائدة: الآية ٣٢] أي في التشريع: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

يعني قتل نفساً بغير نفس بغير قصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المَائدة: الآية ٣٢]

أي قتل فساداً في الأرض، فالمفسد في الأرض يقتل، وقتله حق.

المفسد بقطع طريق أو بعدوان على إمام حق، فلا شك أن هذا مفسد في الأرض، وهو الحد الذي يسميه الفقهاء بحد الحرابة، هذا إفساد في

الأرض ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: الآية ٣٢] .

فالشاهد الظلم من شيم النفوس، ولذلك جاء الإسلام بالرادع.

الرادع الأول: التقوى:

أن الإنسان يتقي ربه تبارك وتعالى، ويعلم أنه مطلع عليه وأنه لن يمر إذا مررت في الدنيا لا تمر في الآخرة قد تمر في الدنيا بغصبك بنهبك بقتلك ممكن أن تمر وتبقى معززاً مكرماً في سربك إلى أن تموت لكن لا تمر ستحاسب على هذا وستؤديه رغماً عنك، لا بد أن تؤديه فلذلك كان أول وازع هو الخوف من الله تبارك وتعالى تقوى الله عز وجل والمعرفة، إن كل إنسان مسؤول بين يدي الله هذا أعظم وازع وهو الذي يمنع الإنسان من الظلم.

الرادع الثاني: السلطان:

الذي وضعه الله تبارك وتعالى أو أنزله الله عز وجل هو السلطان والسيف فالسطان وازع، ولذلك ينصب الإمام في المسلمين ليردع الظالم، ولذلك كانت أول خطبة لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: «القوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه والضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له».

هذا واجب السلطان أو هذا من كلام عمر بن الخطاب سواء كان هذا أو هذا.

هذا من واجبات السلطان أنه ينصب لردع الظلمة، ولمنع الظلم، ولإقامة العدل بين الناس، ولذلك أول ما يسأله الله تبارك تعالى هل أقام العدل في الرعية أم لا، لكن المصيبة كل المصيبة إذا كان السلطان نفسه هو الجائر، وهو الظالم، هذه تصبح هي الكارثة هو الذي يظلم، فإذا كان يطلب منه ويرجى منه ردع الظلمة، إذا كان هو ظالماً من يردعه؟ وعلى كل حال، قد أمر

الله تبارك وتعالى وأمر النبي بالصبر على ظلم الإمام، وذلك أنه قد يكون القيام في وجهه يؤدي إلى مظالم أكبر من هذا، ولذلك قال النبي ﷺ: [إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها، قالوا: فيما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم وسلوا الله الذي لكم] (أخرجه أحمد (١/ ٤٣٣، ٣٨٧، ٣٨٦، ٣٨٤) والبخاري (٦/ ٦١٢ ـ ١٣/ ٥) الفتح) ومسلم (١٨٤٣) والترمذي (٢١٩٠) عن ابن مسعود، وقال الترمذي: حسن صحيح).

يعني أن الله سبحانه وتعالى سيسألهم عن رعيتهم، التي استرعاهم إياها وسيأخذ الحق منهم ولا شك هذا على كل حال فيما لم يأت من وراء تبديله، ما هو أشد ضرراً على المسلمين منه ولا شك أنه مطلوب من الأمة، أن تقوم بالعدل لا يقام إلا بهذين الأمرين كما ذكرنا.

الأمر الأول: أن تكون هناك تقوى لله تبارك وتعالى، وأن ينشر معنى تقوى الله تبارك وتعالى ومخافة الله عز وجل.

الأمر الثاني: ثم لا بد أن يقوم السيف والتشريع الذي يحمي الضعيف، ويأخذ الحق من القوي، أما إذا وجد في المجتمع من ينصر الظالم ويبقى الضعيف بلا ظهر يستطيع أن يأخذ حقه، فلا شك أنه ينتشر الظلم ويعم ويطم، ولا شك أن الظلم مؤذن بخراب العمران، هذه قاعدة من القواعد كما أخبر الله تبارك وتعالى في كل الآيات التي أخبر أنه أهلك القرى فيها أنه لا يهلكها إلا بظلم أهلها، إذا ظلم أهلها فإن الله تبارك وتعالى يهلكها كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٩].

هذه قاعدة عامة ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني المدن والأمم إلا وأهلها ظالمون، وهنا وأهلها ظالمون هذه جملة حالية يعني حال كون ظلم أهلها، أما إذا أقاموا العدل فيما بينهم فإن الله تبارك وتعالى قد يمد في أعمارهم حتى لو كانوا كفاراً وأقامون العدل، فإن هذا لمد أعمارهم ولذلك قال إمام علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون: «الظلم مؤذن بخراب

العمران» وهذا الكلام من كلامه لكنه مأخوذ من هذه الآيات ومن هذه السنن الجارية لله تبارك وتعالى في خلقه، وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله تبارك وتعالى قد يؤيد الدولة العادلة وإن كانت كافرة».

حتى وإن كانت كافرة لكنها إذا أقامت العدل أيدها الله تبارك وتعالى، أما الدولة المسلمة إذا تظالم أهلها، ولم يؤخذ الحق لضعيفهم وقوي ظالمهم، فإن هذا لا شك أنه منذر بخراب عمرانهم وفساد أحوالهم واضطراب أمورهم، فالأمم لا تقام إلا بالعدل، إذا قام العدل قام سوق البقاء، وأيد الله تبارك وتعالى الدولة أما إذا قام الظلم فلا شك أن هذا مؤذن بخراب عمرانهم.

على كل حال لا بد أن يتنادى المسلمون في كل مكان في أرض الإسلام، وفي غير أرض الإسلام أن يكونوا عادلين، وأن يبتعدوا عن كل الظلم، وأعظم الظلم كما ذكرنا الشرك بالله تبارك وتعالى، ثم عن ظلم أي شيء، إياك وظلم أي شيء، واعلم أن الله سائلك أن تظلم شجرة، أن تظلم هرة، ثم بعد ذلك لا شك أنه أعظم من هذا أن تظلم أخاك المسلم.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع بين قلوبنا، وأن يؤلف بيننا، وأن يهدينا سبل السلام.

* * *

أي الذنب أعظم؟

إن الحمد الله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

ففي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] قلت: ثم أي؟ قال [أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك] قلت: ثم أي؟ قال: [أن تزاني حليلة جارك] (تقدم تخريجه).

هذا الحديث سأل فيه ابن مسعود النبي ﷺ عن الذنب الأعظم أو الذنوب الكبيرة، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يسألون النبي ﷺ عن الخير ليفعلوه، وعن الشر ليجتنبوه أما معرفة كبائر الذنوب، فإنه واجب على كل مسلم، وذلك أن الله تبارك وتعالى قد جعل الرحمة والنجاة في الآخرة لمن ابتعد عن الكبائر وإن عمل الصغائر، فإن هذا قد يغر إذا ترك البكائر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: الآية ٣١].

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يعني الذنوب العظيمة الكبيرة التي ينهاكم الله تبارك وتعالى عنها ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يعني ذنوبكم الصغيرة نكفرها إذا تركت الكبائر.

كذلك جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: الآية ٣١-٣٢].

ففي هذه الآية بين الله تبارك وتعالى أن أهل الإيمان، بل أهل الإحسان، إذا اجتنبوا كبائر ما نهاهم الله تبارك وتعالى عنه، فإن الله عز وجل يكفر عنهم اللمم، وقد فسر اللمم بأنه أن يلم المؤمن بالمعصية، ثم يدعها يعني أن يشارفها أو يقاربها، أو اللمم الذنوب الصغيرة، التي جمعها المسلم من هنا وهناك، فإنها تكفر، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة، أن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، إذا اجتنبت الكبائر ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، إذا اجتنبت الكبائر، وكل هذا فيه دليل على أن الكبائر لها حساب خاص والصغائر لها حساب خاص، فالصغائر تغتفر إذا اجتنبت الكبائر، وكذلك الصغائر تغتفر بالصلاة، وبالصيام وبأعمال البر، وخاصة إذا كانت الأعمال بالبر هذه متواصلة من حمعة إلى جمعة، ومن رمضان إلى رمضان ومن حج إلى حج، ومن عمرة إلى عمرة، ونحو ذلك.

إذاً السؤال عن الكبائر لأن لها حساب خاص لا بد لها من توبة وإقلاع ولا بد لها من نية خاصة، ليتجاوزها المسلم لذلك كان الصحابة يسألون النبي عن الكبائر، وقد جاء في بعض الأحاديث أنها سبع لما قال النبي: [اجتنبوا السبع الموبقات (أخرجه البخاري (٥/ ١٠، ١٢/ ٣٩٣، ١٨١/ ٢٣٢) ومسلم (٨٩) وأبو داود (٢٨٧٤) والنسائي (٣٦٧٨))، لكن هذه السبع في الحقيقة لا تجمع كل الكبائر، بدليل هذا الحديث الذي نحن بصدده وهو حديث ابن مسعود فقد ذكر فيه أشياء ليست من تلك السبع، وهو الزنا نعود إلى الحديث

يقول ابن مسعود: سألت النبي أي الذنب أعظم؟ فقال النبي ﷺ: [أن تجعل الله نداً وهو خلقك].

الند: الشبيه والنظير والمثيل والعدل بمعنى العادل، ولا شك أنه لم يوجد في البشر من قال إن هناك الله تبارك وتعالى شبيه في كل الجهات، وفي الأوصاف وفي كل الوجوه لله تبارك وتعالى.

يعني لم يأت من قال إن هناك إلهين اثنين متساويين في كل الوجوه ما جاء هذا إلا عن بعض المجوس الذين اعتقدوا أن هناك إلهاً خالقاً للخير، وإلهاً آخر متكافئاً معه في القوة خالق للشر، وأن بينهما صراعاً وتكافؤاً في القوة غير هؤلاء ما عُلِمَ من البشر قال إن هناك إلهين اثنين متساويين من كل وجه وإنما الذي حصل من الشرك في البشر أنهم جعلوا بعض المخلوقات، وبعض معبوداتهم تشابه الله من بعض الوجوه أو من بعض الحقوق أو في بعض الواجبات، وهذا هو عينه اتخاذ الند كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآيات ٢١- ٢٢] .

فبين سبحانه أولاً لأنه دعا الناس جميعاً إلى عبادته وحده لا شريك له، ثم بين لهم أنه هو الخالق، فهو الذي خلقهم والذين من قبلهم، وهو الذي أنزل الماء من السماء وأنبت هذه الجنات ورزق عباده بما رزق سبحانه وتعالى، وبالتالي فإنه لا يشابهه أحد مما يُعْبد من دون الله فأي شخص اتخذ مع الله إلهاً لا شك أنه لا يزعم لإلهه هذا أنه خالق أو رازق أنه هو الذي خلقه أو رزقه أو خلق أباه أو خلق أمه لم يوجد هذا في الحقيقة في البشر من يقول إن هناك خالقاً مع الله تبارك وتعالى، لذلك قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

كيف يجعل الإنسان لله نداً؟

ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عنه فسر أن الوجه من وجوه اتخاذ الأنداد

هو أن تنسب الفضل إلى غير الله، وهذه نسبة يعني شيئاً قليلاً جداً، يعني هذا وجه خفي جداً من وجوه الندية أن تقول: لولا البط لسرق اللصوص بيتنا البارحة.

الشاهد من هذا أن معنى أن يتخذ بعض البشر لله نداً إنما هو في بعض الوجوه، وليس بالضرورة في كل الوجوه من ذلك مثلاً، حق الله تبارك وتعالى على عباده أن يعبدوه وحده لا شريك له هذا حق الله على العباد كما جاء في حديث معاذ بن جبل قال له النبي ﷺ: [يا معاذ هل تدري ما حق الله على العباد؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً].

فهذا حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

والعبادة اسم لكل ما يحبه الله من الأعمال التي اختص بها نفسه سبحانه وتعالى، أعني أمر البشر بأن يخصه وحده بها كالسجود والركوع والصلاة والدعاء والذبح والنذر والخشية والإنابة وكل هذا عليه أو له من الكتاب والسنة أنه لا يجوز أن تصرف فرع من فروع هذه العبادة إلا لله تبارك وتعالى.

المحبة الكاملة، الخشية الكاملة، الإنابة الكاملة له، التقوى أن يتقى وحده سبحانه وتعالى، كذلك أن يسجد له وحده، أن يركع له وحده، سبحانه وتعالى، ألا يطاف إلا ببيته، ألا يذبح إلا له، ألا ينذر إلا له، كل أنواع العبادة والتقرب التي شرعها الله عز وجل ليعظم البشر ربهم بها، هذه لا يجوز أن يصرفها إنسان لغير الله تبارك وتعالى، ومن صرف شيئا من ذلك لغير الله فقد اتخذ نداً من دون الله، أيا كان هذا المصروف إليه حجر، شجر، ملك، وثن أياً كان، وعلى أي صلة كان، فكل من صرف شيئاً من العبادة التي اختص الله عز وجل نفسه بمعنى أنه أمر أن يعظم بها وحده سبحانه وتعالى، ولا يعظم بها غيره، فهو مشرك بالله تبارك وتعالى، والحال أن هذا الذي يعبد من دون الله، لا يمكن أن يكون كالله سبحانه وتعالى في الخلق، كذلك والحال أن هذا الذي يعبد من دون الله، لا يمكن أن يكون كالله سبحانه

وتعالى في الخلق، كذلك قال النبي هنا لعبد الله بن مسعود [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] يعني والحال أنه خلقك، وليس هناك من إله خلق، ليس هناك من إله يعبد من دون الله تبارك وتعالى زعم عبدته أنه خلق، فالذين عبدوا الشمس مثلاً ما قالوا إنها تخلق، أو الذين عبدوا القمر، أو الذين عبدوا الملائكة، أو الذين عبدوا غير الله أياً كان هذا الغير ما قولوا إنه خلق مع الله تبارك وتعالى، إلا ما كان من النصارى قبحهم الله الذي قالوا إن عيسى إله كامل، وإنسان كامل أي أنه خالق ورازق ومصور وبارئ، وفيه كل صفات الأب في زعمهم تعالى الله عز وجل عما يقولون علواً كبيراً، والله تبارك وتعالى هو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم ويلد ولم يكن له كفواً أحد.

فالشادهد أن من عبد غير الله تبارك وتعالى بأي صورة من صور العبادة، فقد اتخذ نداً له مع الله تبارك وتعالى، هذه صورة من اتخاذ الأنداد مع الله.

صورة ثانية الندية في التشريع، التشريع حق الله، ونعني بالتشريع الأمر والنهي وذلك أن الله تبارك وتعالى هو خالق العباد، وهو الذي يأمرهم، وينهاهم سبحانه وتعالى هو الذي يحل لهم ويحرم عليهم هو الذي يحق له، وهذا من حقه أن يقول هذا افعلوه، وهذا اتركوه، وليس لاحد غير الله تبارك وتعالى، أن يأمر وينهى قط، إلا بما يأمر به الله تبارك وتعالى وينهى عنه الله عز وجل.

ولذلك قال النبي ﷺ: [لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق] (أحرجه أحمد (٤/ ٤٣٢,٥/ ٦٦) والحاكم (٣/ ٤٤٣) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي).

ولذلك كل من أطاع مخلوقاً فيما يعصي به الله تبارك وتعالى معتقداً أن هذا المخلوق له حق الأمر والنهي فهو مشرك بالله تبارك وتعالى خارج من دين الله عز وجل بدليل قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: الآية ٦٠].

فسمى الله تبارك وتعالى من يتحاكموا إلى غيره كأنما تحاكموا إلى الطاغوت وإلى غير نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ثم قال في ختام هذ الآيات، وهذه الآيات لها سبب في النزل قال في ختامها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ٦٥] . .

ولا شك أن الآيات الكثيرة والأدلة الواضحة تؤكد أن حق الأمر والنهي والتشريع إنما هو الله تبارك وتعالى.

كما قال جل وعلا: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۞ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: الآيات ٤٩-٥٠] .

إذا كل من اتخذ مطاعاً وسيداً يطيعه فيما يعصي به الله تبارك وتعالى أي يأمره بما هو معصية لله فيطيعه، وينهاه عما هو طاعة الله فيطيعه، لا شك أنه قد اتخذ هذا المتبوع والسيد والآمر، والناهي، اخذه إلهاً من دون الله تبارك وتعالى، ومعنى هذا أنه اتخذ نداً من دون الله عز وجل، وهذا ولا شك من أعظم الذنوب، بل هذا من الذنوب التي لا تكفر مهما كان للإنسان من حسنات كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨] .

هذه أوجه ممن اتخذ مع الله نداً، ومن هؤلاء من زعم لأحد غير الله أن له صفة تشبه صفة الله تبارك وتعالى، أو اسم يشبه اسم الله تبارك وتعالى، فالله تبارك وتعالى متفرد بأسمائه وصفاته جل وعلا، فمن اعتقد أن هناك من يتصف بصفة من صفات الله يعلم كعلم الله، أو يسمح كسمع الله أو يبصر كبصر الله، أو له شيء من حقوق الله التي ليست لأحد إلا هو كأن يملك الشفاعة فلا يملك الشفاعة إلا الله تبارك وتعالى كما قال جل وعلا: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٤] .

فلا للشفاعة مع الله سبحانه وتعالى، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذن الله للشافع، وبإذن الله للمشفوع فيه، فالله وحده هو الذي يحل ذلك كله، كذلك لا يُدخل الجنة إلا الله، ولا يُخرج من النار إلا الله، هذا حقه سبحانه وتعالى، فمن زعم أن لأحد قدرة، أو جاهاً عند الله أن يدخل من شاء الجنة، أو يخرج من شاء النار فهو كافر بالله تبارك وتعالى متخذ له نداً يعبده من دون الله عز وجل، بل لا يملك أحد لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بمشية الله عز وجل لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، لا يملك ملك لنفسه خير ولا ضر، إلا بإذن الله، ولا نبي مرسل مهما كان هذا النبي يملك لنفسه فضلاً، عن غيره خيراً أو ضراً، إلا بإذن الله تبارك وتعالى، فالله عز وجل هو الذي بيده الأمر كله، وله الملك كله، كما قال جل وعلا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المُلك: الآية ١] .

فالملك كله لله عز وجل ملك الآخرة، وملك الدنيا كله بيد الله تبارك وتعالى ولا يعطى منه أحداً إلا بمشيئته سبحانه وتعالى، فالشاهد من هذا أن من اتخذ مع الله تبارك وتعالى، أي اعتقد أن حقاً خاصاً لله عز وجل بأن هناك من البشر أو من الملائكة من له مثل هذا الحق فهذا لا شك أنه قد اتخذ لله نداً، ولا شك أن للشر صوراً متعددة لم أحصها في هذه الخطبة القصيرة، ولكني حسبي التنبيه عليها والدلالة لها تنبيها وشرحاً وتعريفاً بهذا الحديث العظيم حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أي الذنب أعظم قال: [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] قلت: ثم أي قال له النبي ﷺ: [أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك].

فالقتل لا شك أنه من أعظم الجرائم بعد الشرك بالله تبارك وتعالى، وقد عظم الله تبارك وتعالى أمره كما قال جل وعلا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: الآية ٣٢] .

فقتل نفس واحدة كقتل كل الأنفس إثمها عند الله تبارك وتعالى، ولا

شك أن هذا أمر عظيم جداً، العدوان على النفس المعصومة يزداد بأمور: من ذلك مثلاً، ما نص النبي ﷺ في الحديث نص على صورة من صور القتل، هي من أفظعها وأشنعها أن يقتل الأب ابنه، ويقتله لا للذنب وإنما مخافة أن يشركه في الرزق، وفحش هذا الأمر وفجوره وكونه بالغ ما بلغ من الظلم بأمور:

أولاً: أن هذا الابن لا يستطيع الدفاع عن نفسه، طفل لا يقدر أن يدافع عن نفسه.

ثانياً: أنه في مكان الرحمة والمفروض أن الأب يكون في مقام الرحمة، فإذا كان في مقام القسوة وغلظ القلب يكون هذا أعظم وأكبر.

الأمر الثالث: أنه لا ذنب لهذا المقتول، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: الآية ٨-٩] . لا ذنب له وهذه أيضاً جريمة ثالثة تجعل هذه الجريمة جريمة ومركبة كذلك لأنه لا ذنب له.

الأمر الرابع: أنه خشي من أمر لا دخل له فيه، وهو الرزق علماً أن هذا الذي يقتل ابنه حتى لا يطعم معه هو نفسه المرزوق عند الله تبارك وتعالى، أعني أن الله هو يرزقه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٣١] .

يعني أن هذا الرزق، إنما هو للذرية كما هو للآباء، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١] .

فلا شك أن الله تبارك وتعالى هو رازق الآباء والذرية، فهذا كله بيد الله وتعالى، ثم أن تعتدي على هذا المخلوق وهذه النفس المصونة فتقتلها خشية رزق الله سبحانه وتعالى، هو الذي يفعله وهو الذي يقدره، ولا شك أنها جريمة مركبة هذا الذي يجعلها عظيمة، ولا شك أن قتل النفس المعصومة، جريمة كما ذكرنا ولكنه يتعاظم بحسب هذه النفس فهذه أعظمها أن يقتل الأب ابنه في هذا، ثم كذلك من أعظمها قتل النفس الشريفة المحترمة كقتل الأنبياء وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وقد لعن الله تبارك وتعالى اليهود

وشردهم في الأرض، وأوقع فيهم ما أوقع بقتلهم الأنبياء، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٦-١٥٧] . .

أي تبجحهم بهذا.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٢] .

وقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١] .

فقتل الأنبياء لا شك أنه من أعظم الذنوب، وأضاف الله تبارك وتعالى هذا الذين يقتلون من يأمر بالقسط من الناس كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢١-٢٢] .

فالعدوان على النفس الشريفة العظيمة الآمرة بالحق كالأنبياء ومن على شاكلة الأنبياء من الدعاة إلى الهدى من أعظم الذنوب ومن أكبرها عند الله تبارك وتعالى، ثم يلي ذلك قتل المؤمن أي مؤمن حتى لو كان مؤمناً في نفسه ليس من الدعاة إلى الله تبارك وتعالى، وقد أوجب الله الخلود في النار لقاتل المؤمن كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٩٣] . .

هذا في قتل المؤمن أي مؤمن كان، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبمجرد ما يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقد عصم الله دمه.

أما النفوس التي أباح الله قتلها، أو أوجب قتلها فهي ليست معصومة الدم، فهذه النفوس: الكافر المحارب للإسلام، فهذا قد أوجب الله عز وجل على المسلمين قتاله كما قال ﷺ: [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا

بحقها وحسابهم على الله] (حديث متواتر ورد عن جمع من الصحابة انظر تخريجه في الصحيحة (٤٠٧ ـ ٤١٠).

فالكافر المعلن لكفره المحارب للإسلام نفسه غير معصومة، كذلك المرتد المسلم الذي ارتد عن دينه وكفر كفراً بيناً لا عصمة لدمه كما قال ﷺ: [لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة] (أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥، ٤٤٤، ٤٢٨، ٣٨٢) والبخاري (١٢/ ٢٠١ الفتح) ومسلم (١٦٧٦) وأبو داود (٤٣٥٢) والنسائي (٤٧٢١) وابن ماجة (٢٥٣٤) عن ابن مسعود).

إذا كان ثيباً أي سبق له زواج وزنا، فهذا يرجم يستحل دمه، ويرجم حداً من حدود الله تبارك وتعالى، ﴿والنفس بالنفس﴾ يعني من قتل نفساً فقد أهدر دمه وأهدر دمه قصاصاً ثم قال النبي [والتارك لدينه المفارق للجماعة] فالتارك لدينه المفارق للجماعة أباح الله تبارك وتعالى دمه بتركه لدين كما قال ﷺ: [من بدل دينه فاقتلوه] (أخرجه أحمد (١/ ٢٨٢) والبخاري (٦/ ١٤٩,١٢/ ٢٦٧ الفتح) وأبو داود (٤٣٥١) والنسائي (٤٠٦٥، ٤٠٦٤، ٤٠٦٢، ٤٠٥٩) والترمذي (١٤٥٨) وابن ماجة (٢٥٣٥) عن ابن عباس).

فالشاهد أن الله تبارك وتعالى لم يبح الدم إلا بأسباب، منها: كفر أو فساد في الأرض كما قال جل وعلا: (من أجل ذلك) أي من أجل أن الأخ يقتل أخاه إذا قدر عليه، وهذه الآية من سورة المائدة بعد أن قص الله عز وجل قصة ابني آدم، وكيف أن أحدهما قتل أخاه في غير ما بأس ظلماً وعدواناً فقال الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المَائدة: الآية ٣٢] قتل نفساً بغير نفس، أي بغير قصاص ﴿أو فساد في الأرض﴾ أي بغير إفساد في الأرض، فالمفسد في الأرض يقتل لذلك قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المَائدة: الآية ٣٣] .

فالمفسد في الأرض كالقائم على إمام الحق، والقاطع للطريق، ونحو ذلك من الإفساد في الأرض هذا يقتل كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المَائدة: الآيات ٣٢-٣٣] .

الشاهد أن النفس معصومة الدم وأرجو أن أكون بهذا البيان الموجز قد بينت من هو الذي تعصم دمه، هو المؤمن الذي لم يرتكب ما يحل هدر دمه، وكذلك النفس الكافرة المستأمنة، كل كافر مستأمن معصوم الدم لا يجوز أن يعتدى عليه.

نعود إلى الحديث.. قول النبي صلوات الله وسلامه عليه: [وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك].

كان هذا من أعظم الذنوب لأنه قتل، فالنفس البشرية الأساس أنها من روح الله تبارك وتعالى أي أنها نفخة من الملك بأمر الله تبارك وتعالى لذلك ينبغي أن تصان حتى وهي في البطن قبل أن تولد لها صيانة ينبغي أن تُصان وألا يعتدى عليها لأن العدوان عليها من أعظم الذنوب، ثم قال النبي ﷺ: [أن تزاني حليلة جارك].

وقول النبي: [تزاني] يدل على المفاعلة وأنه أمر مستمر فأصبح الزنا من أعظم الذنوب.

أولاً: يعني فحشه هنا أولاً الزنا في ذاته فحش، لكنه قد يزداد إثمه وفحشه بأمور تضاف إلى ذلك، منها المعاودة والاستمرار، وهذا حاصل هنا [أن تزاني]، ثم أن يكون على ذي حرمة، فالعدوان على الأم مثلاً أو الأخت ليس كالعدوان على الأجنبية وهذا أمر ثان.

كذلك زوجة الجار، الجار له حق، فالعدوان عليه أمر كبير، فذلك يعظم الزنا بالعدوان على نساء المجاهدين.

فالشاهد أن الزنا فحش في أساسه وفي ذاته ولو كان مرة واحدة، ولكنه لا شك أنه يعظم بأمور: فهو من الكبير أعظم من الصغير أي الشيخ الزاني أكبر إثماً عند الله تبارك وتعالى من الشباب الزاني كما جاء في الحديث: [ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر] (أخرجه مسلم (١٠٧) والنسائي (٢٥٧٥) عن أبي هريرة).

وذلك أن الشيخ المفروض فيه أن يعود إلى الله تبارك وتعالى، وأن يتوب إليه فهو كبير لا تدفعه الحاجة ولا الغريزة إلى أن يفعل مثل هذا الفعل الفاحش، أما الشاب، فإنما قد تغلبه شهوته فعلى كل حال كلاهما ذنب لكن ذنب هذا أخف من هذا.

الشاهد من كل ذلك أن الذنوب يا أخوة قد تكبر بما يحتف بها من أمور فليس كل الزنا واحداً، وليس كل القتل واحداً، وكذلك ليس كل الشرك واحداً وإن كان كل الشرك كله مخلد في النار لكن بعضه أشر من بعض، بعضه أضل من بعض، والنار درجات كما أن الجنة درجات، فالله تبارك وتعالى يجعل الكفار كلهم في نار جهنم، ولكن المنافقين أسفل، المنافقون أسفل، وكذلك الكفار جميعاً في جهنم لكن الصادين عن سبيل الله لهم إثم مع الإثم كما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النّحل: الآية ٨٨] .

فهذا عذابه يضاعف فلا شك كل شيء بحسابه فالشرك والكفر درجات، وكذلك النفاق درجات، هناك نفاق اعتقادي، وهنا نفاق عملي، وكما أن أهل الإيمان يتفاضلون في الجنة بأعمالهم، فكذلك أهل الكفران، وأهل الشقاق يتفاضلون في النار بإثمهم وفجورهم.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجنبنا الخطأ والزلل في القول والعلم، وأن يعصمنا من هذه الكبائر العظيمة وأن يردنا إليه رداً جميلاً.

* * *

الكذب رأس الخطايا

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أيها الأخوة الكرام:

الذنوب تعظم وتصغر، أعني منها كبائر وصغائر، وقد بينا في الخطبة السابقة بعض هذه الكبائر كما نص على ذلك النبي ﷺ، وهي الشرك بالله، وقتل الولد مخافة أن يطعم مع أبيه، وكذلك قال النبي: [وأن تزاني حليلة جارك] (أخرجه البخاري (٨/ ١٦٣ الفتح)، ومسلم (٨٦)).

وفي سياق معرفة كبائر الذنوب وصغارها، نبدأ بذنب من أعظم الذنوب وهو الكذب، وذلك أنه رأس الخطايا جميعاً، كما أن الصدق هو رأس الهدى، كما ثبت من حديث ابن مسعو في الصحيحين أنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، [وما يزال الرجل يكذب يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً] (أخرجه البخاري (٨/ ١٦٣ الفتح)، ومسلم (٢٦٠٦)).

هذا حديث عظيم من جوامع كلم النبي ﷺ، وهو يبين فيه أن الصدق هو رأس كل خلق حسن، وهو الذي يهدي صاحبه إلى كل بر، وإلى كل توفيق، وإذا وفق للبر فلا شك أن طريق البر هو طريق الجنة، وكذلك الكذب هو رأس الخطايا وهو بدايتها وهو الذي يهدي إلى كل فجور، والفجور لا شك أنه طريق النار.

الكذب كلمة كبيرة معروفة تشمل عناصر كثيرة، ولا شك أن المعصية بالكذب أو هذه الكبيرة تكبر يعظم نوع الكذب، وقد يكون صغيرة.

فمتى يكون الكذب كبيرة عظيمة من الكبائر؟ ومتى يكون صغيرة من الصغائر؟.

يعظم الكذب إذا كان كذباً على الله سبحانه وتعالى، هذا أعظم الكذب.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: الآية ٢١].

فأعظم الذنوب هي افتراء الكذب على الله تبارك وتعالى، وهو من اتباع خطوات الشيطان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآيات ١٦٨-١٦٩].

أعظم الكذب على الله ادعاء النبوة، هذا أعظم كذب على الله تبارك وتعالى، من ادعى نبوة فلا شك أنه من أعظم المفترين والكاذبين على الله تبارك وتعالى، ولذلك كان الأنبياء الكذابون هم أعظم الناس عذاباً عند الله تبارك وتعالى، ولذلك برأ الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ والأنبياء الصادقين بأنه لم يكونوا ليقترفوا هذا الإثم العظيم، وهو من أعظم الذنوب، والمعلوم أن محمداً ﷺ، والأنبياء الصالحين كانوا من أتقى الناس ومن أخوف الناس، وكانوا يتورعون من الكذب على الخلق، فكيف يقتحمون الكذب على الله سبحانه وتعالى.

من الكذب على الله أن تقول أحل الله تبارك وتعالى كذا ولم يحلل

هذا، وحرم الله تبارك وتعالى كذا ولم يحرم هذا، وقد عنف الله تبارك وتعالى الكفار في ادعائهم ما شرعوه لأنفسهم أنه من عند الله تبارك وتعالى.

من الكذب على الله أن تقول أحل الله تبارك وتعالى كذا ولم يحلل هذا، وحرم الله تبارك وتعالى كذا ولم يحرم هذا، وقد عنف الله تبارك وتعالى الكفار في ادعائهم ما شرعوه لأنفسهم أنه من عند الله تبارك وتعالى.

فقال جل وعلا: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: الآيات ١١٦-١١٧].

هنا لام الله تبارك وتعالى المشركين في أنهم كانوا يحلون ويحرمون بأهوائهم، ويقولون: هذا ما أحله الله وهذا ما حرمه الله تبارك وتعالى، ولذلك أصل المسلمون أصلاً عظيماً في أنه لا يجوز لمسلم أن يقول إن الله أحل كذا أو حرم كذا إلا أن يكون الله تبارك وتعالى قد نص على تحليل هذا الأمر، ولا شك أن إثم المحرم كإثم المحل، بعض الناس يتهاون في التحريم، وذلك في زعمه منعاً وحماية لجانب الدين، وقد يتورع في التحليل في أن يحل شيئاً وهو حرام عند الله تبارك وتعالى، لكنه قد يقحم نفسه في أن يحرم ما لم ينص الله تبارك وتعالى على تحريمه، ولا شك أن التحريم والتحليل سواء، فلا تُحرِّم ولا تُحلِّلْ، ولا تقل حرم الله كذا وأحل كذا إلا أن يكون عندك نص وبرهان من الله تبارك وتعالى، فإذا نص الله عز وجل على أن هذا شيء حلال فأحله، وإذا نص على أنه حرام فحرمه، وإذا لم يوجد فيه نص لا بتحليل ولا بتحريم، فهذا ينظر فيه أهل العلم كما قال النبي ﷺ: [الحلال بين والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه..] (أخرجه البخاري (٥٢ الفتح)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما).

في الحديث فقرة وهي: [لا يعلمها كثير من الناس].

فكثير من النساء قد يشتبه عليه ما ليس فيه نص من كتاب الله، ومن سنة

النبي، فأمر النبي ﷺ المتورع أن يترك ما يظن فيه بأساً خوفاً من أن يكون فيه بأس، وشبه النبي ﷺ من يدخل في الشبهات في الأمر المشتبه الذي قد يكون حلالاً، وقد يكون حراماً لا نص فيه، حذر النبي من الاقتحام فيه كمن يحوم حول الحمى يوشك أن يقع فيه، لكن لا يجوز لمسلم أن يقول في الأمر المشتبه إن الله حرمه أو إن الله أحله هكذا بصريح العبارة، وإنما ينبغي أن يقول هو يشبه الحلال، أو هو يشبه الحرام كما قرر هذا في موضعه من أصول الفقه، أنه لا يجوز الافتراء على الله تبارك وتعالى بأن تقول أحل الله هذا الأمر، أو حرم هذا الأمر، وليس في هذا نص من كتاب الله ولا من سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

إذا ينبغي للمؤمن بإزاء الله تبارك وتعالى بإزاء شرع الله عز وجل ألا يتقوّل على الله، إياك والتقوّل على الله تبارك وتعالى، وأن تقول على الله عز وجل مقتحماً الكذب، فإذا كنت تتعمد هذا، فلا شك أن فاعل هذا كافر خارج من دين الإسلام، أما إذا كان هذا يجهل فإن هذا من اتباع خطوات الشيطان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآيات ١٦٨-١٦٩] .

فهذه الآية أصل عند علماء الأصول في أن الأصل في الأشياء الحل، إلا ما حرمه الله تبارك وتعالى، الأصل في الأشياء الحل لأنه الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ .

الذي في الأرض كله كلوه حلالاً طيباً، ثم بين أن المحرم مفصل وأن الحلال متروك كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ﴾ [الأنعَام: الآية ١١٩] .

فالحرام مفصل والحلال ما سوى ذلك، ولذلك الأصل في الأشياء الحل، كما أخذ بذلك علماء الأصول فقالوا: الأصل في الأشياء هي الحل، والتحريم استثناء، والتحريم لا بد أن يكون بنص، فإذا لا تُقْحِمْ نفسك في أن

تقول حرم الله تبارك وتعالى كذا وليس عندك دليل من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

احذر أن تتقوّل على الله تبارك وتعالى بغير علم، إذا تعمد متعمدٌ هذا وقال: حرم الله تبارك وتعالى هذا وهو يعلم أن الله لم يحرمه، فهذا كافر خارجٌ من دين الإسلام متقوّل على الله تبارك وتعالى أما إذ ظن واجتهد في زعمه ونسب هذا التحريم إلى الله تبارك وتعالى، وليس على بينة منه، فهذا لا شك أنه كذلك لا يجوز وهو من اتباع خطوات الشيطان، بل يجب على المؤمن أن يتورع ويقول: أظن هذا.

ربما يكون هذا أشبه بالحرام.

وربما يقاس هذا على الحرام الفلاني.

وربما من هذا الباب، وذلك أن هذه الأمور الاجتهادية إنما هي أمور ظنية وليست بقطعية، القطعي هو النصوص عليه، وأما الاجتهادي فهو ظني، أرجو أن يفهم هذا الكلام حق الفهم، وأن يدرك.

الاجتهادي ظني كل أمر اجتهادي فهو ظني لأن الاجتهاد إنما هو ظن بحكم شرعي، وأما الأمور القطيعة فهي ما نص الله تبارك وتعالى عليها، أو نص عليه رسوله صلوات الله وسلامه عليه أو أجمعت عليها أمة الإسلام، هذا هو القطعي، هذه هي الأمور القطعية، وما سوى ذلك من أمور اجتهادية فهي أمور ظنية يصيب فيها المجتهد ويخطئ ولذلك قال النبي ﷺ: [إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم واجتهد فأخطأ فله أجر واحد] (متفق عليه) فلما كان المجتهد يصيب ويخطئ كان أمراً ظنياً، وليس أمراً يقينياً ولا قطعياً.

أيضاً من الكذب العظيم الكذب على النبي صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن النبي في مقام المشرع يشرع عن الله تبارك وتعالى، باعتباره مُفوضاً وكل كلام النبي تشريع صلوات الله وسلامه عليه، ولا شك أن منزلة كلامه من الأخذ والعمل كمنزلة كلام الله تبارك وتعالى سواء بسواء في العمل يعني يجب

أن نعمل بكلام النبي كما نعمل بكلام الله سبحانه وتعالى.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية ٨٠].

فطاعة النبي هي طاعة لله سبحانه وتعالى، لأن النبي لا ينطق من عند هواه، وإنما يقول عن الله تبارك وتعالى ويتكلم عن الله عز وجل، لذلك كان الكذب على النبي هو الكذب على الله تبارك وتعالى، ولذلك قال ﷺ، كما ثبت في الصحيحين، بل هو حديث متواتر روي من وجوه كثيرة جداً: [من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار] (انظر صحيح الجامع الصغير (٦٥١٩)).

فمن كذب على النبي متعمداً، فلا شك أنه - يعني - قد تبوأ مقعده من النار، وهذا لا خلاف في كفره وخروجه من دين الإسلام إذا تعمد الكذب على النبي وقال النبي كذا، وهو يعلم أن النبي لم يقله، أو نهى النبي عن كذا، أو أمر بكذا ولم يقله رسول الله ﷺ ولم ينه عنه، فلا شك أن هذا مرتكب كبيرة من الكبائر تخرجه من دين الإسلام عياذا بالله، كذلك الأمر لا يجوز أن نقول كما يقول كثير من الجهلة في أمر حادث أمر جديد لو كان النبي موجوداً لأحلّ هذا أو لحرم هذا أو لقال في هذا الأمر الفلاني كذا، وما يدريك؟ وما يدريك أن النبي لو كان موجوداً لقال ما تقول واجتهد كما تجتهد؟ وفعل كما تفعل؟ هذا من الكذب على النبي صلوات الله وسلامه عليه وإنما يجب أن تقول في أي أمر لم يقله النبي أمر اجتهادي تقول الظن في هذا الأمر اجتهد في هذا الأمر ورأيي هو كذا وكذا، لا أعلم فيه سنة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه، وهذا كان حال الصحابة عندما يسألون عن حكم لا يعلمون فيه سنة للنبي ﷺ يقولوا: «لا نعلم فيه سنة وإنما أقول فيه برأي فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان».

إذاً لا تقحم النبي في أمر اجتهادي، وتقول لو كان موجوداً في هذا الأمر لحكم بكذا ولقضى بكذا وما يدريك؟ وما يدريك أن يكون الحكم على خلاف ذلك، بل قل هذا حكمي وهذا ظني وهذا اجتهادي ولا أنسبه إلى الله

ولا أنسبه إلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه، إن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان، تعمد الكذب على النبي كفر، والخطأ في هذا كبيرة، والتقحم في هذا ونسبه الأمر إلى النبي لا شك أنه من الكبائر لا تقحم النبي صلوات الله وسلامه عليه في أمر تجتهد به أنت وتراه أنت لأن الأمر قد يكون على خلاف ذلك.

ثم بعد ذلك يأتي الكذب على المؤمنين.

الكذب على عباد الله تبارك وتعالى، ولا شك أن الكذب على عباد الله عز وجل كذلك يتفاوت، فأعظم الكذب على عباد الله أن تكفر مؤمناً وأنت كاذب أن تقول: قال كذا فكفر به، وأنت تعمل أنه لم يقله وهذا كفر بالله تبارك وتعالى وخروج من الدين كما قال ﷺ: [من قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما] (أخرجه مالك (٩٨٤) والبخاري (١٠/ ٥١٤ الفتح).

علماً أن هذا قد يكون في غضب، وقد يكون في سب، أما إذا كان في هدوء ولم يكن في سب أو تقول وكان في نقل أنت تعلم أنه كذب فلا شك أنك تفكر بها: [من كفر مسلماً فقد كفر] إذا كفرت مسلماً وأنت تكذب عليه وتنقل عنه ما لم يقل، وتقول ما لم يقل، وتقوله ما لم يقل، أو تلزمه بلازم قوله ولا يلتزم هذا الازم ولا يقول به وتكفره بذلك لا شك إنك تكفر وتخرج من دين الله تبارك وتعالى، لأن من ادعى في مؤمن بأنه كافر وليس كما قال إلا حار عليه، وكذلك إذا اتهمته بما يلعن به أو يفسق به أو يبدع به وليس كذلك فأنت أحرى بهذا الوصف يرجع عليك كما قال النبي ﷺ: [إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعن، فإن كان لذلك أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلها] (أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٧) وحسنه الألباني انظر الصحيحة (١٢٦٩)).

إذاً الافتراء على المؤمنين منه كبائر عظيمة، ومن هذه الفرى اتهامهم بالزنا، وقد نص الله تبارك وتعالى على أن هذا كبيرة عظيمة توجب عقوبات

ثلاث كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النُّور: الآية ٤] .

ثلاث عقوبات لمن قال عن مؤمنة، أو محصنة أنها زانية، أو أنها بغي، أو أنها بنت زنا، أو إن أمها كذا، أو نحو ذلك كله، إذا اتهمت مسلمة محصنة بالزنا، فلا شك أنه إما أن يكون صدقاً أو لا يكون صدقاً إلا بأن يأتي الرامي بأربعة شهداء يشهدون هذا كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النُّور: الآية ٤] .

يعني حتى وإن كان صادقاً فهو كاذب، إذا تلكم ولا يملك بأن يأتي بأربعة شهداء، قال تبارك وتعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النُّور: الآية ٤] .

فهؤلاء لا شك أنه إجماعاً رمي المحصنين كرمي المحصنات، أعني أن من رمى مؤمناً محصناً ذكراً فكذلك حكمه حكم من رمى محصنة، الآية نصت على المحصنات، ولكنها لم تذكر المحصنين، ولا شك أن الحكم واحد، إجماعاً ولا فرق بين المسلمين بتاتاً أقول ولا خلاف بين أهل الإسلام جميعاً أن من رمى رجلاً كمن رمى امرأة، من رمى رجلاً مؤمناً محصناً كمن رمى امرأة محصنة، فالرمي بالزنا كبيرة من الكبائر إن لم يأت صاحبه بأربعة شهداء يشهدون هذا، وإلا كان عقوبته ثلاث عقوبات كما نص الله بتارك وتعالى، الجلد، وأن ترد شهادة أبداً ولا تقبل منه لا على عقد زواج ولا على عقد بيع، ولا عقد تجارة ولا على أي عقد بتاتاً، ثم يكون فاسقاً عن المؤمنين يظل بهذا، ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾، والبعض يرى أن هذا الاستثناء راجع إلى الفسق فقط، والبعض يرى من الفقهاء أنه راجع إلى الأمرين إلى قبول الشهادة، وإلى انتهاء الفسق، وأما الحد، فواجب إذا وصل إلى السلطات، ولا يسقط بالتوبة إذا وصل إلى السلطان ولا يسقط بالشفاعة يعني لا يجوز الشفاعة فيه لأنه حد من حدود الله تبارك وتعالى، بعكس حدود القصاص قد تسقط بالشفاعة إذ قبلها أولياء الدم، وقد تسقط بالتنازل من أولياء

الدم أنفسهم، أما حد القذف وحد السرقة والحدود الأخرى غير القصاص فإنما حدود من حقوق الله تبارك وتعالى لا تسقط لا بشفاعة ولا بتنازل أي إن تنازل صاحب الحق الذي سب المسبوب ذهب للحاكم، وقال له: تنازلت عن من سبني، لا يسقط الحد لا بد أن يحد لأن هذا من حقوق الله سبحانه وتعالى، وهذا بعكس القصاص، الشاهد أن الافتراء على مسلم برميه بأنه ابن زنا أو هو زان أو من هذا السبيل فهذا لا شك أنه كبيرة من الكبائر، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النُّور: الآية ٢٣].

لعنهم الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة، وكذلك قد أعد لهم عذاباً عظيماً.

كذلك من الكبائر الكذب على أهل الإيمان أن تكذب عليهم بما يوجب حداً غير القذف، فإذا كذبت على مؤمن بأنه قاتل، وليس كذلك، وأنه سارق وليس كذلك، وأنه خائن وليس كذلك لا شك أن هذا كله من الفرى وأنت محاسب على ذلك بين يدي الله تبارك وتعالى، أما إذا لم يوجب حداً وكان نوعاً من الفرية فهو كبيرة من الكبائر والدليل على ذلك أن الغيبة يعدها بعض العلماء كبيرة علما أنها صدق، وأما الكذب بهتان أكبر من هذا كما نهى النبي عن الغيبة.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: [أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: [ذكرك أخاك بما يكره]، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: [إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته] (أخرجه مسلم (٢٥٨٩)).

فالذي نتكلم عنه إنما هو البهتان، فإذا كانت الغيبة وهي صدق من الكبائر، فكيف بالبهتان لا شك أنه من أكبر الكبائر، وأقول الغيبة من الكبائر لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢].

لذلك عد بعض علماء المسلمين الغيبة من الكبائر علما أن الغيبة صدق، أما البهتان فهو من أعظم الكبائر على المسلم، ومن أعظم الكبائر التي ترتكب، وهي تتفاوت كما ذكرنا، فإن كان الكاذب كذب عليه في أنه كفر ولم يكفر فهو كافر، أو بهته بما يستحق اللعن أو يستحق الحد، فلا شك أنه الأليق بهذا، إذاً الكذب يتفاوت، ولا شك أن الكذب قد يكون منه صغائر وهو الكذب في المزاح ونحو ذلك من الأمور التي يعلم الناس إنها كذب، فهذه صغائر، وقد نهى النبي ﷺ عنها علماً أنه توعد على بعضها كما جاء في الحديث: [ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له] (أخرجه أحمد (٥/٣,٥,٧) وأبو داود والترمذي (٢٣١٥) وقال: هذا حديث حسن).

فمجرد الإضحاك وإن كان أمر من الكذب، وهذا قد لا يكون فيه ضرر ما ولا أذية بمسلم معين وإنما أراد أن يضحك الناس بشيء لا يتعلق بمسلم معين.. وإنما يذكر مثلاً أو نكتة من النكات لا تتعلق بشخص ما هذه لا شك إنها قد تكون من الصغائر لكنها كذلك لا شك إنها مما يوجب الحذر لأنها كذلك من جملة الكذب.

على كل حال الكذب رأس الخطايا والإنسان الكذاب لا شك أن فيه رأس كل بلية وكل بلية تتأتى بعد ذلك من هذا الكذب وممكن للإنسان أن يتدرج فيبدأ بالكذب على الناس ثم يكذب على الرسول يريد أن يؤكدها لأن الكذاب يكذب كذبة ثم يريد أن يؤيد كذبته فيكذب كذبة ثانية، ثم يريد أن يؤيدها فيكذب كذبة ثالثة، ثم يريد أن يؤيدها فيكذب كذبة رابعة، وهكذا، وقد يتدرج به الكذب فيبدأ بالكذب على الناس، ثم يأتي بالكذب على الرسول صلوات الله عز وجل على غير معانيها ويحملها على غير معانيها ويعلم أن هذا التأويل كذب، فيكون كاذباً على الله تبارك وتعالى، ومتقولاً على الله عز وجل.

لذلك أقول مرة ثانية حديث النبي صلوات الله وسلامه عليه: [وإن الكذب يهدي إلى الفجور].

بداية الذنب كذبة، تبدأ بكذبة إذا لم ترجع عنها وتستغفر الله تبارك وتعالى وتتوب ممكن يستدرجك الشيطان إلى كذبة ثانية ثم يستدرجك إلى رابعة تبدأ بالكذب على الناس ثم تنتهي بعد ذلك بالكذب على الله تبارك وتعالى، وهذا الحال دائماً.

الحال دائماً في الذنوب تبدأ هكذا كما قال النبي ﷺ في السارق: [لعن الله السارق ؛ يسرق البيضة ؛ فتقطع يده ؛ ويسرق الحبل فتقطع يده] (أخرجه البخاري ومسلم).

قيل معني الحديث أنه يبدأ بسرقة الأمور الصغيرة ثم يتدرج به الأمر حتى يسرق الأمور الكبيرة فتقطع يده بالسرقة لأنه لا سرقة في أقل من ربع دينار، وهكذا الكذب، يبدأ بالكذبات الصغيرة متهاوناً فيها حتى يصل به الشيطان بالكذب على الله سبحانه وتعالى.

إخواني:

الكذب مذمة ومنغصة عظيمة، والمسلم هو الصادق كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: الآية ١١٩] .

ينبغي أن تكون صادقاً، والإيمان الحق أن تقول الصدق ولو يضرك، ولا تقل الكذب ولو ينفعك.

كتاب

القواعد الذهبية

في حفظ القرآن وتدبره والفتح على الإمام

قواعد في
تدبر القرآن الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القرآن الكريم كلام الله الذي أنزله الله على خاتم رسله محمد بن عبدالله ﷺ وقد أنزله الله بلغة العرب لسان النبي محمد ﷺ، فكان هذا تشريفاً للعرب كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٤] . . .

وجعله معجزاً في البيان حتى يكون معجزة دائمة للرسول، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: الآيتين ٢٣- ٢٤] ﴾ . . .

وقد تكفل الله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩] فلا يستطيع جبار أن يبدله أو يزيد فيه أو ينقص منه كما جاء في الحديث: «**وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء**» (رواه مسلم).

وجعله سبحانه وتعالى ميسراً للحفظ والفهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: الآية ١٧] . . . وأمرنا بتدبره فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: الآية ٢٩] ﴾ . . .

وجمع الله سبحانه وتعالى فيه أحكام كل شيء قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: الآية ٨٩] .

ولمّا كان كثير من المسلمين قد أعرضوا عن القرآن فهماً وتدبراً وعملاً، وكان كثير ممن يقرأوه لا يعرف كيف يتدبر القرآن، ويفهمه على النحو الصحيح فإنني أحببت أن أجمع قواعد الفهم لكتاب الله أسأل الله أن ينفع بها.

أولاً: وجوب تعلم لغة العرب:

وجوب تعلم لغة العرب، وفهم معاني كلامهم وطرائقهم في التعبير، وأساليبهم في البيان، فإنَّ القرآن عربي، وقد نزل بهذه اللغة، ووفق أساليب العرب في البيان، واشتمل على معظم إبداع العرب في كلامهم، فاستخدم التشبيه، وضرب الأمثال، والتقديم لأغراض بيانية، وكذلك الحذف والإيجاز والأطناب في مواضعه لأغراض بيانية، وكذلك الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، والعكس لأغراض بيانية، وكذلك التعريف والتنكير لأغراض بيانية من التعظيم والتحقير، وكذلك الاستهزاء كقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [النّساء: الآية ١٣٨] و﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدّخان: الآية ٤٩] . . .

وكذلك من لا يعرف معاني ألفاظ الكلمات العربية، ومفردات اللغة لا يعرف المقصود الحقيقي بالإيمان، والإسلام، والعلم، واليقين، والظن، والصوم، والصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، والولاء والبراء، وسائر كلام العرب الذي نزل به القرآن. . .

ومن لا يعرف طرائق العرب في البيان فإنَّه لا يستطيع أن يفرق بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونعبدك، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ونستعين بك. . .

ولا بين ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٢٦] وبين قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: الآية ٢٢] . . .

والخلاصة أنَّه يجب معرفة كلام العرب في معاني مفرداتهم، وقواعدهم، وأساليبهم في البيان، وهذا ما تتضمنه اليوم معاجم اللغة، وعلم النحو والصرف، وعلم البلاغة.

فيجب على المسلم المريد تدبر القرآن أن يكون على قدر من هذه العلوم، وإلاَّ جهل الأساس الذي يفهم به القرآن.

ثانياً: دراسة سيرة الرسول ﷺ:

دراسة سيرة الرسول ﷺ ومعرفة أخلاقه وشمائله والإلمام بأقواله وأفعاله وذلك أنَّ الرسول فسر القرآن بقوله، وأقامه بعمله وخلقه ﷺ.

وقد كان الرسول ﷺ هو المثال الكامل للإنسان الكامل الذي يحبه الله ويريد من كل مؤمن أن يُبْنَى على غِراره كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١] . . .

ولمَّا سئلت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «**كان خلقه القرآن**» (رواه مسلم).

ولذلك فمحاولة تدبر القرآن بعيداً عن دراسة سيرة الرسول ﷺ ستكون محاولة ناقصة؛ لأنَّ الرسول ﷺ هو المثال الواقعي القائم لكتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]. . .

ثالثاً: أخذ بيان النبي ﷺ للقرآن:

معرفة السنن القولية والعملية التي بَيَّنَ الرسول ﷺ بها الكتاب فإنَّ القرآن قد جعل الله بيانه لرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٤] . . .

فالطهارة والصلاة والصلام، والزكاة، والحج، وسائر العبادات المأمور بها في القرآن لا يمكن معرفة أحكامها وحدودها إلاَّ ببيان الرسول ﷺ.

رابعاً: معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول وذلك أنَّ القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع والأحداث، فجاء بعضه إجابة عن سؤال، أو رداً لشبهة قيلت، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٣] وجاء كذلك بياناً وتعليقاً على وقائع...

فالآيات النازلة في بدر وأحد، وسائر الغزوات التي نزل فيها قرآن لا تفهم فهماً سليماً إلاَّ بمعرفة وقائع هذه الغزوات. وإلاَّ فكيف يفهم قارىء فهماً صحيحاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عِمرَان: الآيات ١٣٩-١٤٠] إلاَّ إذا عرف ما أُصيب به المسلمين يوم أُحد من القتل والجراحة، ووقوف أبي سفيان شامخاً على رأس المسلمين بعد نهاية المعركة يقول: (اعل هبل!!).. (لنا العزى ولا عزى لكم).. (أفيكم محمد!! أفيكم أبو بكر!! أفيكم عمر!!) (أمَّا هؤلاء فقد قتلوا) (رواه أحمد والبخاري).

وكذلك لا تفهم آيات سورة النور في شأن حادثة الإفك إلاَّ بمعرفة الوقائع التي كانت سبب نزول هذه الآيات وهكذا.

خامساً: الإكثار من النظر في كتب التفاسير:

دراسة أقوال السلف من المفسرين لكتاب الله وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن، ومعلمه لعدد كبير من التابعين... وذلك أنَّ ابن عباس حفظه صغيراً، وتتبع أسباب نزوله، وجمع ذلك من كبار الصحابة، وآتاه الله فهماً فيه بدعوة النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل**» (متفق عليه)...

فكان ترجماناً لكتاب الله... وكذلك ابن مسعود، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص.

فإنَّ هؤلاء نقلت أقوالهم عن طريق تلاميذ أخذوا عنهم.. وهؤلاء أخذوا

عن كبار الصحابة كالشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعثمان رضي الله عنه، وعلي بـن أبي طالب رضي الله عنه، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وأبي بـن كعب رضي الله عنه، وغيرهم...

ففهم آيات القرآن وفق تفسير السلف الصالح من الصحابة والتابعين لا محيد عنه، لمن أراد أن يفهم عن الله سبحانه وتعالى فإنَّ هؤلاء عاصروا التنزيل، وكانوا أعلم النَّاس بكلام العرب، وشاهدوا كيفية تطبيق القرآن.

سادساً: دراسة تفاسير أهل العلم:

الإكثار من النظر والقراءة في تفسير أهل العلم من العلماء، والمفسرين الذين فهموا القرآن وفق الأصول السابقة، وآتاهم الله فهماً في القرآن فإنَّ القرآن لا تزال عجائبه، وإنَّ الفهم فيه يظل أبداً ما دام القرآن في الأرض كما جاء في حديث علي بـن أبي طالب عندما سأله سائل فقال له: «**هل خصكم رسول الله بشيء؟**» أي وأنتم أهل بيته... فقال: «**لا والذي برأ النسمة وفلق الحبة، ما خصنا رسول الله بشيء إلّا ما في هذه الصحيفة، وأخرجها فإذا فيها أسنان الإبل، وفهما في كتاب الله يؤتيه الله من يشاء**» (متفق عليه) ولا يزال هذا الفهم ما بقي القرآن والإيمان.

سابعاً: العكوف عليه والانقطاع إليه للنظر والتأمل والتفكر والتدبر:

العكوف على القرآن، والقيام به آناء الليل وأطراف النهار، والتفكر في آياته، وتدبر معانيه ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سَبَإ: الآية ٤٦].

فإذا جلس الإنسان وحده وتفكر في آيات الله انفتح له فيها باب عظيم للفهم والعلم واليقين.

ثامناً: إثارة القرآن:

مدارسة القرآن، وذلك أنَّ القرآن كالمسك المختوم إذا أثرته ونَقَّبْتَ فيه فاح عطره، وانتشر شذاه ولذلك كان السلف يوصون قائلين: «أثيروا القرآن» وإثارته هو بالاجتماع عليه وتشقيق السؤال حول آياته، ومدارسته...

وقد جاء في الحديث: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**» (رواه أحمد والبخاري).

فمدارسة القرآن تصنع العجب في إثارة معانيه واستخراج كنوزه... وقد رأيت أنا كاتب هذه السطور من هذا عجباً.

تاسعاً: إنزل القرآن على الواقع:

القرآن قول متجدد لا تزال تتحقق آياته كل يوم لأنَّه ليس وصفاً لحدث مضى وانتهى إنَّما هو حكم الله على النَّاس والأحداث...

وقضية البشر الأساسية هي الإيمان والكفر، والموقف من الرسالات، وهذه القضية لا يتغير فيها إلاَّ الوجوه فقط، وإلاَّ فإنَّ الأحداث والوقائع واحدة.

بل والكلمات واحدة ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٣]... ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣] فقصة كل رسول واحدة: رسول يأتي بالهدى من ربه فيدعو النَّاس كما أمره الله فينقسم النَّاس بإزاء دعوته إلى مؤمن وكافر، ويقوم الصراع، ويداول الله الأيام بينه وبين عدوه، ثم تكون العاقبة بهلاك الظالمين أو بالنصر والتمكين...

وهكذا كان الشأن مع كل رسول؛ اختلفت أسماؤهم وأزمانهم وأقوامهم، واتحدت دعوتهم، وتطابقت كلمات مناوئيهم، وتشابهت قلوبهم.

وكان الإيمان كذلك واحداً. . . اختلفت أسماء المؤمنين لكنهم كانوا في كل عصر على قلوب وأعمال واحدة ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وهكذا يبقى وصف الله للكفار في عصر الرسالة هو وصفه للكفار اليوم، ويعيش عبدالله بن سلول رأس المنافقين ويموت في المدينة ولكن أشباهه في النفاق يظهرون في كل جيل ودعوة. . . ويصفهم الله في القرآن: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨] .

وكما يمضي بلال وعمار وصهيب فإنَّه يبقى أشباههم من أهل الإيمان يعذبون طالما بقيت فتنة في الأرض، ويبقى وصف الله لهؤلاء في القرآن ماثلاً وقائماً وواقعاً. . . ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٠] . . .

وهكذا لا يفهم القرآن حياً غضاً طرياً. . إلاَّ من أنزله على الواقع المعاصر فعرف كفار زمانه، وفراعنة أقوامه، وأهل النفاق في بلده، وأهل الإيمان الذين هم أهله حقاً وصدقاً. . .

ومع هذا فيجب الحذر من إنزال القرآن على غير منازله، فمن أنزل آيات المؤمنين في الكافرين أو العكس، أو جعل المؤمنين الصالحين هم المنافقون الكافرون ضلَّ ولم يهتد ووضع القرآن في غير مواضعه. . . وهذا باب عظيم ضلَّ فيه من ضل ممن حجب الله نور القرآن عن أبصارهم. . . وهذا الباب أعني إنزال آيات القرآن منازله الصحيحة، وفقه الواقع على ضوء الكتاب هو ثمرة القواعد السابقة جميعها وهو ثمرة الهداية والتوفيق.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠] .

عاشراً: أخذ القرآن للعلم والعمل:

لا تخالط بشاشة القرآن القلب إلاَّ من أخذه للعلم والعمل، وهذا هو الإيمان وأمَّا من أخذه للعلم فقط دون العمل فإنَّه لا يوفق إلى الإيمان بل

يكون حجة عليه، ويغلق قلبه دونه عياذاً بالله. فكم ممن قرأوا القرآن ودرسوه وحفظوه، ولم تخالط بشاشة الإيمان به قلوبهم، ولا رفعوا رأساً به، وهؤلاء يكون القرآن حجة عليهم لا لهم، كما قال ﷺ: «**والقرآن حجة لك أو عليك**» (رواه مسلم)...

فكم من أوعية حفظت القرآن ولم تهتدِّ به عياذاً بالله، وكم من منافقين وكفار علموا آياته وكذبوا بها.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٢].

حادي عشر: التسليم لله عند متشابهه:

القاعدة الحادية عشرة هي وجوب التسليم لله عند متشابه القرآن، والعلم أنَّ القرآن كله من الله سبحانه وتعالى، وأنَّه نزل يصدق بعضه بعضاً، ولا يخالف بعضه بعضاً، وأنَّه لا اختلاف بين آياته، ولا اضطراب في أحكامه بل هو كتاب قد ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: الآية ١].

ووجود المتشابه فيه الذي لا يعلمه إلاَّ الله والراسخون في العلم إنَّما هو لابتلاء الإيمان، ولتفاضل أهل العلم فيه، وعلى المؤمن إذا رأى المتشابه من آياته أن يقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧]...

وأهل العلم به يردون ما تشابه منه إلى محكمه، وأمَّا أهل الزيغ والغواية فإنَّهم كما قال تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧]...

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك بكل اسم هو لك أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، اللَّهُمَّ علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، وارزقنا القيام به آناء الليل وأطراف النهار..

اللَّهُمَّ اجعلنا ممن ورثته القرآن علماً وعملاً اللَّهُمَّ يا معلم القرآن علمنا إياه، اللَّهُمَّ يا من منزل الكتاب اجعلنا من أهله اللَّهُمَّ صلِّ على عبدك ورسولك محمد الذي قرأ باسمك، وعلم لك.

والحمد لله رب العالمين في البدء والختام

القواعد الذهبية
لحفظ القرآن الكريم

القرآن كتاب الله الخالد المعجز المنزل على عبده ورسوله وخاتم رسله محمد ﷺ والذي أذن الله بحفظه من أن يغير أو يبدل، أو يزاد فيه، أو ينقص منه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر: الآية ٩] وهو الكتاب الذي بين أيدينا في مشارق الأرض ومغاربها، الكتاب الذي تلقاه الرسول من جبريل، وجبريل من رب العزة تبارك وتعالى، والذي علمه رسول الله إلى أصحابه الأطهار، وحملة الدين السفرة البررة الكرام، والذي جمعه الصديق بإشارة الفاروق، ودونه ذو النورين عثمان، وأجمعت الأمة المسلمة عليه.

هذا الكتاب هو دستور المسلمين وشريعتهم وصراطهم المستقيم، وحبل الله المتين، وهدايته الدائمة وموعظته إلى عباده، آية صدق رسوله الباقية إلى آخر الدنيا، وهو سبيل عز المسلمين في كل العصور والدهور، ولمَّا كان القرآن كذلك تعبدنا الله بتلاوته، وجعل خيرنا من تعلمه وعلمه، وأخبر النبي ﷺ أنَّ من قرأ حرفاً واحداً منه كان له به عشر حسنات (رواه الترمذي والدارمي وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣٢٧))، وأنَّ من قرأه وهو يتعتع فيه فله أجران، ومن كان ماهراً به كان مع السفرة الكرام البررة من الملائكة يوم القيامة (متفق عليه)، وأنَّ قارىء القرآن الحافظ له يقال له يوم القيامة: «**اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا فإنَّ منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها**» (رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع(٨١٢٢)).

فلا يزال يرقي في منازل الجنة حتى ينتهي آخر حفظه، وهذه منزلة

عظيمة ليست لأحد إلاَّ لحافظ القرآن.

ولمَّا كان هذا فضل حفظ القرآن فإني أحببت أن أضع بين يديه إخواني بعض القواعد العامة التي تسادهم في حفظ القرآن ولينالوا هذه المنزلة العظيمة أو بعضاً منها، وما لا يدرك كله فلا بأس بإدراك بعضه أو جله، وعلى قدر أهل العز تأتي العزائم.

القاعدة الأولى: الإخلاص:

١ ـ وجوب إخلاص النية، وإصلاح القصد، وجعل حفظ القرآن والعناية به من أجل الله سبحانه وتعالى والفوز بجنته وحصول مرضاته، ونيل تلك الجوائز العظيمة لمن قرأ القرآن وحفظه، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ١١] ... وقال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غير تركته وشركه**» (رواه مسلم).

فلا أجر ولا ثواب لمن قرأ القرآن وحفظه رياء أو سمعة، ولا شك أنَّ من قرأ القرآن مريداً الدنيا طالباً به الأجر الدنيوي فهو آثم.

القاعدة الثانية: تصحيح النطق والقراءة:

أول خطوة في طريق الحفظ بعد الإخلاص هو وجوب تصحيح النطق بالقرآن، ولا يكون ذلك إلاَّ بالسماع من قارىء مجيد أو حافظ متقن، «والقرآن لا يأخذ إلاَّ بالتلقي، فقد أخذه الرسول ﷺ وهو أفصح العرب لساناً من جبريل شفاهاً، وكان الرسول نفسه يعرض القرآن على جبريل كل سنة مرة واحدة في رمضان، وعرضه ﷺ في العام الذي توفي فيه عرضتين» (متفق عليه).

القاعدة الثالثة: تحديد نسبة الحفظ كل يوم:

يجب على مريد حفظ القرآن أن يحدد ما يستطيع حفظه في اليوم: عدداً

من الآيات مثلاً، أو صفحة أو صفحتين من المصحف أو ثمناً للجزء وهكذا، فيبدأ بعد تحديد مقدار حفظه وتصحيح قراءته بالتكرار والترداد، ويجب أن يكون هذا التكرار مع التغني، وذلك لدفع السآمة أولاً، وليثبت الحفظ ثانياً. وذلك أنَّ التغني بإيقاع محبب إلى السمع يساعد على الحفظ، ويعود اللسان على نغمة معينة فتتعرف بذلك على الخطأ رأساً عندما يختل وزن القراءة والنغمة المعتادة للآية، فيشعر القارىء أن لسانه لا يطاوعه عند الخطأ، وأنَّ النغمة اختلت فيعاود التذكر، هذا إلى جانب أنَّ التغني بالقرآن فرض لا يجوز مخالفته لقوله ﷺ: «**من لم يتغن بالقرآن فليس منا**» (رواه البخاري).

القاعدة الرابعة: لا تجاوز مقررك اليومي حتى تجيد حفظه تماماً:

لا يجوز للحافظ أن يتنقل إلى مقرر جديد في الحفظ إلاَّ إذا أتَمَّ تماماً حفظ المقرر القديم وذلك ليثبت ما حفظه تماماً في الذهن، ولا شك إنَّ مما يعين على حفظ المقرر أن يجعله الحافظ شغله طيلة ساعات النهار والليل، وذلك بقراءته في الصلاة السرية، وإن كان إماماً ففي الجهرية، وكذلك في النوافل، وكذلك في أوقات انتظار الصلوات، وفي ختام الصلاة، وبهذه الطريقة يسهل الحفظ جداً ويستطيع كل أحد أن يمارسه ولو كان مشغولاً بأشغال كثيرة لأنَّه لن يجلس وقتاً مخصوصاً لحفظ الآيات وإنَّما يكفي فقط تصحيح القراءة على القارىء، ثم مزاولة الحفظ في أوقات الصلوات، وفي القراءة في النوافل والفرائض وبذلك لا يأتي الليل إلاَّ وتكون الآيات المقرر حفظها قد ثبتت تماماً في الذهن، وإن جاء ما يشغل في هذا اليوم فعلى الحافظ ألا يأخذ مقرراً جديداً بل عليه أن يستمر يومه الثاني مع مقرره القديم حتى يتم حفظه تماماً.

القاعدة الخامسة: حافظ على رسم واحد لمصحف حفظك:

مما يُعين تماماً على الحفظ أن يجعل الحافظ لنفسه مصحفاً خاصاً لا يغيره مطلقاً وذلك أنَّ الإنسان يحفظ بالنظر كما يحفظ بالسمع، وذلك أنَّ

صور الآيات ومواضعها في المصحف تنطبع في الذهن مع كثرة القراءة والنظر في المصحف فإذا غير الحافظ مصحفه الذي يحفظ فيه، أو حفظ من مصاحف شتى متغيرة مواضع الآيات فإنَّ حفظه يتشتت، ويصعب عليه الحفظ جداً، ولذلك فالواجب أن يحافظ حافظ القرآن على رسم واحد للآيات لا يغيره.

القاعدة السادسة: الفهم طريق الحفظ:

من أعظم ما يعين على الحفظ فهم الآيات المحفوظة ومعرفة وجه ارتباط بعضها ببعض.

ولذلك يجب على الحافظ أن يقرأ تفسيراً للآيات التي يريد حفظها، وأن يعلم وجه ارتباط بعضها ببعض، وأن يكون حاضر الذهن عند القراءة وذلك لتسهل عليه استذكار الآيات، ومع ذلك فيجب أيضاً عدم الاعتماد في الحفظ على الفهم وحدة للآيات بل يجب أن يكون الترديد للآيات هو الأساس، وذلك حتى ينطلق اللسان بالقراءة وإن شتّ الذهن أحياناً عن المعنى وأمَّا من اعتمد على الفهم وحده فإنَّه ينسى كثيراً، وينقطع في القراءة بمجرد شتات ذهنه، وهذا يحدث كثيراً وخاصة عند القراءة الطويلة.

القاعدة السابعة: لا تجاوز سورة حتى تربط أولها بآخرها:

بعد تمام سورة ما من سور القرآن لا ينبغي للحافظ أن ينتقل إلى سورة أخرى إلاَّ بعد إتمام حفظها تماماً، وربط أولها بآخرها، وأن يجري لسانه بها بسهولة ويسر، ودون إعناء فكر وكد في تذكر الآيات، ومتابعة القراءة، بل يجب أن يكون الحفظ كالماء، ويقرأ الحافظ السورة دون تلكؤ حتى لو شتَّ ذهنه عن متابعة المعاني أحياناً، كما يقرأ القارىء منَّا فاتحة الكتاب دون عناء أو استحضار، وذلك من كثرة ترددادها، وقراءتها، ومع أنَّ الحفظ لكل سور القرآن لن يكون كالفاتحة إلاَّ نادراً، ولكن القصد هو التمثيل، والتذكير بأنَّ

السورة ينبغي أن تكتب في الذهن وحدة مترابطة متماسكة، وألاَّ يجاوزها الحافظ إلى غيرها إلاَّ بعد اتقان حفظها.

القاعدة الثامنة: التسميع الدائم:

يجب على الحفاظ ألا يعتمد على حفظه بمفرده، بل يجب أن يعرض حفظه دائماً على حافظ آخر، أو متابع في المصحف، حبذا لو كان هذا مع حافظ متقن، وذلك حتى ينبه الحافظ بما يمكن أن يدخل في القراءة من خطأ، وما يمكن أن يكون مريد الحفظ قد نسيه من القراءة ورِدده دون وعي، فكثير ما يحفظ الفرد منَّا السورة خطأً، ولا ينتبه لذلك حتى مع النظر في المصحف لأنَّ القراءة كثيراً ما تسبق النظر، فينظر مريد الحفظ المصحف ولا يرى بنفسه موضع الخطأ من قراءته. ولذلك فيكون تسميعه القرآن لغيره وسيلة لاستدراك هذه الأخطاء، وتنبيهاً دائماً لذهنه وحفظه.

القاعدة التاسعة: المتابعة الدائمة:

يختلف القرآن في الحفظ عن أي محفوظ آخر من الشعر أو النثر، وذلك أنَّ القرآن سريع الهروب من الذهن، بل قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها**» (متفق عليه).

فلا يكاد حافظ القرآن يتركه قليلاً حتى يهرب منه القرآن وينساه سريعاً، ولذلك فلا بدَّ من المتابعة الدائمة والسهر الدائم على المحفوظ من القرآن، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**إنَّما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**» (متفق عليه) **وقال أيضاً**: «**تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها**» (متفق عليه).

وهذا يعني أنَّه يجب على حافظ القرآن أن يكون له ورد دائم أقله جزء من الثلاثين جزءاً من القرآن كل يوم، وأكثره قراءة عشرة أجزاء لقوله ﷺ: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**» (رواه أبو دادو بهذا اللفظ، وأصله في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو).

وبهذه المتابعة الدائمة، والرعاية المستمرة يستمر الحفظ ويبقى، ومن غيرها يتفلت القرآن.

القاعدة العاشرة: العناية بالمتشابهات:

القرآن متشابه في معانيه وألفاظه وآياته. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢٣].

وإذا كان القرآن فيه نحواً من ستة آلاف آية ونيف فإنَّ هناك نحواً من ألفي آية فيها تشابه بوجه ما قد يصل أحياناً حد التطابق أو الاختلاف في حرف واحد، أو كلمة واحدة أو اثنتين أو أكثر.

لذلك يجب على قارىء القرآن المجيد أن يعتني عناية خاصة بالمتشابهات من الآيات، ونعني بالتشابه هنا التشابه اللفظي، وعلى مدى العناية بهذا المتشابه تكون إجادة الحفظ، ويمكن الاستعانة على ذلك بكثرة الاطلاع في الكتب التي اهتمت بهذا النوع من الآيات المتشابهة ومن أشهرها:

١ ـ درة التزيل وغرة التأويل ـ في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ـ للخطيب الإسكافي.

٢ ـ أسرار التكرار في القرآن ـ لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني.

القاعدة الحادية عشر: اغتنم سني الحفظ الذهبية:

الموفق حتماً من اغتنم سنوات الحفظ الذهبية من سن الخامسة إلى الثالثة والعشرين تقريباً فالإنسان في هذه السن تكون حافظته جيدة جداً بل هي سنوات الحفظ الذهبية فدون الخامسة يكون الإنسان دون ذلك وبعد الثالثة والعشرون تقريباً يبدأ الخط البياني للحفظ بالهبوط ويبدأ خط الفهم والاستيعاب في الصعود، وعلى الإنسان أن يستغل سنوات الحفظ الذهبية في حفظ كتاب الله أو ما استطاع من ذلك. والحفظ في هذا السن يكون سريعاً

جداً، والنسيان يكون بطيئاً جداً بعكس ما وراء ذلك حيث يحفظ الإنسان ببطء وصعوبة، وينسى بسرعة كبيرة ولذلك صدق من قال: (الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر، والحفظ في الكبر كالنقش على الماء)...

فعلينا أن نغتنم سنوات الحفظ الذهبية، إن لم يكن في أنفسنا ففي أبنائنا وبناتنا.

* * * *

قواعد في
أحكام وآداب الفتح على الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله الأمين...

وبعد...

فهذه مجموعة من الأحكام والآداب لمن يريد أن يفتح على إمامه في الصلاة جمعتها ورتبتها لما رأيت الحاجة إليها خاصة وأنَّ كثيراً من الأئمة والمأمومين قد يعرض صلاته للبطلان بمخالفة هذه الأحكام والخروج عن هذه الآداب.

١ ـ الصحيح من أقوال أهل العلم أنَّه يجوز الفتح على الإمام إذا نسي آية، لما رواه الإمام أحمد رحمه الله وأبو داود رحمه الله أن النبي ﷺ صلَّى فترك آية، فقال له رجل: يا رسول الله آيةُ كذا وكذا؟ قال: «**فهلا ذكرتنيها؟**» (رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني في الصحيحة (٨٠٢)).

ـ ولما رواه أبو داود أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ صلَّى صلاة فقرأ فيها فتلبس عليه فلما انصرف قال لأبي: «**أصليت معنا**»؟ **قال: نعم، قال:** «**فما منعك؟!**» (رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني في الصحيحة (٨٠٣)).

ـ وقد روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قوله: «كنا نفتح على الأئمة

على عهد رسول الله ﷺ». . .

وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إذا استطعمك الإمام فأطعمه» يعني الفتح عليه. . . وجاء عن عدد من الصحابة والتابعين استحباب الفتح على الإمام.

٢ ـ ويجب أن تكون نية من يفتح على الإمام تذكيره إذا نسي، أو تصحيح ما أخطأ فيه، وأمَّا إن نوى القراءة، فإنَّ صلاته تبطل لقوله ﷺ: **«لعلكم تقرأن خلف إمامكم؟» قلنا: نعم هَذاً يا رسول الله! قال: «لا تفعلوا إلاَّ أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب فإنَّه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»** (قال الألباني: رواه البخاري في جزء القراءة وأحمد وأبو داود وحسنه الترمذي والدارقطني).

٣ ـ ولا يجوز المبادرة بالفتح على الإمام إذا سكت إلاَّ إذا علم أن سكوته من أجل نسيان، وأمَّا إذا سكت عند آية رحمة ليدعو، أو آية عذاب ليدعو فإنَّه لا يبادر، لحديث حذيفة قال: **«صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى. فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء فقرأها. ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلاً. إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ»** (رواه مسلم).

(ومعنى مترسلاً أي متمهلاً) وكذلك إذا سكت لالتقاط نفسه، أو لاستحضار ذهنه، فإنَّه لا يبادر بالفتح، ولذلك قال علماء الحنفية: «ينبغي للمأموم ألا يعجل الإمام بالفتح، ويكره له المبادرة بالفتح» (فتح القدير ١/٢٨٣، الدر المختار ١/٥٨١).

وكذلك قد يكون سكوت الإمام من أجل نخامة، أو جفاف حلق، أو انقطاع نفس، فالواجب إمهاله، وعدم مبادرته.

٤ ـ ولا يجوز لمن يصحح آية يرى أنَّ الإمام أخطأ فيها أن يبادر بتصحيحها إلاَّ إذا كان على ثقة من حفظه، ومخالفة الإمام للصواب فإنَّ القرآن

معظمه متشابه في اللفظ، وقد يأتي التشابه في آية بكاملها كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤١]، كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ١٣]، وقد يكون باختلاف في بعض الحروف كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٣] وقد يكون في التقديم والتأخير كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القَصَص: الآية ٢٠] وكقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: الآية ٢٠]... و...

وكثيراً ما ينبري للرد والتصحيح من لا يكون على علم دقيق بالحرف الصحيح فيفسد على القارىء قراءته، ويتسبب في التشويش والتعويق.

٥ ـ لا يجوز الرد والتصحيح للإمام إذا كان الإمام مجيداً وعلى علم بالقراءات، فقد يقرأ بقراءة غير ما يحفظه المأموم كأن يقرأ الإمام بقراءة ورش، والمأموم لا يعلم إلاَّ قراءة حفص مثلاً، وكذلك قد يجمع الإمام بين قراءتين أو أكثر في صلاته فإنَّ هذا جائز ما دام أنَّ القراءة متواترة.

ومعنى هذا أنَّه لا يجوز لمن يصحح للإمام أن يرد إلاَّ إذا علم يقيناً أنَّ الحرف الذي أخطأ فيه الإمام ليس حرفاً متواتراً، أو علم أنَّ الإمام لا يعرف إلاَّ قراءة واحدة من القراءات المتواترة، وبذلك يكون تجاوزه عنها خطأً، والدليل على ذلك ما رواه الإمام البخاري بإسناده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها. فقال لي: أرسله، ثم قال له: اقرأ فقرأ: قال: هكذا أنزلت. ثم قال لي: اقرأ. فقرأت. فقال: هكذا أنزلت، إنَّ القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا منه ما تيسر**» (متفق عليه).

وفي هذا الحديث من الفقه أنَّ رسول الله ﷺ أقر عمر على سكوته وقد

سمع قراءة مخالفة لما تعلمه، ولم يرد على حكيم بن حزام حتى انتهى من صلاته، وأنَّ كل حرف من القرآن كان ثابتاً إلى رسول الله ﷺ قرىء به، ولا يجوز إنكاره على من قرأ به.

ومعلوم أنَّ عثمان رضي الله عنه جمع النَّاس على حرف واحد حتى لا يختلفوا في القرآن، وقد أجمع المسلمون على ذلك، وبقي الاختلاف في القراءة فيما يحتمله رسم المصحف العثماني، ونقل عن النبيِّ ﷺ تواتراً.

٦ ـ الذي له الحق في الرد على الإمام هو الذي يصلى بجواره أو الذي يليه من خلف ظهره، وأمَّا من كان في مكان بعيد عن الإمام فإنَّه لا يجوز له الفتح على الإمام وأمَّا إذا أيقن المأموم أن صوته لا يصل إلى الإمام فإنَّه يحرم عليه الفتح والرد، وقد تبطل صلاته بذلك.

٧ ـ لا يجوز أن يتولى الرد والتصحيح، والفتح على الإمام أكثر من واحد في وقت واحد لأنَّ هذا يؤدي إلى اختلاط الأصوات والتشويش على الإمام والمصلين، ويجب أن يترك الأقل حفظاً، وعلماً لمن هو أحفظ منه وأعلم.

٨ ـ لا يجوز للمرأة إذا صلت خلف الرجال أن تفتح على الإمام، ولا أن تصحح له، وهذا مما لا خلاف فيه، وذلك أنَّها منعت من التسبيح تنبيهاً للإمام لئلا يخرج صوتها في الصلاة فمن باب الفتح عليه والله تعالى أعلم...

٩ ـ لا يجوز للمأموم أن يحمل معه مصحفاً لمتابعة الإمام والتصحيح له وذلك أنَّه في صلاة، وليس في تعليم وتعلم، ثم أنَّ الحركة بحمل المصحف، وفتحه عند القراءة وإغلاقه بعد ذلك ينافي عمل الصلاة... والله أعلم.

وأمَّا ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه قال حدثنا يحيى بن آدم قال حدثنا عيسى بن طهمان قال حدثني ثابت البناني قال كان أنس يصلي وغلامه يمسك المصحف خلفه فإذا تعايا في آية فتح عليه».

فإنَّه ليس في هذا الأثر أنَّ غلام أنس كان يصلي معه.

وكان أنس بن مالك رضي الله عنه قد كبر سنه، وعمي، ولعله كان يصلي وحده في منزله فكان يفعل ذلك حتى يتابع القراءة وهو في الصلاة وهذا يخالف ما يفعله كثير من النَّاس اليوم حيث ينشرون مصاحفهم وهم وقوف في الصلاة خلف إمامهم، وهذا أشبه بفعل أهل الكتاب منه بصلاة أهل الإسلام. والله تعالى أعلم.

١٠ ـ يجب أن تكون نية من يفتح على الإمام أو يصوب خطأه أنَّه يفعل هذا إخلاصاً لله، وتعبداً له، وأمَّا إذا كان يفعله رياءاً وسمعة ليرى النَّاس أنَّه حافظ، فإنَّه بهذا يحبط أجره، وقد تبطل صلاته تبعاً لذلك.

كِتَابُ

وَاجِبُنَا نَحْوَ

تَطْبِيقِ شَرِيعَةِ ٱللَّهِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، مالك السموات والأرض، خالق كل شيء ومليكه، لا شريك له في خلقه، وملكه وحكمه، والصلاة والسلام على المبعوث بالحنيفية السمحة والشريعة الغراء وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا العدل في الأرض، ونشروا الخير في كل مكان. . .

وبعد.

غاية الخلق:

فإنَّ الله ما خلقنا إلاَّ لنعبده سبحانه، وما وضع هذه الأرض ورفع هذه السماء إلاَّ لذلك. وهو سبحانه الذي ارتضى لنا الدين، وشرع لنا المنهج والطريق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥].

شريعة الله واجبة الاتباع:

وقد ألزمنا سبحانه بطاعة رسله واتباع شرعه، وجعل هذه الطاعة هي العبادة المفروضة علينا. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المَائدة: الآية ٤٨]. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [المَائدة: الآية ٤٩].. وقال تعالى في بدء سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا

﴿وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النُّور: الآية ١] ثم شرع يُبين هذه الفراض فأثبت حكم الزنى، وقذف المحصنات، والاستئذان وإعانة كل راغب في الزواج، والأكل من بيوت الغير، والحجاب وغض البصر وغير ذلك مما حوته هذه السورة العظيمة التي سميت بسورة النور.

وكل هذا يدل على أنَّ شريعة الله جميعها واجبة الاتباع سواء منها ما يتعلق بالعبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج أو ما يتعلق بالمعاملات أو الآداب أو الحدود. ولعلَّ أهم ما يوضح هذا المعنى ما قاله الله في شأن الربا، وهو معاملة من المعاملات حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ * فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩] . فقد هدد سبحانه وتعالى بحرب منه ومن رسوله لكل من أصر على الربا، وبقي على التعامل به بعد أن صدر فيه حكم خالق السموات والأرض سبحانه وتعالى. ومعلوم أنَّ الربا معاملة من المعاملات، وليس عبادة من القربات. ولا شك أنَّ الالتزام به عبادة، أي طاعة لخالق الأرض والسماوات.

وكل هذا يدلنا أنَّ أهل الإسلام ليسوا مخيرين في أخذ شريعة الله وتركها بل هم ملزمون بذلك. بل لا إيمان أصلاً لمن كفر بها وردها وهجرها، أو انتقصها وعابها أو ذمها لأنَّها تنزيل الحكيم الحميد سبحانه وتعالى، بل إنَّ كل صادّ عنها وتارك لها كافر لا شك في كفره لما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٤] ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٥] ، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٦] .

فلا إيمان إلاَّ مع الإقرار بشريعة الله والإذعان لحكمه، ولا إسلام إلاَّ بالاستسلام لأمر الله ونهيه، والسمع والطاعة لحكمه وخبره.

الشرائع الوضعية والمطبقة ومنافاتها للإسلام:

ولا شك أنَّ الشرائع الوضعية المطبقة في بلاد المسلمين اليوم يجب تغييرها وإحلال شريعة الله المطهرة مكانها، وكل مقصر في ذلك فهو مسؤول محاسب أمام الله سبحانه وتعالى عن ذلك.

ولا شك أيضاً أنَّ معظم هذه التشريعات الوضعية مخالفة لشريعة الله، وخاصة في مسائل الحلال والحرام والمعاملات المالية، والسياسية، والاجتماعية، والحدود والعقوبات.

ولا شك أنَّ أهم هذه المخالفات هو أن هذه الأحكام الوضعية والشرائع البشرية لم توضع ليكون هدف النَّاس وغايتهم هو عبادة ربهم والخضوع لمشيئته سبحانه والاستسلام لأمره ونهيه، وذلك أنَّها انبثقت ابتداء من عقيدة باطلة لا تؤمن بخالق للكون وبدء له ومدبر له، بل خرجت من كفار بالبعث والنشور جاحدين لخالق السموات والأرض، ممن يعيشون لدنياهم فقط، ولا يؤمنون بحياة بعد الموت وأمَّا شريعة الله فإنَّها جاءت من عنده، وغايتها في النهاية إقامة عبادته سبحانه وتعالى في الأرض والخضوع لمشيئته والاستسلام لأمره.

وهذا هو الفارق الأساسي بين شريعة الله وشرائع البشر، فشريعة الله من عنده، ولا يرضى سبحانه وتعالى لأحد أن يتقول عليه، أو يشرع لنفسه دون الرجوع إليه، وما الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلاَّ ناطق بأمره، صادر عن حكمه، منفذ لمشيئته، مطيع لشريعته، وما المجتهدون والخلفاء بعده إلاَّ موقعون عنه يجتهدون في سبيل الوصول إلى حكمه، راجعون في كل اجتهاد ورأي إلى كلامه سبحانه، وكلام رسوله ﷺ. وأمَّا شرائع البشر الوضعية فهم يأخذونها من أغلبيتهم التي قد تتظاهر على الهوى والعصبية، وتصدر عن جهل، وتحكم عن تحكم، أو من ملوكهم والمتسلطين عليهم الذين جعلوا من أنفسهم آلهة وأرباباً يشرعون للعباد ويعتدون على حق رب العباد سبحانه وتعالى كما قال فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: الآية ٢٩] علماً أنَّ حكم فرعون لم يكن إلاَّ استبداداً وتسخيراً للشعب في

عبادته وصرفاً للنَّاس عن عبادة ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القَصص: الآية ٤] .

وهكذا كان منطق الطغاة دائماً. يفسدون في الأرض، ويزعمون الصلاح والإصلاح.

باختصار... المسلم المؤمن هو الملتزم بشريعة الله والكافر هو الذي يرد شريعة الله سبحانه وتعالى.

واجبنا نحو شريعة الله:

بعد هذا البيان الموجز نجمل واجب كل مسلم نحو شريعة ربه فيما يلي:

١ ـ وجوب الإيمان بأنَّ الدين الحق هو طاعة شريعة الله والإذعان لأمره سبحانه وتعالى. وأنَّ من لم يفعل ذلك فهو كافر لا تنفعه صلاة أو صوم أو حج أو عبادة.

٢ ـ وجوب العمل لإحلال شريعة الله محل شريعة الكفر وذلك من كل مسلم بحسب قدرته واستطاعته فعلى الإمام من ذلك ما ليس على عامة النَّاس، وعلى أهل العلم ما ليس على الجاهل، وعلى أهل التمكين ما ليس على المستضعفين. وإن كان كل أحد مسؤولاً كما قال ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**» (أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر).

٣ ـ عدم الرضا بأي قانون أو تشريع يخالف شريعة الله فكل من رضي أو قدم مختاراً تشريعاً يخالف ما أنزله الله فقد كفر بالله ولو كان هذا في شيء يسير كما قال سبحانه وتعالى في شأن من رأى جواز الأكل مما يُذبح ولم يذكر اسم الله عليه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢١] . وقد أجمعت الأمة أن من ساوى بين تشريع الله وتشريع غيره فهو كافر

وكذلك من قدم تشريع غير الله سبحانه وتعالى. ولا يجوز لأحد طاعة تشريع غير الله إلاَّ مجبراً مكرهاً.

٤ ـ الدعوة إلى الله بكل سبيل. وبيان الحق وعدم كتمانه حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السلفى.

كل ذلك نُذكر به إخواننا المسلمين ليهبوا لنصرة شريعة ربهم، والحياة في ظل أحكام قرآنهم وسُّنة نبيهم، بدلاً من العيش في ظل الأنظمة الجاهلية التي وضعها الكفار لهم.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨]

كتاب

الهجوم على الإسلام

مِنْ مَنْ ؟ ولماذا ؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم:

الحمد لله مالك الملك، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، إنَّه على كل شيء قدير.

والصلاة والسلام على البشير النذير، نبي المرحمة والملحمة، المبعوث رحمة للعالمين، ونذيراً للبشر أجمعين، والمقيم لخير أمة أخرجت للنَّاس في الأولين والآخرين.

وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد. . .

مدخل:

ففي الوقت الذي بدأ المسلمون فيه طريق العودة إلى دينهم، والتمسك بعقيدتهم، والعمل للعيش في ظل كتاب ربهم، وسنة نبيهم، في هذا الوقت اشتدت الحملة ضد الإسلام والمسلمين من داخل العالم الإسلامي، ومن خارجه للحيلولة بين المسلمين وما يريدون، ولقطع الطريق على أبناء الأمة، أن يعيشوا كما يحبون مسلمين مؤمنين أعزة في أوطانهم وديارهم.

وحتى يكون شباب الأمة الإسلامية على علم بأبعاد المؤامرة على دينهم وعقيدتهم، عليهم أن يعرفوا طريق الخلاص من هذه المؤامرة وكيف يواجهونها وكيف ستكون العاقبة إن شاء الله تعالى ومن أجل ذلك أحببنا أن نكتب هذا التعريف.

لماذا الهجوم على الإسلام الآن؟

ما كادت تسقط آخر خلافة إسلامية، وتقسم أراضي الإسلام بين الدول الصليبية الكافرة، حتى انطلقت الألسن من كل اتجاه قائلة إنَّ سبب ضعف المسلمين يكمن في الإسلام الذي أقعدهم عن طلب العلم والنهضة، وكبلهم في التخلف والجهل، وتحت هذه المقالات الفاجرة نشأت الحكومات التي استبدلت شريعة الله بشرائع الكفار، ونظام التعليم الإسلامي بنظام التعليم الغربي، وبدأت أجهزة الإعلام تغرس عقائد القومية، واللادينية (الإلحاد) (انظر: كتابنا (الإلحاد))، والوطنية الإقليمية مكان العقيدة الإسلامية. . . ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى اكتشف المسلمون أنفسهم زيف هذه الدعاوى. فقد تحطمت دعوة القومية وصارت هباءً منثوراً بعد أول مواجهة مع اليهود، وخلفت أحقاداً يتعذر تجاوزها، وتحولت دعوة الوطنية الإقليمية إلى مسخ مشوه بعد التحقق أنَّ أية دولة من الدول العربية الإسلامية لا يمكن لها أن تعيش وتبقى وحدها. وانتهى الإلحاد بنهاية بائسة حيث بدأ أهله يبحثون في الفلسفات القديمة والأديان الخرافية عن ملجأ لهم من اللهيب والظلمة والكفر والضياع الذي خلفته المادية الإلحادية، واكتشف المسلمون أخيراً أنهم دون عقيدتهم وإسلامهم قطيع تائه، بل قطعان تائهة، وأنَّه لا حياة لهم ولا عز ولا نصر إلاَّ بالدين الذي أعزهم الله به، وانتصروا في ظلاله وتحت لوائه على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمان.

وابتدأت طلائع الشباب المثقفين والمتعلمين منهم خاصة تعود إلى الدين، وتشق طريقها في الحياة وفق تعاليمه وتحت ظلاله، وهنا جن جنون أعداء الله الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل سلخ هذه الأمة عن دينها، فكيف تكون النهاية هكذا؟ كيف ينقلب النَّاس إلى الإسلام من جديد وقد ظنوا أنَّ المسلمين قد فارقوا الإسلام إلى الأبد، وأنَّه لا عودة لهذا الدين من جديد وأن قضيته لن يكون لها وجود، وأنَّ دولته لن تعقد لها راية، ولن يرفع لها لواء. . وهنا تنادى أعداء الله في شرق الأرض وغربها أن أغدوا لشن الغارة

من جديد على الإسلام وأهله وحُولُوا بين أبنائه والعودة إليه.

من الذي يحارب الإسلام الآن؟

والذين يحملون اليوم لواء الحرب للإسلام أصناف عديدة جداً، رغم تباينهم واختلافهم في أنفسهم إلاَّ أنَّهم اجتمعوا حول هذا الهدف المشترك والغاية الواحدة وأهم هذه الأصناف اليوم ما يلي:

١ ـ الشيوعيون وأشياعهم وفروخهم:

وذلك أنَّ العقيدة الشيوعية تقوم أساساً على جحد الأديان والكفر برسالات السماء. بل الكفر بكل الغيب، وجعل الحياة الدنيا هي الغاية ونهاية المطاف، وتسليم الحكم لسلطة الحزب، وجعل إلٰه الآلهة، ومُشرع القوانين، ومرجع كل خلاف هو كارل ماركس ولينين، اللذان قالا في زعم الشيوعيين الكلمة الأخيرة في كل شيء، في الاقتصاد والحياة، والأخلاق والفن والأديان والحكم والسياسة، والتاريخ والماضي والمستقبل والطبيعة، وما وراء الطبيعة... إلخ. فجعلوا إلههم المطاع وسيدهم غير المنازع الذي أحاط علماً بكل شيء وعرف كل ما في الكون هو اليهودي الحاقد كارل ماركس والشيوعي الحاقد لينين... والبشر بعد ذلك ما هم إلاَّ أتباع مقلدون لا يجوز لهم نقد هذين الإلهين ولا تجاوز شيء مما قالوه.

ولمَّا كانت النصرانية هي دين الغالبية العظمى في أوروبا وأمريكا قد أفلست وباعت كنائسها، أو أبقتها للذكرى والتاريخ، وكانت اليهودية، ديناً منغلقاً وقفاً على أولاد إسرائيل فقط وليست ديناً للتبشير والدعوة.. وكانت الأديان الوثنية الأخرى أدياناً للاستهلاك المحلي، وللتسلية واللعب، ومن أجل ذلك لم يبقَ أمام الشيوعية من عقيدة تستطيع أن تنافحها بل أن تهزمها وفي عقر دارها في روسيا غير الإسلام العقيدة العلمية النقية الخالصة، التي جاءت بثورة على كل ظلم وفساد وجهل، وخرافة، وشرك وجحود ونكران... من

أجل ذلك صب الشيوعيون في كل مكان جام غضبهم على هذه العقيدة وأهلها وابتدأوا حربها بكل سبيل، فها هي عساكرهم تغزو أفغانستان لتحطيم عقيدة أهله، والحيلولة دون قيام حكم إسلامي ينشر الإسلام في آسيا، ويخلص مسلمي روسيا من بطش وظلم الشيوعيين الكفرة وهؤلاء الشيوعيون الذين غرروا بالشعوب الإسلامية هناك عندما قاموا بثورتهم الشيوعية وقام المسلمون معهم تخلصاً من ظلم القياصرة فكان جزاؤهم بعد ذلك القتل والإبادة، وتحريم الإسلام عليهم وقطع الصلة بينهم وبين الإسلام، فلا مسجد يرفع فيه آذان، ولا مصحف يسمح بتداوله وطبعه. وها هي روسيا تنقلب ضد الشعب الأريتري المسلم وتحارب ثورته وتمد أعداءه، وها هي تسرق ثورة الشعب المسلم في جنوب الفلبين وتصنع العملاء لها في الوطن الإسلامي، هؤلاء العملاء الذين ما أن يتسلموا حكم دولة من دولة إلاَّ ويعيثوا في الأرض فساداً من أول يوم بل من أول ساعة، ففي السودان ما إن تسلم عميل لهم الحكم حتى بدأ يقتل من يعرف الصلاة من الضباط، وحتى خرجت مظاهراتهم لتقول: لا إسلام بعد اليوم... وفي مصر ما إن تحول عميل من الأمريكان إليهم، حتى زرعوا أرض مصر بالفساد فاستعار نحواً من خمسين ألف داعية روسي للإلحاد تحت مسمى الخبراء، وابتدأ قتل المسلمين وتعذيبهم وتشريدهم وتشتيت شملهم، وابتدأ تطبيق اشتراكيتهم الفاسدة، التي أفسدت البلاد والعباد، وفي أندونيسيا ما إن تسلم بعض العملاء دفة الحكم حتى قتلوا كل ضابط يصلي وألقوهم جميع في بئر واحد وفتحوا المجاري عليهم وذلك بعد ساعات فقط من قيام انقلابهم المشؤوم... وشرح هذا يطول، وهؤلاء هم عملاؤهم الذين لم يتسلموا سلطة والذين يسمون أنفسهم بالشيوعيين تارة واليساريين أخرى، والديمقراطيين ثالثة، لا عمل لهم إلاَّ حرب الإسلام، ولا هدف لهم إلاَّ محاولة القضاء عليه، وها هي أيديهم لا تكون إلاَّ مع أعداء الإسلام، يزعمون محاربة أمريكا وهم وإياها جبهة واحدة الدين، ويرفعون شعار الديمقراطية وهم أعدى أعداء حرية الرأي والكلمة، وينادون بالوطنية وهم دائماً مع روسيا ضد مصالح أوطانهم، ويرفعون شعار القومية وهم دائماً

مع أعداء قوميتهم وخاصة العرب منهم، هؤلاء هم العدو الأول للمسلمين في بلاد الإسلام.

٢ ـ اليهود وأذنابهم:

زرع اليهود أنفسهم في أرض فلسطين بعد غياب عن هذه الأرض لنحو من ثلاثة آلاف سنة، وقد علموا علم اليقين أنَّه لا بقاء لهم إلاَّ مع فرقة العالم الإسلامي، وضياعه وشتاته، فهم لم يستطيعوا أبداً إنشاء وطن لهم في فلسطين عندما كان المسلمون أمة واحدة أو شبه واحدة، ولكن لما تفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً وأوطاناً وزالت خلافتهم الإسلامية، ووقعوا تحت حكم الكفار من الإنجليز والفرنسيين استطاع اليهود إنشاء وطنهم في فلسطين.

واليهود اليوم يعلمون علماً لا يتطرق إليه شك أنَّه في الوقت الذي تقوم بأرض الإسلام دولة قوية، ووحدة بين أوطانه فإنَّه لا بقاء لهم، ولذلك فهم يعملون بكل ما أوتوا من قوة لتشتيت هذه الأمة وضياعها، وإبقاء دولها فقيرة عاجزة مكبلة بالديون والفقر والتخلف، مرتبطة مرهونة بالاستعمار الشرقي والغربي، ويعلم اليهود بل كل عدو للمسلمين أن سر قوة المسلمين إنَّما هو عقيدتهم وإسلامهم فهو الذي يستطيع أن يجمع شتاتهم، ويوحد دولهم، ويبعث العزة والحمية في نفوسهم، ويؤجج العداوة الدائمة لهم، وذلك لما في القرآن والسنة من لعنهم وسبهم وعداوتهم، وبما في التاريخ الإسلامي من التعريف بغدرهم ومكرهم ودهائهم... ومن أجل ذلك كله يعادي اليهود الإسلام والمسلمين. ولما كان إظهارهم لهذه العداوة، قد ينقلب عليهم بنتائج عكسية حين يتحمس المسلمون لدينهم، فإنَّ اليهود قد فضلوا أن يحاربوا الإسلام عن طريق عملاء لهم من أبناء المسلمين أنفسهم.

ولذلك عملوا في كل التاريخ على تكوين ما اصطلح على تسميته بالفرق الباطنية التي ترجع في معظمها إلى مؤسسين من اليهود نشروا الفكرة وتركوها تنمو في أوساط المسلمين، وهم أيضاً الذين نشروا العقيدة الشيوعية أول ما

جاءت إلى البلاد العربية ثم تركوها تنمو في أوساط المسلمين، وهم اليوم وراء تشجيع كل نحلة وطائفة وفرقة يمكن أن تمزق الجسد الإسلامي، ولهذا فهم اليوم وراء الباطنيين والدروز والأحزاب الشيوعية، والطوائف على اختلاف أنواعها، وهم اليوم خلف كل دعوات التحلل من الإسلام والميوعة عن طريق منظماتهم العالمية السرية والعلنية كالماسونية والأندية المختلفة، وهم اليوم وراء ترويج الفواحش والمخدرات، والتعري، وكل ما يمكن أن يسلخ المسلم عن دينه وهم اليوم وراء تشجيع المنظمات النسائية اللادينية، وثورات العمال والشباب، وقد استطاع اليهود الدخول إلى كل ذلك عن طريق المنظمات الرهيبة التابعة لهم والتي أسسوها على مدى ثلاثة آلاف سنة، وعن طريق أجهزة الإعلام التي امتلكوا أكثرها وعن طريق أماكن الثقافة والفكر المتخصصة وخاصة في البيوت الاستشارية وعن طريق أساتذة الجامعات في أمريكا وأوروبا.

إنَّ نصيحة واحدة من بيت من هذه البيوت لحاكم واحد من حكام المسلمين تقول له: احذر الجماعات الإسلامية الفلانية لأنَّ فيها خطراً على حكمك وسلطانك، هذه النصيحة التي قد لا تتعدى بضع ورقات من بيت من البيوت الاستشارية التابعة لليهود كافية لأن ينظم هذا الحاكم حملة شعواء لحرب الإسلام في بلده، وأنها يجب أن تكون بكذا وكذا وكذا.. إلخ. وإنَّ مقالاً واحداً يكتب في صحيفة سيارة كالتايم، والنيوزويك والتايمز... يطبع منه عدة ملايين بشتى اللغات يحذر فيه كاتب المقال حكومة ما من خطر إسلامي، كاف جداً لتجنيد كل إمكانيات هذا البلد لحرب الإسلام بل إنَّ الحملة الشعواء الآن التي يشترك فيها العالم أجمع تقريباً ضد الإسلام على امتداد الكرة الأرضية قد كانت بفعل بعض المقالات المتناثرة في عدد من هذه الصحف السيارة التي باتت تحذر من الخطر الإسلامي المرتقب وهكذا استطاع اليهود رغم قلتهم العددية أن يكون لهم أبلغ الأثر في حرب الإسلام، وذلك بالرغم من عدم ظهورهم العلني السافر.

٣ ـ أمريكا وعملاؤها وأذنابها:

أمريكا مارد عملاق وأخطبوط بألف ذراع قد تمكن اليهود من عقله وتغلغلوا في أحشائه ومصوا دماءه لصالحهم، وركبوا هذا الثور المجنون وجعلون ينطح من أجل مصالحهم وإن حطم أنفه وجبهته، ما دام أنَّه ينطح أعداء اليهود، ويقتل أعداء اليهود، وقد استخدم اليهود مقدرات أمريكا في صالحهم دائماً، فالأموال الأمريكية هي التي تحمي الاقتصاد اليهودي، وتمده، والسلاح الأميركي هو الذي يحمي الصهاينة، والسياسة الأمريكية هي التي تفرض حمايتها لليهود، وفي مقابل ذلك يبيع اليهود للأمريكيين الوهم بأنَّهم حراس مصالحهم في العالم الإسلامي وأنَّهم السد الذي يمنع عنهم الشيوعية التي يخافونها، وتبيعهم أسرار الدول العربية المستباحة، ويسهلون لهم الوصول إلى ثروات العالم الإسلامي المنهوبة بما لليهود من خبرة في السمسرة والتضليل وإفساد الذمم والرشاوى. هذا ما يبيعه اليهود لأمريكا في مقابل مص دمائهم، والركوب فوق ظهورهم وتسخيرهم في مصالحهم، ومن أعظم ما يستخدم فيه اليهود أمريكا هو ضرب الإسلام ومحاربته والتضييق عليه.

فأمريكا هي التي توعز إلى عملائها في العالم الإسلامي بضرب الإسلام، والخروج منه إلى حريتهم الزائفة، وأمريكا هي التي لا تفتأ تحذر عملاءها ممن تسميهم المتطرفين المسلمين، وهي التي تقدم نصائحها لأذنابها. بل إنَّ أمريكا هذه القوة العمياء هي التي تمول كثيراً من الأحزاب الشيوعية في العام الإسلامي وذلك بهدف ضرب الإسلام، وذلك أنَّها تعتقد أن ديمقراطية الغرب لا تستطيع أن تقف أمام المد الإسلامي ولذلك تستعين بالعقيدة الشيوعية والعملاء الشيوعيين لضرب الإسلام والمسلمين. وهكذا تظل أمريكا حصاناً مزدوجاً يركبه اليهود ويركبون عليه أيضاً عملاؤهم وأفراخهم، فبالأموال الأمريكية يحارب اليهود الإسلام وينشرون الشيوعية ويمكنون اليهود في بلاد المسلمين.

وهكذا يعمل لأمريكا في بلاد المسلمين خليط عجيب متناقض شكلاً ولكنه يتفق هدفاً ومضموناً. فمن يساري متشدق بالشيوعية، إلى منحل لا ديني، إلى امرأة حاقدة على كل استقامة وعفة، إلى حاكم جبان رعديد عدو لأمته ودينه، كل هؤلاء يجتمعون لحرب الإسلام والنيل منه. وهم أشتات وأخلاط ومذاهب.

٤ ـ أهل المصالح التافهة والرغبات الصغيرة:

الصنف الرابع من الأصناف التي تحارب الإسلام من أبناء الإسلام هو كل جاهل غبي يجهل تاريخ أمته ودينه، ممن يقدم مصالحه الصغيرة التافهة على مصلحة أمته... فقد يرى في الإسلام مانعاً لكسبه للمال عن طريق الربا والحرام، ولاستمتاعه بالزنا والفجور، ولرياسته وتسلطه، ولشهواته، وأهوائه، من أجل ذلك يرى في الإسلام عدواً وحاجزاً أمام شهواته.

ومن هذا الصنف أيضاً أُناس عميت أبصارهم، ونقل لهم الإسلام مشوهاً ممسوخاً فظنوه فقط سيفاً يقطع الأيدي والرقاب، وسوطاً يجلد الظهور، أو ظنوه ركوناً إلى الجهل والتخلف، قعوداً عن العلم والعمل، أو حسبوا الإسلام طريقاً إلى الفرقة والشتات، وسبيلاً إلى الخراب وسفك الدماء.

ومما ساعد على وجود هذا الصنف الجاهل وجود بعض النماذج الإسلامية الجاهلة، والحاقدة التي ضربت للإسلام أبشع الأمثلة وصورته بأقبح الصور، ولما كان هذا الصنف الجاهل يجهل حقيقة الإسلام، وتاريخه فإنَّه ظن أنَّ الإسلام هو هذا الذي يراه من هذه النماذج الهشة، والحاقدة، والجاهلة.

وهذا الصنف الرابع هو أكثر الأصناف اليوم وجوداً، وهم ليسوا بالضرورة عملاء مباشرين للشيوعيين، أو اليهود أو الأمريكيين في حربهم للإسلام، بل كثيراً ما تكون منطلقاتهم في حرب الدين منطلقات خاصة،

وتحركات فردية وقناعات ذاتية، ولكنهم بالضرورة أيضاً دُمى يحركها أعداء الإسلام، وقنابل موقوتة يفجرونها وقتما يشاؤون، وثيران تنطح بمجرد التحدي أو التحريض.

ولا شك أنَّ من هذا الصنف أيضاً منافقون حاقدون يحاربون الإسلام كراهية وبغضاً، وعن علم أكيد بأنَّه دين الحق وسبيل العز والنصر، ولكنهم كما قال الله في أسلافهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨].

المستقبل للإسلام:

بالرغم من كل ما قدمنا عن أعداء الدين المحدثين وحملتهم الجديدة عليه، إلاَّ أن سعيهم إلى ضلال وتدبيرهم إلى تباب، والعاقبة للمتقين، والنصر للموحدين. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: الآية ٥١].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفَتْح: الآية ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفَال: الآية ٥٩].

وإذا كانت هذه آيات عامة تبشر دائماً بنصر الدين، وعساكر الموحدين فإنَّ السُّنة الشريفة جاءت بالأخبار التفصيلية بأنَّ الإسلام باقٍ إلى آخر الدنيا، وأنَّه لا تزال طائفة من أمة رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ قائمة بأمر الله إلى أن يقاتل أخرهم الدجال. وأنَّه لو اجتمع كل من في الأرض جميعاً على أهل الإسلام ما كان لهم أن يستأصلوا شأفة المسلمين ويستبيحوا بيضتهم، وأن كسرى وقيصر ستنفق كنوزهما في سبيل الله، وأنَّه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وأنَّ مدينة هرقل «القسطنطينية» تفتح قبل «روما» وأن اليهود يقتلون آخر الزمان بأيدي المسلمين حتى إنَّ الشجر والحجر لينادي المسلم قائلاً: «يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي ورائي فاقتله»!!.

وأن عيسى ابـن مريم ينزل في دمشق على عساكر المسلمين وقد صفت للصلاة، وإمام المسلمين منهم، ويصلي عيسى ابـن مريم وراءه تكرمة الله لهذه الأمة، وأنَّ الدجال الذي يدعي الألوهية والربوبية في آخر الزمان لا يتصدى له في الأرض إلاَّ أهل الإسلام، وأنَّه يُقتل بحربة عيسى ابـن مريم، وأنَّ عيسى ابـن مريم ينزل ليحكم بشريعة القرآن فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، وينادي بصلاة أهل الإسلام، ويعبد الله على منهج محمد بـن عبدالله، ولا شك أن خبر الرسول ﷺ كله صدق فما أخبر عن شيء مما مضى وكان كذباً، وما أخبر عن شيء مما يجيء إلاَّ وجاء كما أخبر به، ألم يخبر بهلاك كسرى وقيصر وإنفاق كنوزهما في سبيل الله وقد كان.. مما كان يُعد حُلماً بعيد المنال.

ألم يخبرنا بفتح القسطنطينية؟ وقد كان هذا عند المكذبين ضرباً من خيال وقد كان الأمر كما أخبر؟ والله ليقعن الأمر كما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، وقد بدأت بحمد الله تباشير ذلك.

أ ـ فهذه الصحوة الدينية في كل مكان، وهذا التوجه نحو الإسلام في كل صوب بداية الغيث وأول العودة، ولعلَّ أبرز ما في هذه العودة إلى الإسلام من العبر والعظات، أنَّ المتعلمين والمثقفين هم أول النَّاس مُسارعة إلى الرجوع للدين، مما يدلك على أنَّ العودة عودة علمية سليمة، وأنَّها ليست عودة للجاهلية، ولا تقليداً للآباء والسابقين.

ب ـ وهذه حضارة الغرب والشرق يظهر إفلاسها وخرابها، وضنك أهلها، وشقاؤهم بها، لقد عزلوا أنفسهم عن إلههم ومولاهم وخالقهم ـ ظنوا ـ فكانت النتيجة الحتمية جرياً وراء السراب وضياعاً للهدف والغاية، وظلمة النفوس والقلوب، وفراغاً يملأ الحياة، وتفريغاً للحياة من كل معنى شريف، وبل من كل معنى أصلاً.

جـ ـ وهذه إرهاصات بزوغ شمس الإسلام نراها كل يوم رأى العين، ويعلمها البصير بتاريخ الأمم والشعوب، فقد يسر الله من الأحداث ما تخلصت

به الأمة من أعظم طواغيتها، وأشد عُتاتها، بل ها هي الطواغيت تسقط طاغوتاً إثر طاغوت، وهذه البقية تعيش ما بقي لها من عُمر خائفة مذعورة يحيط بها الحراس من كل جانب، ولا ترى نور الشمس إلاَّ تحت الحراب والمدافع والدبابات، بل تعيش ملعونة مرجومة، بل مفضوحة مكشوفة... وها هي دعوات الباطل التي جرى النَّاس وراءها يوماً ما تنكشف للجميع على أنَّها سراب خادع، وبريق زائل... ها هي دعوات القومية، والاشتراكية، والانفتاحية، والحرية، وادعاء الرقي الكاذب، والإقليمية، يظهر للجميع خواؤها وتفاهتها.. وهذا هو نور الإسلام يشع من جديد تراه كل يوم في هذه الوجوه المضيئة من شبابنا المؤمن وفتياتنا المؤمنات.

د ـ وها هي أحداث العالم، ومجريات الأمور يوجهها خالق السماوات والأرض، ومن بيده الملك كله، ومن يقلب الليل والنهار، لتخرج من جديد خير أمة أخرجة للناس بلباس جديد، وتاريخ جديد.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ❁ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧].

أليست كل هذه إرهاصات لقيام أمة الإسلام من جديد؟

بلى والله إنَّها لكذلك!! واسألوا السيرة والتاريخ؟.

كتاب

تعريف بالدعوة السلفية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدعوة السلفية هي دعوة الكتاب والسُّنَّة، والدين الصحيح والإسلام النقي، وهي اتباع سبيل المؤمنين من السلف الصالح وهم أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين والسلفيون في كل عصر هم الفئة الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» (أخرجه مسلم عن ثوبان).

لماذا كانت هذه التسمية:

هذه التسمية اختصار لتعريف مطول فالقول بأن فلاناً سلفي يعني أنَّه ليس خارجياً مستحلاً دم المسلم بالمعصية، وليس رافضياً ممن يكفر الصحابة، وليس محرفاً متأولاً بالباطل ممن ينفي صفات الله ويحرف معانيها، وليس مشبهاً لله بخلقه وليس قبورياً ممن يعبد القبور يقدم لها النذور، وليس مقلداً متعصباً ممن يلتزم قول إمام بعينه ولو علم أنَّه يخالف الآية والحديث... فكلمة السلفي هي تعريف مختصر مختصر كل الاحترازات السابقة.

وليست السلفية بعد ذلك نسبة إلى إمام بعينه أو شيخ خاص، وإنَّما هي المنهج والطريق الذي سار فيه الصحابة والخلفاء الراشدون.

والأئمة المرضي عنهم والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الأصول العلمية للدعوة السلفية:

تقوم الدعوة السلفية على ثلاثة أصول علمية أساسية: هي التوحيد، والاتباع والتزكية.

فالتوحيد هو عماد الدين وهو الذي من أجله بعث الله رسله إلى العالمين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦].

وهو يعني عبادة الله وحده لا شريك له، بكل أنواع العبادة التي شرعها الظاهرة كالصلاة والصوم والحج، والنذر والذبح، والطواف ومفردات ذلك، والباطنة كالخوف والرجاء، والحب والتوكل والإنابة... إلخ.

وأما الاتباع فهو إفراد الرسول ﷺ وحده بالمتابعة فلا تشريع إلاَّ بما جاء به، ولا دين إلاَّ ما قرره وأقره، وهذا معناه أنَّ كل فرد بعده ﷺ يؤخذ من قوله ويرد عليه إلاَّ هو ﷺ.

وأمَّا التزكية فهي إصلاح النفس وفق المنهج الرباني ولا يكون ذلك إلاَّ بأداء الفرائض، ثم الإكثار من النوافل والتزام طاعة الله ورسوله في لك، فلا عبادة إلاَّ بما شرع الله، ولا تقرب إلاَّ بما رسم رسول الله ﷺ.

أهداف الدعوة السلفية:

للدعوة السلفية المعاصرة أهداف عظيمة في الحياة أهمها:

١ ـ توحيد المسلمين تحت عقيدة واحدة. ومنهج تشريعي واحد وذلك حتى يسهل إقامة الأمة الواحدة التي تنضوي تحت علم واحد وإمام واحد.

٢ ـ بناء المسلم الطيب الزكي النفس الموحد البعيد عن الشرك والتعصب والخرافة والجهل.

٣ ـ تنقية المجتمع الإسلامي من الشرك والبدع والخرافات والخلاعة والمجنون، وذلك بإيجاد (المحضن) النظيف الذي يصلح لتربية أجيال المسلمين.

٤ ـ محاربة الانحلال والأفكار الدخيلة التي اجتاحت شباب الإسلام وخاصة أفكار الملاحدة والشيوعيين والزنادقة.

٥ ـ تخليص العالم الإسلامي من أعداء الإسلام الذين غزوا دياره، ومزقوا شمله، وفرقوا أوطانه لتقوم المسلمين أمتهم ودولتهم العزيزة.

أهم قواعد المنهج السلفي:

١ ـ الالتزام بالكتاب والسُّنَّة مصدراً للتشريع ومرجعاً عند كل خلاف، وتطبيقاً في الحياة، والحكم بهما على كل قول، وعدم تقديم أي قول يخالفهما مهما كان قائل هذا القول.

٢ ـ جعل توحيد الله هو الأساس والمنطلق والخاتمة والنهاية... والتوحيد يعني إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله بغير تحريف ولا تمثيل، وعبادة الله وحده لا شريك له، وتطبيق شرعه في الأرض وفي كل شأن من شؤون حياتنا.

٣ ـ التمسك بوحدة الأمة وعدم السماح بتمزيقها وتفريقها في مناهج عقائدية، أو مذاهب فقهية أو عصبيات حزبية.

٤ ـ التفريق الدائم بين الحق والباطل والشرك والتوحيد، والسُّنَّة والبدعة، والنصح الدائم لله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم كما قال رسول الله ﷺ.

كتاب

كلمات من القلب

إلى أختي المسلمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، محمد وآله وصحبه الطيبين.

وبعد،،،

أختي المسلمة في كل مكان:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته:

اعلمي أيتها الأخت الطيبة أنَّك شقيقة الرجل وشطر بني الإنسان فأنت أم، وزوجة وبنت وأخت، وعمة وخالة وحفيدة وجدة... ورسول الإسلام يقول: «**إنما النساء شقائق الرجال**» (أخرجه أبو داود والترمذي عن عائشة)، ثم وأنت أيتها الأخت المسلمة تنتمين إلى دين عظيم هو الإسلام، وإلى أمة جليلة لا توجد في الأرض أمة أنجبت أكثر منها قادة ورجالاً وعظماء وفاتحين، وقبل هذا هي أمة الهداية والدين القويم التي جعلها الله خير أمة أخرجت للنَّاس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقود البشريَّة إلى الخير والعدل، وتخرج النَّاس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولا شكَّ أن أسلافك من النساء في هذه الأمة كن من أعظم الأسباب في تبوّء هذه الأمة مكانتها القديمة، واعلمي أيتها الأخت المسلمة أنَّ الله الذي أكرمها بهذا الدين قد جعل للمرأة مكاناً في التكليف والتشريف، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بإعلاء كلمة الدين، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ٧١] .

وقد شرع الله لك من الأحكام وأعطاك من الخصائص والمميزات ما يليق بك ويناسب فطرتك، والله هو الإلٰه العليم بما خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المُلك: الآية ١٤] .

* أختاه المسلمة:

أنت مدعوة اليوم لصدق الانتماء إلى أمة الإسلام، والجهاد لإعلاء كلمة الله، وتطبيق شريعة القرآن، والبذل والتضحية لبناء جيل الإيمان.

ماذا يريد أعداؤك منك:

ولكن هناك أيتها الأخت المسلمة من يريد أن يصرفك عن واجبك المجيد، وأن يحولك عن مهمتك الشريفة في خدمة الدين، وإعلاء كلمة الله، وقد اتخذ هؤلاء الأعداء لك وللدين طرقاً خبيثة أردنا تبصيرك بها وأهمها ما يلي:

* **أولا:** صرفك عما خلقت من أجله وهيأك الله له من العبادة والإيمان والدعوة والجهاد، بإغرائك بالدنيا فقط وزخارفها الفانية، فمعارض للحلي والمجوهرات تلو معارض، وموديلات ونماذج للباس تصمم في بلاد الكفر تلو نماذج، وصرعات لا تنتهي، وشهوات تؤجج، وبطون لا تشبع ورياش وزينة، وتنافس، وزخارف لا تنتهي وكأنا لم نخلق إلاَّ لهذه التفاهات. . . وكل ذلك مع دعوة إلى التبذير وهدر الأموال، وقتل للأوقات، وإثارة لنيران الحسد والبغضاء بين الأغنياء والفقراء، وإشعال للتباهي المجنون بهذا البهرج الكاذب.

* **ثانياً**: إشعال نار العداوة والبغضاء بينك وبين الرجل، فأنت عند هؤلاء الغشاشين بنتاً مكبوتة!! وزوجة مظلومةً، وأماً مهدورة الكرامة، وأختاً مهيضة الجناح..، والرجل في زعمهم ـ كل الرجال ظلمة ومنافقون، وطغاة ومتسلطون ومانعون لحقوقك، وسالبون لحريتك..، معركة مفتعلة ومصطنعة يفتعلها هؤلاء الشياطين لا لشيء إلاَّ لتتمردي على الأب، وتتكبري على الأخ، وتخرجي من عصمة الزوج، إنَّ هؤلاء لا يدعون إلى عدل وتراحم، وتآلف، ولكن إلى تمرد، واستخفاف وهدم.

* **ثالثاً**: لم يكتفِ هؤلاء الغشاشين بتحريضك على الأب والزوج والأخ بل تعدى ذلك إلى التحريض على شريعة الإسلام، وأحكام الملك الديان، فالإسلام عند هؤلاء ظالم، والشريعة الإسلامية عندهم ناقصة وهم يحرضونك صباح مساء على التفصي والخروج من هذه الشريعة. وبذلك يحاولون سلبك الإيمان كما يحاولون سلبك الهناءة والراحة في ظلال الأبوّة الكريمة والزوجية الهانئة، والأخوة الطيبة. إنَّ هؤلاء يصورون لك أنَّ التقوى والعفاف قيود على الحرية والانطلاق، والحجاب الشرعي النظيف حجاب في زعمهم للعقل، والصلاة والصيام والزكاة ـ في زعمهم ـ عبث وإضاعة للعمر، وطاعة الزوج ـ في زعمهم ـ إذلال، لقد قلبوا كل المفاهيم، وغيروا كلى الحقائق.

* وبعد أختي المسلمة:

إنَّ الأهداف التي يرمي إليها أعداؤك وأعداء الدين معلومة معروفة، إنَّهم يريدون أن تكوني دائماً في متناول أيديهم الآثمة في كل مكان وفي كل وقت لينالوك بالحرام. يريدون منك أن تكوني خليلة بلا حقوق ولا احترام، يجدونك في المكتب والطرقات، وأماكن اللهو والفساد، عارية من كل خلق ودين وشرف وأخلاق، يريدونك بلا مهر، ولا عقد، ولا شريعة، إلاَّ شريعة أهوائهم وشهواتهم الدنيئة... تماماً كما فعل أسلافهم من الملاحدة والمشركين في بلاد الغرب حيث المرأة هي العنصر المظلوم المهضوم المبتذل

الرخيص، الذي بات يجري خلف الرجل، وتتذلل له، والرجل ينتقل من أنثى إلى أنثى بلا مساءلة أو حقوق...

أيتها الأخت المسلمة، اسألي واقرئي عن بنات جنسك ممن سلخن ثوب العفة والحياء، وانطلقن وراء الشهوات وتبعن أهواء الغشاشين ماذا كانت النتيجة وما هي الثمرة؟.

وصيتي إليك أيتها الأخت المسلمة:

اعتزي بدينك وتراث آبائك وأسلافك الميامين، وكوني قدوة صالحة لأبنائك وبناتك، وأخلصي في انتمائك إلى أمتك المجيدة، واعلمي أنَّ العفة شرف عند كل العقلاء والزنا رذيلة عند كل الأمم، وإن تسمي بكل الأسماء الطيبة كالحب والحرية... وإنَّ الزنا ليس زنا الفرج فقط بل العين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، والفم يزني وزناه القبل، كما جاء بذلك الحديث (لما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال: **«فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبُهُ»**). واعلمي أنَّ سعادتك أن تكوني بنتاً فاضلة مطيعة في الحق والخير، وزوجة وفية كريمة، وأماً صالحة تقية.. وأنَّ الصلاة عماد الدين، وأنَّ صيام يوم يباعد بين وجهك والنَّار سبعين خريفاً (للحديث المتفق عليه أنَّه ﷺ قال: **«من صام يوماً في سبيل الله، بَعُد الله وجهه عن النَّار سبعين خريفاً»**)، وأنَّ الصدقة من أعظم ما يظهر به الله الذنوب ويمحو به الخطايا، وأنَّ الكاسيات العاريات لا يُرِحْن الجنَّة ولا يُرهُن ريحها وأنهنَّ ملعونات (روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال ﷺ : **«صنفان من أهل النَّار لم أرهما بعد: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النَّاس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مميلات مائلات، رؤوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلنَّ الجنَّة ولا يجدن ريحها وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»**). وأنَّ الحجاب الإسلامي صون لك وعفاف، وأنَّ من شروط الحجاب الشرعي ألا يكون زينة في نفسه ولا ملفتاً للنظر، ولا ضيقاً

يصف الأعضاء، ولا شفافاً يُخبر عمَّا تحته، ولا مشابهاً لباس الكفار والراهبات، ولا مشابهاً لباس الرجال.

أيتها الأخت المسلمة:

هذا حديث القلب، وكلمة الناصح الأمين، فاحذري أولياء الشيطان ممن يريدون غوايتك وإضلالك، وكوني أمة الله الصالحة، وسليلة النجيبات الطيبات، واعلمي أنَّ دورك في بناء الأمة عظيم، فقومي بهذا الدور ولا تكوني أنت وسيلة الهدم والدمار بل كوني أنت صانعة الرجال.

كتاب

الحكم الشرعي

في

إشراك الفتيات

بالرقص في الاحتفالات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وبعد فمعلوم من الدين ضرورة أنَّ للإسلام آدابه وتعاليمه وأحكامه الخاصة بالرجال والنساء، ومن هذه الأحكام والآداب ألا تبدي المرأة زينتها إلاَّ لزوجها أو محارمها، وأنَّه لا يجوز لمسلم أن يطلع على زينة امرأة غير محرم أو زوج. وأنَّ الله سبحانه وتعالى قد أمر المؤمنين والمؤمنات بغض أبصارهم.

وللأسف أنَّ هذه الأحكام والآداب المعلومة من الدين بالضرورة والتي أجمع عليها المسلمون سلفاً وخلفاً قد استبيحت وتركت إلاَّ قليلاً، بعد الغزو الكافر على أرض الإسلام، وافتتان كثير من أبناء المسلمين بحضارة الغرب ونظامه في الحياة، والأعجب من ذلك أنَّه قد نشأ في المسلمين، من يجادل في أحكام الإسلام هذه ويشكك فيها ويختلق غايات وأهدافاً يدعي أنَّها شريفة لظهور المرأة بفتنتها وزينتها أمام الأجانب.

ومن هذه الغايات ما يسمى بالفن، والرياضة والرقص الذي يسمونه الإيقاعي، والاحتفالات الوطنية، والتراث الشعبي.. وتحت هذه المسميات بدأت وانتشرت استباحة أحكام الإسلام، وأخلاق الدين.. وانتهكت تشريعات رب العالمين.

ولمَّا كان كثير من هؤلاء المشككين في أحكام الإسلام وآدابه الخاصة بالمرأة، يدعي أنَّ الإسلام نفسه لا يخالف في ظهور المرأة أمام الرجل تحت المقاصد السالفة، ولمَّا كانت وزارة التربية، وبعض الجهات قد عمدت إلى إشراك الفتيات والبنات في العروض الرياضية والمسرحية بمناسبة العيد الوطني وكان هذا مخالفاً للمعلوم من الدين ضرورة، وكان المعترض على ذلك كأنَّه مدخول في حب وطنه والفرح باستقلاله، ومشكك في ولائه وانتمائه أحببنا كتابة هذا البيان إعذاراً وإنذاراً... إعذاراً لله رب العالمين، وإنذاراً من عقوبته ونقمته، وبياناً للحق على الوجه التالي:

أولاً: إظهار الفرح لا يكون بمعصية الله:

نحب أولاً أن نقول: إنَّ الاستقلال على الكافر المستعمر نعمة، وقيام هذا الكيان المستقل هبة من الله سبحانه وتعالى، وظهور النفط في بلادنا لا يشكك عاقل أنَّ ذلك كان وما زال بفضل الله ورحمته وإحسانه على أهل هذه الأرض، والواجب أن نعلن في كل يوم نتذكر هذه النعم ولاءنا لله، ومحبتنا له وسعينا في مرضاته، وشكر نعمائه أمَّا أن نظاهر الله بالخصومة، ونعلن الحرب عليه وعلى شريعته ودينه، ونستبيح محارمه في اليوم الذي خصصناه لتذكر هذه النعم كلها فهذا أمر عظيم جداً... إنَّ ذلك مدعاة لسخط الله، واستعجال لعقوبته، وغضبه.

وها نحن نرى النَّاس من حولنا، تتزلزل الأرض من تحت أقدامهم، ويخر السقف عليهم وينهار كل من بنوه وجمعوه... لمَّا اشتدَّ طغيانهم ونسوا ربهم، وتجبروا في الأرض، وقالوا: من أشد منَّا قوة، وظنوا ألا غالب لهم.. حتى أتاهم أمر الله الذي لا يرد، ووقعت بهم عقوبته التي لا صارف لها كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٢٦].

وها هي الدول من حولنا تتهاوى مملكة إثر مملكة ودولة بعد دولة، أفلا يكون في هذا عبرة لنا، ونعلم أننا لسنا بعيدين عن نقمة الله وعقابه. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٢] .

فلنتق الله سبحانه وتعالى، ولنعلم أنَّ هذا الأمن والعافية، والسلام، والعيش الطيب، الذي نعيش فيه كل ذلك بفضله ورحمته، وأنَّ هذا العيش الرغيد الذي نعمت به الكويت قد كان منة وهبة منه سبحانه وتعالى. ولعلَّ ذلك كان بفضل الصالحين المصلحين من أهل التقوى الذين يقومون بحق الله عليهم.

ثانياً: ظهور الفتيات في الاحتفالات العامة أمام الرجال معصية عظيمة، وإثم كبير:

وهذا أمر لا يشكك فيه مسلم يفهم الدين، ويقرأ القرآن ويعلم شيئاً عن سنة سيد المرسلين والأدلة على هذا كثيرة جداً نوجز بعضها في هذا البيان.

أ ـ أدلة من القرآن الكريم:

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

وهذه نصوص قرآنية واضحة يأمر الله فيها المؤمنين والمؤمنات بغض البصر، وحفظ الفروج، وأنَّه لا يجوز للمؤمنة أن تبدي زينتها إلاَّ لمن ذكرتهم الآية من المحارم والأزواج والأطفال والتابعين غير الإربة من الرجال ولا شك أنَّ الأمر بغض البصر، وعدم إظهار الزينة يتنافى قطعاً، ويتناقض أساساً

مع عرض الفتيات أنفسهنَّ أمام الجمهور والنَّاس في حركات راقصة، أو رياضية وهنَّ حاسرات الرؤوس، بارزات الصدور والنحور، يتمايلن يميناً ويساراً وسط الإعجاب والحبور. فهل مثل هذا يتفق وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩].

وهل حضور هذه العروض، والتمتع برؤية الفتيات البالغات والمراهقات، يتناسب وقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣].

وهل هذا يتناسب مع قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣].

فإذا كان سؤال المرأة من وراء حجاب أطيب لطهارة القلب والمخاطب هم الصحابة، ونساء النبي ﷺ فكيف بمن بعدهم ووراءهم، ممن انتشرت أمراض القلوب فيهم، وتغلغل حب الفاحشة من نفوسهم.

إنَّ هذه الآيات المحكمات كلها شاهدات أنَّه لا يجوز بتاتاً اطلاع الرجال على زينة النساء اللاتي لسن بمحارم ولا زوجات، فكيف بصفهن صفوفاً، واستعراض مفاتنهنَّ، وفنهنَّ، وحركاتهنَّ أمام الرجال؟!.

ب ـ أدلة من السُّنة:

جاءت السُّنة الشريفة مفصلة لما في الكتاب ومقررة له، ومضيفة إضافات كثيرة لبيان أحكام أخرى ما لم ترد في القرآن.

ومن تشريعات السُّنة في هذا الصدد، أنَّ النبي ﷺ نهى عن اتباع النظر، ووجوب إبعاده في نظر الفجأة، وسمى رسول الله اتباع النظر إلى الأجنبية ـ غير الزوجة والمحرم ـ زناً، ونهى رسول الله المرأة أن تخرج من بيتها

مستعطرة ليشم النَّاس ريحها، وإليك النصوص في ذلك:

١ ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**... العينان تزنيان وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، والفم يزني وزناه القبل، واليد تزني وزناها البطش...**» (رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة).

٢ ـ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرأة استعطرت، ثم خرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية**» (أخرجه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي موسى وصححه الألباني في ص. ج (٣٦٩٨)).

وقال أيضاً ﷺ: «**يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست الآخرة**» (أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن بريدة وحسنه الألباني في ص. ج (٧٨٣٠)).

وسئل رسول الله عن نظرة الفجأة فقال: «**اصرف بصرك!!**» (أخرجه مسلم عن جرير).

وكل هذه النصوص قاضية بما قررناه آنفاً أنَّه لا يجوز لمسلم امتاع نظره فيمن لا تحل له. فهل الشريعة الحكيمة التي جاءت بهذه الأحكام، وأرشدت إلى هذه الآداب تقر الإصطفاف والجلوس في الأندية والساحات والمسارح لرؤية الفتيات البالغات والمراهقات، وهنَّ يصدحنَّ بالألحان، ويتمايلن بالأجساد، وينثرن شعورهن في كل اتجاه، ويقابلن بالاستحسان والتصفيق والتصفير.. ونسمي بعد ذلك أنفسنا أُمة الإسلام، وندعي مع ذلك الصلاح والإصلاح؟.

إجماع الأمة:

وعلى هذه النصوص المبينات الواضحات من كتاب الله الحميد وسنة رسوله الأمين، أجمعت الأمة وأطبقت سلفها وخلفها، أنَّ حجاب المسلمة

فرض واجب، وأنَّه لا يجوز لها أن تبدي شيئاً من زينتها لغير زوجها ومحارمها، وأنَّ المسموح به فقط هو الوجه والكفان في غير تعمد زينة وفتنة، وأنَّ ما عدا ذلك فواجب الستر والتغطية، ولكنَّ المنافقين والمنحرفين من أبناء الإسلام والذين سقطوا صرعى الغزو الفكري الكافر، وأسرى لدعايات اليهود، وفكر الصهاينة المفسدين، راحوا يقلدون أعداء الله، وخصوم الإسلام، في إخراج المرأة من بيتها، والاستمتاع بها في كل مكان متذرعين بالفن تارة، والرياضة أخرى، والحرية تارات.

وبعد فلا يشك مسلم في حرمة هذه الدعوة الفاجرة إلى إخراج الفتيات وعرضهنَّ أمام النَّاس ونظر الملأ إليهنَّ.

وإننا لنتوجه أولاً بالنداء إلى أولياء أمور هؤلاء الفتيات منبهين إياهم أنَّ هذا حرام لا يجوز، وأنَّ الله سائل كل ولي عمَّا استرعاه، ثم نناشد أولياء الأمور الذين مكنهم الله أن يراعوا الأمانة، ويحفظوا عهد الله وميثاقه، وأن يحذروا نقمته وعذابه.

قال رسول الله ﷺ: **«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته» الحديث** (رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر).

وقال أيضاً: **«ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلاَّ حرم الله عليه الجنة»** (رواه مسلم من حديث معقل بن يسار المزني).

فلنتق الله في أنفسنا وبناتنا ونسائنا. وليكن موقفنا مع تذكر نعم الله أن نشكره ونذكره ونحمده لا أن نكفره، ونعلن الحرب عليه، والله لا يُغلب، ومن يغالبه فهو مغلوب لا محالة الله.

كتاب

كيف تقوم رمضان

وأنت فرح مسرور ؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كيف تقوم رمضان وأنت فرح مسرور؟

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد،

فقد قال النبي ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» (متفق عليه) .

وهذه جائزة كبرى لأن من لا ذنب له فلا عقوبة عليه، وقد سلمت له حسناته ومن جاء يوم القيامة لا ذنب عليه فهو السعيد حقاً، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران، الآية ١٨٥).

ولما كان قيام الليل والتهجد من أشق العبادات ومن أعظمها أجراً؛ فإنني جمعت بحمد الله مجموعة من التنبيهات التي تيسر لك القيام، بل قد تجعلك تقوم وأنت فرح مسرور سعيد، لا ترى أنك قد أُعطيت من قرة العين وفرحة القلب مثله.

١ . تذكر أنك بحضرة الملك:

تذكر وأنت تقوم في الصلاة أنك بحضرة الملك الذي تناجيه ويناجيك، ويذكرك حال ذكرك له.

فإن الله سبحانه وتعالى قد قسّم الصلاة بينه وبين عبده، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن

الرحيم، قال: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، وذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل (متفق عليه).

وتذكر أنك عندما تذكر الله في نفسك فإن الله يذكرك في نفسه.

وتذكر أنك أقرب ما تكون من الله عندما تكون ساجداً. وإذا تذكرت ذلك كله علمت أنك في مقام القرب، ومن كان في مقام القرب تنزلت عليه الرحمات والبركات. فأي سعادة هذه لمن يستشعر هذا الشعور؟!

٢ . الصلاة أحسن عملك:

لا عمل للإنسان قط أشرف وأنفع من الصلاة، فأما عمل الدنيا فركعتان يركعهما العبد خير له من الدنيا كلها وما فيها وهذه على الحقيقة واليقين.

فقدر أنك لو كنت في عمل دنيوي يدر عليك ألف ألف (مليوناً) في عشر دقائق، فإنك بصلاة ركعتين قد حزت أكبر من ذلك وأفضل آلاف الآلاف من المرات ولتكن موقناً بذلك.

وأما عمل الآخرة فالصلاة أفضل العمل لقوله صلوات الله عليه وسلم: «الصلاة خير موضوع» (رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني رحمه الله).

٣ . اتعب في الصلاة.. فالنصب مقصود:

النصب في الصلاة مقصود ومحبوب للرب فانصب في صلاتك، أطل القيام، وأطل الركوع والسجود.

فإن الله لما أمر رسوله ﷺ وأصحابه بقيام الليل قال لهم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل، الآيات ٥ - ٦).

فالتهجد وترك النوم ثقيل على النفس والقيام الطويل متعب، ولكن أعمل

أن هذا مقصود ومحبوب عند الله تعالى، فلتحب ما يحب الله.

وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ (سورة الشرح . الآية ٧).

أي إذا فرغت من عمل الدنيا فانصب في العبادة والنَصَب هو (التعب) ومن أجل ذلك قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه (متفق عليه) .

٤ . إذا نصبت في الصلاة فاذكر الأسوة:

إذا نصب في صلاتك فتذكر رسول الله ﷺ الذي كان يقوم حتى تتفطر قدماه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وتذكر قيام الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم فقد أتوا في هذا الباب من العجائب، فكان منهم من يقرأ القرآن كله في ثلاث ليال فقط ويعيش على ذلك عمره كله ومن يختم في سبع، ومن يختم في عشر... وكانوا كما قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سورة الذاريات، الآيات ١٧ - ١٨).

وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (سورة السجدة ، الآية ١٦).

٥ . تفكر فيما تقول:

يجب أن تصلي وأنت حاضر القلب تفكر فيما تقول وتدبر ما تقرأ من القرآن، وما تسمع منه.

وكان رسول الله ﷺ عند قراءته لا تمر عليه آية فيها رحمة إلا وقف عندها وسأل الله، ولا تمر عليه آية فيها عذاب إلا وقف عندها واستعاذ بالله (الحديث عند مسلم والنسائي وأبو داود) ..

فتدبر معاني التسبيح والتحميد والتكبير وكلمات تعظيم الرب وتمجيده وذكره.

٦ . أكثر من الطلب والدعاء:

أنت بحضرة الملك وتناجي الرب الذي لا ينقصه عطاء ولا يثقله دعاء، والذي كلما سألته ازددت منه قرباً، ولك حباً. فادعه متضرعاً راجياً حاضر القلب موقناً بالإجابة.

٧ . لا تنتظر آخر السورة ومتى يركع الإمام؟

عش مع القراءة، واحيا مع القرآن، وتدبر ما تقرأ أو تسمع.

وعند ذلك تسهل عليك الصلاة ولو بقيت الليل كله.

ولا تنتظر آخر السورة أو حتى يركع الإمام فإنك إن فعلت ذلك ثقلت عليك الصلاة.

٨ . لا تلتفت إلى شيء خارج الصلاة:

فرّغ قلبك من شغل الدنيا، ومن كل شيء سوى الصلاة، واشتغل وأنت في الصلاة بالصلاة وحدها، وكلما نزعك الشيطان من الصلاة إلى شيء خارجها فذكرك أمراً ما فاستعذ بالله من الشيطان وعد إلى صلاتك ثانية.

وجاهد نفسك في هذا جهاداً، فإن الشيطان حريص كل الحرص أن يشوش عليك صلاتك ويذكرك ما لم تكن تذكره ويأخذك بعيداً عنها.

٩ . طهر فاك.. ونظف ثيابك.. وتعطر.. وخذ أحسن زينتك:

لا تأتيك صلاة الليل إلا وأنت في أكمل الزينة، وأتم الطهارة والنظافة وأطيب رائحة تقدر عليها، بدءاً بتنظيف الفم بالسواك أو ما يقوم مقامه من فرشاة ومعجون.

وإياك أن تصلي بفم ينبعث منه رائحة كريهة فإنك بهذا تؤذي المؤمنين وتؤذي الملائكة التي تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم (متفق عليه) .

وبهذا تكون محل السخط لا محل الرضا والقبول.

وخذ أحسن ما عندك من الثياب، وقد كان السلف يحتفظون بأفضل ما يقدرون عليه من الثياب لقيام العشر من رمضان.

وتطيب بأحسن ما قدرت عليه من الطيب.

واعلم أن هذا كله محبوب لله، محبوب لملائكته، والله نظيف يحب النظافة، طيب لا يقبل إلا طيباً (الحديث بمعناه عند الترمذي وحسنه الألباني رحمه الله) .

واعلم أن الاغتسال ونظافة الفم والثياب والطيب يشرح النفس، ويبعث النشاط، وبالتالي يسهل عليك الصلاة، ويطيب لك القيام.

١٠ ـ لا تصل وأنت حاقن أو حاقب أو جائع تشتهي الطعام أو ناعساً يغلبك النوم:

لا تأت الصلاة وهناك ما يشوش ذهنك ويصرف فكرك، وأعظم ما يشوش الذهن ويذهب الفكر أن تكون حاقناً، يدافعك البول، أو حاقباً، تدافع الغائط، أو جائعاً بحضرة طعام تشتهيه.

وقد قال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان» (متفق عليه . والأخبثان هما البول والغائط).

فيستحسن أن تستعد لصلاة القيام بالفراغ التام مما يشوش ذهنك، وبأن تتناول شيئاً من طعام يقيتك ولا يثقلك، وقد أخذت قسطاً من النوم استعداداً للقيام، واحتسب نومتك كما تحتسب قومتك.

١١ ـ اخشع في صلاتك:

والخشوع يكون بسكون القلب وسكون الجوارح فاحبس قلبك في الصلاة، واحبس جوارحك على حركة الصلاة فقط قياماً وركوعاً وسجوداً.

ولتكن يداك حيث علمنا رسول الله ﷺ في القيام والركوع والجلوس والسجود والتشهد (انظر كتاب صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ الألباني رحمه الله).

ولتكن عيناك ناظرة إلى موضع سجودك وفي جلوسك لا تتعدى ركبتك، ولا تلتفت فإن الالتفات سرقة يسرقها الشيطان من صلاتك. فلا تجعل للشيطان حظاً من صلاتك.

١٢ ـ رتل القرآن وصل خلف القارئ المُجيد:

أمر الله رسوله ﷺ أن يُرتل القرآن في صلاة الليل فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (سورة المزمل ـ الآيات ١، ٤).

وترتيل القرآن بتجويده وإحسان قراءته وتحسين الصوت به .

وقد بينه النبي ﷺ بقوله: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا» (رواه ابو داود وأحمد وغيرهم وصححه الألباني رحمه الله).

وقال ﷺ «الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً» (صحيح الجامع (٣٥٨١)).

وقال ﷺ: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن» (صحيح الجامع (٥٥٢٥)، والحديث عند البخاري ومسلم بلفظ قريب) .

فتغن بالقرآن في صلاة الليل أو صل عند من يحسن القراءة ويتغنى بالقرآن ويضبط أحكام قراءته، فإن هذا أبهج للنفس وأقوى على القيام.

١٣ . أخلص عملك لله:

واعلم أن ملاك ذلك كله أن تقوم لله، لا مرائياً بعملك، فإن المرائي لا يقدر من عمله على شيء، ولا يناله منه حسنة واحدة، ولم يستفد إلا نصبه وتعبه.

١٤ . من كانت تنبعث منه رائحة كريهة فانصح له بالخروج من المسجد :

قال ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا في المسجد يؤذينا برائحته» (متفق عليه واللفظ لمسلم).

فإن الملائكة يتأذون مما يتأذى منه الإنس، وكانوا يُخرجون من المسجد من تُشم منه رائحة خبيثة.

فإذا رأيت من هو كذلك فانصح له بالخروج من المسجد حتى لا يأثم ويؤذي عباد الله وملائكته.

١٥ . ليلة القدر فرصة عُمر فلا تضيع منك:

قيام ليلة القدر وحدها خير من قيام ليالي ألف شهر أي أنها أفضل من أن تقوم ليالي ثلاث وثمانين سنة وشهرين. وهذا فضل عظيم، لا يتصور مقداره، وقد تضاعفت فيه الحسنات ثلاثين ألف مرة، فإياك وإضاعة ذلك.

وليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان حتماً، وفي لياليها الوتر (٢١ . ٢٣ ٢٥ . ٢٧ . ٢٩) كما جاء به الحديث.

وقد أعلم الله بها نبيه ﷺ في المنام، ثم لما خرج ليخبر الناس بها، كان هناك رجلان يتلاحيان (يستبان سباً شديداً)، فانشغل النبي بذلك فنسيها، ثم قال ﷺ هي في الليالي الوتر من العشر الأواخر (انظر صحيح الجامع (٧٨٧٤) وصحيح ابن خزيمة ج ٣ ص ٣٢٤).

فاستيقظ لها وأيقظ أهلك، وحتى أولادك المميزين. واخرج لصلاة الليل فيها في أحسن ثيابك وأكمل هيئتك، وأحسن عطرك، وكأن هذا يوم عرسك.

فإن السماوات كلها محتفلة والملائكة فيها نازلة، وجبريل في الأرض مع المؤمنين قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ (سورة القدر . الآيات ١ ، ٥). والروح.. هو جبريل.

فادخل هذا الحفل العظيم المشهود ... وفز بالجائزة الكبرى.

ولا رثاء ولا عزاء للضائعين والضائعات والغافلين والغافلات الذين آثروا الحياة مع الشهوات والتفاهات.

١٦ . صل صلاة مودع كأنك تراه:

من جُوامع كلمه ﷺ قوله: «صل صلاة مودع كأنك تراه» (رواه مسلم).

والمعنى صل وأنت تظن أن هذه الصلاة هي آخر عهدك بالدنيا، وأنك مرتحل بعدها إلى الآخرة وصل كأنك ترى الله أمامك!!

١٧ . صل قاعداً أو على جنبك إن كنت لا تستطيع القيام ولك أجر القائم:

وذلك لقوله ﷺ: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنبك» (رواه البخاري).

١٨ . صل قاعداً في النفل، وإن كنت تستطيع القيام ولك نصف أجر القائم:

إذا كنت تستطيع القيام وأحببت أن تصلي قاعداً فلك نصف أجر قائم.

قال ﷺ: «من صلى قائماً فهو أفضل ومن صلى قاعداً فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائماً فله نصف أجر القاعد» (متفق عليه) .

١٩ . لا تخجل أن تصلي قاعداً:

فإن هذا الخجل يحرمك أجراً عظيماً.

فإن كنت معذوراً لا تستطيع القيام فلك الأجر كاملاً وإن كنت تستطيع القيام وصليت في النفل جالساً فلك نصف الأجر فلا تحرم نفسك، ولا يمنعك الخجل من الناس من الأجر العظيم.

٢٠ . اجلس في المسجد وإن لم تستطع الصلاة:

إذا لم تستطع أن تصلي قائماً ولا قاعداً ولا مضطجعاً فاشهد المسجد ودعوة المسلمين، فإن المكث في المسجد ولو بغير صلاة عبادة عظيمة، فإن الملائكة تصلي على من جلس في المسجد بعد الصلاة تدعو له وتقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه (صحيح الجامع (٣٨٢٣)).

المحتويات

١ - الجحيم رؤية من الداخل

٢ - فضائل أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)

٣ - لمحات من حياة الشيخ ابن تيمية

٤ - توجيهات تربوية مستقبلية لبناء الإنسان الصالح في الوطن العربي

٥ - من خطب المنبر

٦ - القواعد الذهبية في حفظ القرآن وتدبره والفتح على الإمام

٧ - واجبنا نحو تطبيق شريعة اللّه

٨ - الهجوم على الإسلام مِنْ مَنْ ؟ ولَماذا

٩ - تعريف بالدعوة السلفية

١٠ - كلمات من القلب إلى أختي المسلمة

١١ - الحكم الشرعي في إشراك الفتيات بالرقص في الاحتفالات

١٢ - كيف تقوم رمضان وأنت فرح مسرور؟